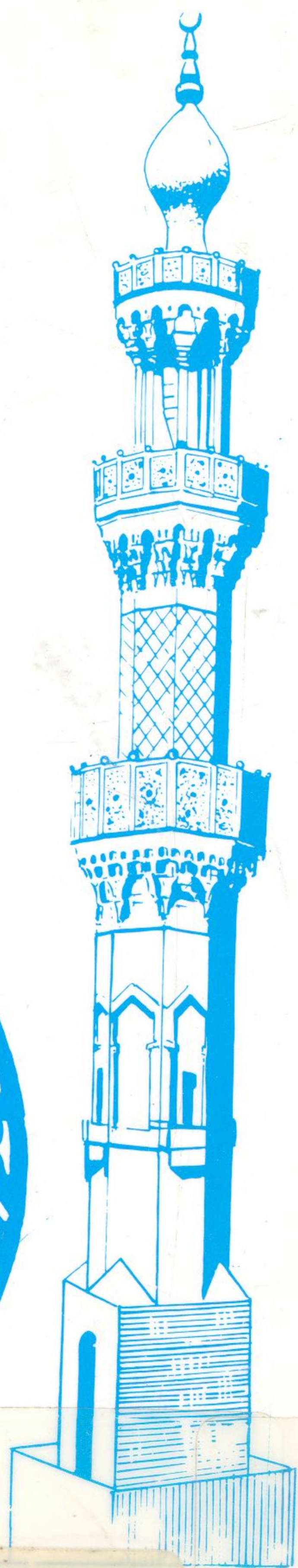
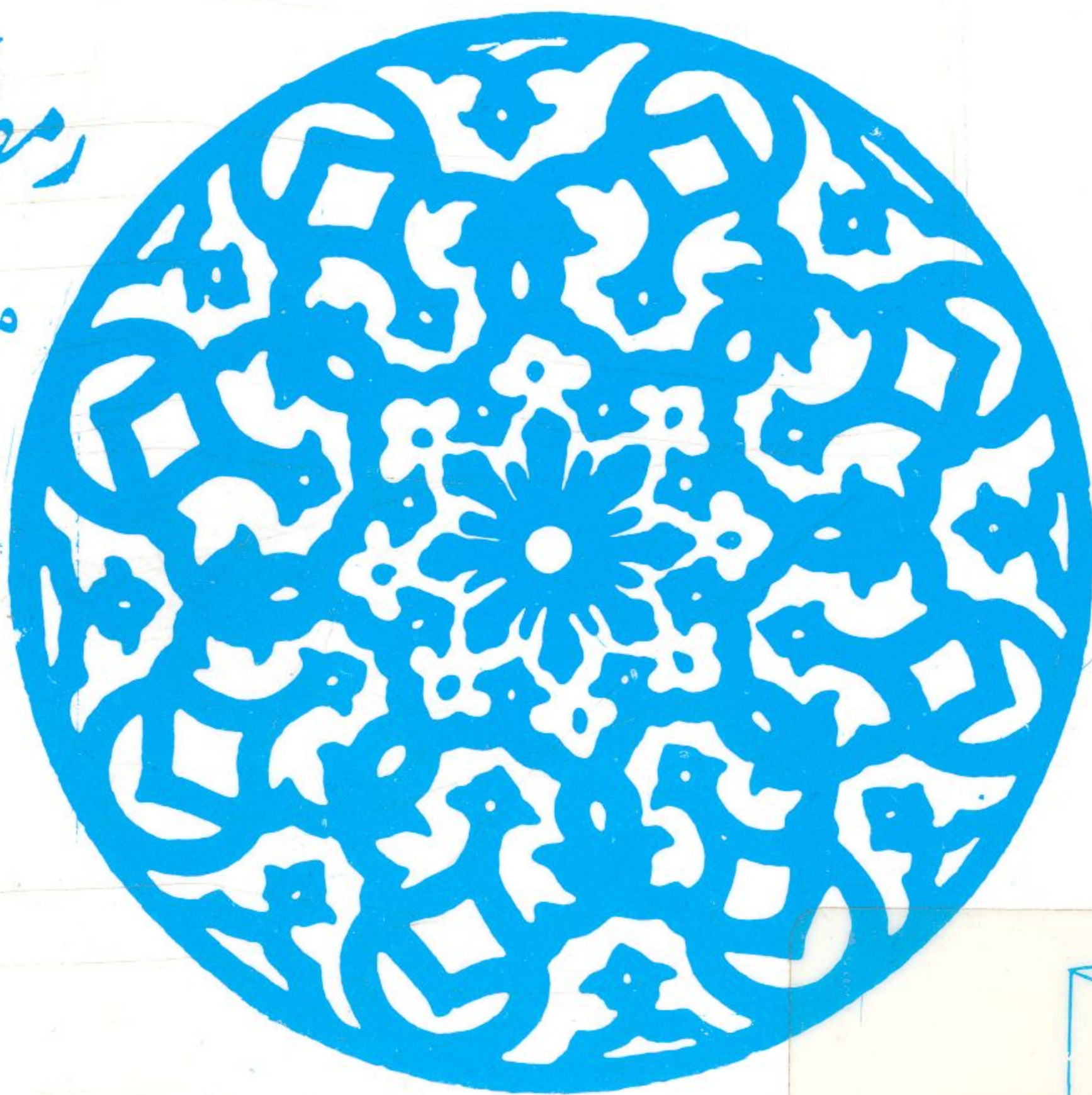


الأمام الشافعي

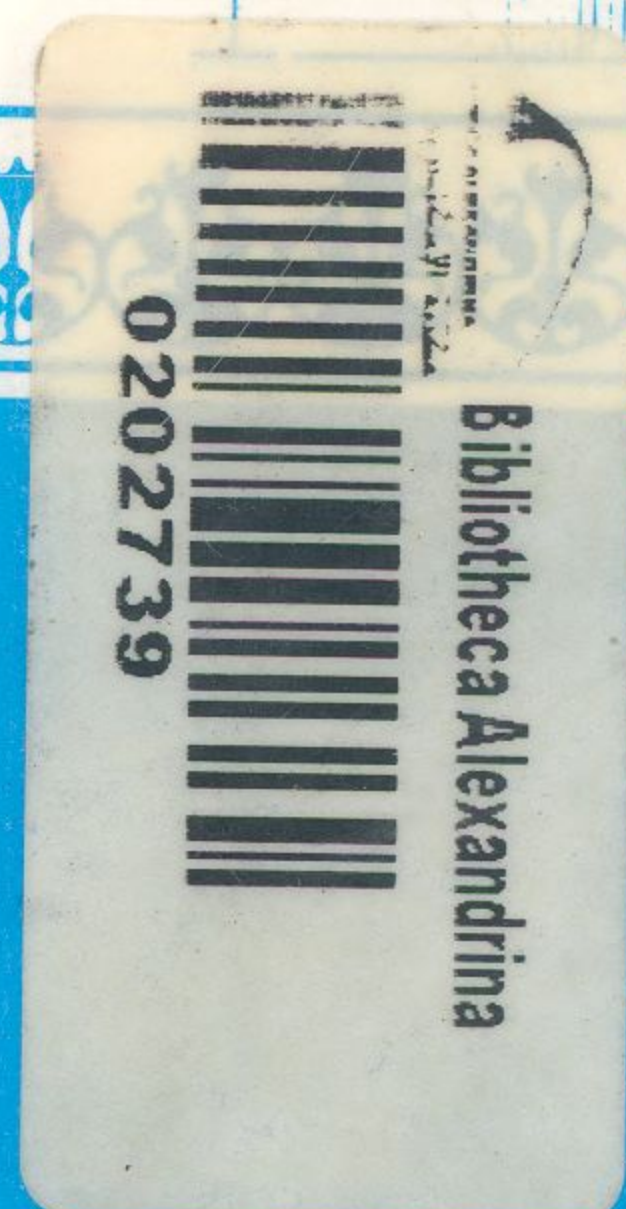
فقيهاً.. ومحدثاً

رمضان أحمد عبد ربه عصفور

من علماء الأزهر الشريف



الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت. ٣٩١٧٤٧٠



الإمام الشافعي

فقيهاً.. ومحدثاً

رمضان أحمد عبد ربه عصفور

إمام وخطيب ومدرس أول
مسجد السيدة نفيسة رضي الله عنها

يطلب من

مكتبة وهيب

٤ شارع الجمهورية، عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

حقوق الطبع محفوظة

تحذير

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة (للطباعة والنشر). غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أى جزء منه، أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية، أو ميكانيكية، أو نقله بأى وسيلة أخرى، أو تصويره، أو تسجيله على أى نحو، بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر.

All rights reserved to Wahbah Publisher. No Part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher.

أميرة للطباعة

٥ شارع محمود الخضرى - عابدين
ت: ٣٩١٥٨١٧ محمول: ٠١٠١٤٥٦٠٣٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



سیدی یا رسول الله :
أرفع إليكم المسيرة المباركة
لعالم قريش الذي ملأ طباق الأرض علما
إنه : محمد بن إدريس الشافعي
رضي الله عنه

المؤلف
رمضان عصفور

«إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بها ودعوا ما قلته»
الإمام الشافعي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، نحمده ونستعينه ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. إنه من يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

والصلاة والسلام على الرحمة المهداة سيدنا محمد ﷺ.

ورضى الله تعالى عن صحابته وآله الطيبين الطاهرين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد: لقد حفظ الله تعالى الإسلام بأئمة المسلمين وعلمائهم خلفاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (العلماء ورثة الأنبياء).

لذا فإنه يسرني أن أقدم للمكتبة الإسلامية هذه الدراسة المتواضعة عن إمامنا سيدنا الإمام: محمد بن إدريس الشافعي المطلبى القرشى المكي ابن عم رسول الله ﷺ ناصر سنته الشريفة. وناشر أعلام طريقته الحنيفية السمحة.

والإمام الشافعي رضى الله عنه قد كتب عنه الكثير وسيظل يكتب عنه الكثير. وهذا أمر هو به جدير. ومن مثل الإمام الشافعي يحظى بهذا وهذا حقه لأنه قد أثرى الحياة العلمية الإسلامية بفيض علمه كما ساهم في الحركة الفكرية برجاحة عقله وثاقب فكره، يقول شيخ الإسلام أبو زكريا: يحيى بن شرف النووي رحمه الله تعالى في كتابه «التهذيب»^(١) كان الشافعي رحمه الله من أنواع المحاسن بالمحل الأعلى والمقام الأسنى لما جمعه الله له من الخيرات. ووفقه له من جميل الصفات. وسهله عليه من أنواع الكرامات فمن ذلك شرف النسب لاجتماعه مع رسول الله ﷺ في جده: عبد مناف.

ومن ذلك شرف المولد والمنشأ فإنه ولد بالأرض المقدسة - بغزة من أرض

(١) توالى التأسيس لابن حجر: ٥٥.

فلسطين - ونشأ بمكة . ومن ذلك أنه أخذ عن الأئمة المبرزين . وناظر الحذاق المتقنين . ووجد الكتب في العلوم قد مهدت . والأحكام قد قررت فانتخب وتخير وحقق وحبر ولخص طريقة جامعته للنقل والنظر . ولم يقتصر كما اقتصر غيره . مع ما رزق من كمال الفهم وعلو الهمة والبراعة في جميع الفنون . والمهارة في لغة العرب . وإتقان معرفة كتاب الله تعالى وسنة رسوله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - ورد بعض ذلك إلى بعض حتى أذعن لفضله المخالف والمفارق ، واعترف بتقدمه المقارن والموافق ، فبارك الله تعالى في علومه الباهرة . ومحاسنه المتظاهرة . إلى أن انتشرت تصانيفه وتلاميذه وكثر الآخذون لطريقه بعده حتى ملأ علمه طباق الأرض كما بشر به الصادق المصدوق - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - قال محمد ابن الحسن : « إن تكلم أصحاب الحديث يوما فبلسان الشافعي » وقال أحمد ابن حنبل : « ما أحد من أهل الحديث مس محبرة ولا قلما إلا وللشافعي في رقبته منة » وقال الزعفراني : « كان أصحاب الحديث رقودا حتى أيقظهم الشافعي أ . ه .

وروى أبو داود الطيالسي في مسنده : قال رسول الله ﷺ : « عالم قریش يملا طباق الأرض علما » (١) .

وروى البزار قال : سمعت عبد الملك بن عبد الحميد الميموني يقول : كنت عند أحمد بن حنبل فجرى ذكر الشافعي - فرأيت أحمد يرفعه وقال : روى عن النبي ﷺ يقول : « إن الله تعالى يقيض في رأس كل مائة سنة من يعلم الناس دينهم » .

قال : فكان عمر بن عبد العزيز في رأس المائة الأولى وأرجو أن يكون الشافعي على رأس المائة الأخرى .

وروى البيهقي عن أبي بكر المروزي قال : قال أحمد بن حنبل « إذا سئلت عن مسألة لا أعرف فيها خبرا قلت فيها بقول الشافعي لأنه إمام عالم من قریش » .

(١) وقد جمع طرقه العلامة ابن حجر العسقلاني في كتابه « لذة العيش بجميع طرق حديث الأئمة من قریش » كما ذكر في هامش ص ٥٥ من توالى التأسيس .

لقد كان إمامنا الشافعي رضي الله عنه يطلب دائما الاقتداء برسول الله ﷺ كما كان يهتدي بسنته الشريفة جمعا وتمحيصا ودرسا. ودفاعا وانتصارا فلم تحظ السنة بالدفاع عنها من أحد قبل الشافعي أو بعده بمثل ما دافع الإمام عنها. ولم يعمل السنة في الفقه والتشريع أحد من الأئمة مثل ما فعل الشافعي رضي الله عنه. فقد أسس الفقه الشافعي على الكتاب والسنة، فحقق في مجال الفقه والتشريع ثروة علمية ضخمة أبهرت معاصريه فترك الكثير منهم مذهبه وانضم إلى حلقة الإمام إعجابا بسعة علمه ودقة استنباطاته وحلاوة منطقته. وقوة إدراكه وإحاطته بكل العلوم والأدوات التي يستخدمها في اجتهاده كما أنه كان العالم المؤمن الصادق الواثق. فلم تأخذه في الله لومة لائم. ولم يجمال أحدا في فتوى. ولم ينافق أحدا من ذوى السلطنة أو ممن تربع على كرسي الأستاذية.

ناظر علماء أعلاما في ثقة. فكانت له الغلبة، مع أنه كان يتمنى أن لا يهزم محاوره ومناظره.

أحب العلم والعلماء فكان قريبا من قلوب الناس. كتب وصنف وأملى على تلاميذه فأثار إعجابهم. وترك ثروة علمية ضخمة أضافت الجديد والجليل للمكتبة الإسلامية فكان منهلا عذبا للعلماء في عصور الإسلام المتتابعة فسجل التاريخ في أنصع صفحاته أسماء علماء لهم دورهم البارز في الحياة العلمية والفكرية. تخرجوا جميعا من مدرسة الشافعية نذكر منهم على سبيل المثال: الأئمة والعلماء من غير تلاميذه الذين عاصروه وسمعوا منه وكتبوا عنه وهم: ابن جرير الطبري، أبو إسحاق الأسفراييني، البخاري، مسلم، النسائي، ابن خزيمة، إمام الحرمين، الجويني، العزبن عبد السلام، الغزالي، الرافعي، النووي، البيهقي، القفال، ابن كثير، تقي الدين السبكي، ابن حجر العسقلاني، ابن حجر الهيتمي، شهاب الدين الرملي، الماوردي جلال الدين السيوطي، شمس الدين السيوطي، فهؤلاء وغيرهم كثير من العلماء الأعلام كلهم يدينون بالولاء للإمام الشافعي ومدرسته الفقهية العظيمة.

كما كان الشافعي رضي الله عنه يتحلى بحميد الصفات. كريما في سخاء.

ومتواضعا فى عزة وكرامة . لين الجانب . عطوفا ودودا يعفو ويصفح . كما كان صابرا محتسبا وكان عابدا زاهدا تقيا ورعا . قانعا راضيا . صبورا على البلاء والغربة ولعل هذه الصفحات تبين لنا فى وضوح عن جهود تلك الشخصية العظيمة التى انتشر ذكرها وذاع أمرها فى ربوع العالم الإسلامى .

وأرجو أن أكون موفقا بفضل الله ومعونته . فأحظى بالرضا فى الدنيا وفى الآخرة ، كما أرجو لقارئه المثوبة والأجر من العلى الكبير .

وصلى الله تعالى وسلم على النبى المصطفى والرسول المجتبى ، وآله وصحبه الكرام ، ورضى الله عن إمامنا الشافعى وسائر إخوانه من الأئمة الأعلام والعلماء العاملين .

* * *

المؤلف

رمضان أحمد عبد ربه عصفور
إمام وخطيب ومدرس أول مسجد
السيدة نفيسة رضى الله عنها

القاهرة - (حدائق القبة)

أول ذى الحجة ١٤٢٠ هـ

الثلاثاء ٧ / ٣ / ٢٠٠٠ م

الفصل الأول

عصر الإمام الشافعى

إن للبيئة - كما للوراثة - أكبر الأثر فى حياة الإنسان . سواء فى ذلك البيئة الطبيعية أو السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية . فالإنسان ابن بيئته وهو وليد هذين المؤثرين - البيئة والوراثة - إذ على عاتقهما تكون التربية الجسمية والعقلية والأخلاقية والعلمية والثقافية .

وقد تحكم عامل البيئة فى الإنسان لدرجة كبيرة . فهو يرث عاداته وتقاليده وثقافته من البيئة التى يعيش فيها . إن خيرا فخير وإن شرا فشر وهكذا تتشكل المجتمعات البشرية من الأفراد فتصلح بصلاحتهم وتفسد بفسادهم . فالإنسان يتأثر بمجتمعه ويؤثر فيه .

ولا يخرج عن سنن المجتمعات وأنظمتها إلا القلة من الأفراد سلبا أو إيجابا . فالأول : ضعف . والثانى : قوة لأنه داعية تقدم ورفاهية فالأنبياء والرسل وخلفاؤهم والمصلحون وأتباعهم خارجون عن سنن مجتمعاتهم لأنهم يسلكون مناهج دينية أو أخلاقية أو اجتماعية أو سياسية تدعو إلى إصلاح المجتمعات وغرس العقيدة الإيمانية الصحيحة فى قلوب الناس .

وفى تاريخ الإسلام قامت حركات إصلاحية عديدة وبرز علماء أعلام قاموا بدعوات تجديد وإصلاح لمسيرة الدعوة الإسلامية من أمثال : الخليفة العادل : عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، والإمام الشافعى رضى الله عنه والإمام الغزالى رضى الله عنه والإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى وغيرهم كثير فالإمام الشافعى رضى الله عنه قد كان عالما ظموحا وإماما تقيا ورعا أثرى الحياة العلمية . تنقل بين البلاد والأمصار طالبا المزيد من العلم والمعرفة وناشرا ما فى جعبته من العلوم والمعارف فى تلك البلاد - بلاد الحجاز والعراق واليمن ومصر - التى رحبت به والتف حوله علماءها .

لقد كان إماما مجددا وعالما مصلحا وعابدا تقيا زاهدا انتقل إلى ربه عز وجل بعد أن ترك خلفه ثروة علمية ضخمة أبهرت العلماء والمجتهدين في علوم العقيدة والفقه وأصوله والحديث وعلومه والقرآن وأحكامه ولا عجب فهو عالم قريش الذي ملأ طباق الأرض علما.

وقد شرفت مصر وترابها بالإمام الذي قدر الله له أن ينام في أحضان ثراها وقد أسس بها مدرسته الفقهية الرائعة وما زال تلاميذ هذه المدرسة الشافعية ينتشرون في ربوع مصر؛ مدنها وقراها ونجوعها رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وجزاه عن الإسلام والعلم خير الجزاء.

* * *

الحالة السياسية والاجتماعية

ظلت الدولة الإسلامية دولة موحدة فى المشرق وفى المغرب فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين . فقد كان الخليفة بالمدينة أو بدمشق أو ببغداد - فى العصر العباسى الأول - هو الذى يحكم الدولة ويتولى شئون الحكم فيها يعاونه عماله على الأمصار والبلدان .

وقد كانت الأمور تسير سيرها الطبيعى إلا من بعض المنغصات ولكنها لم توقف المسيرة المباركة لحركة الدولة الإسلامية .

وفى أواخر عهد الأمويين قامت حركات ثورية مناوئة لخلفاء بنى أمية انتهت بسقوط الدول الأموية . وقيام الدولة العباسية (١٣٢ هـ) .

وتولى الخلافة أبو العباس : عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس الملقب بالسفاح الذى كان قاسيا فى فترة ولايته .

وقد بالغ العباسيون فى إيذاء بنى أمية وأنصارهم إيذاء لم يذكر التاريخ مثله وكأنهم بذلك قد أخذوا بثأر أهل البيت النبوى . إذ ارتكب العباسيون من أعمال القسوة ما أرضوا به مساعدتهم وأنصارهم من رجال الفرس وكان لهذه الشدة أثرها الفعال فى تفتيت وحدة الأمة الإسلامية وكانت البداية هى قيام رجل من بنى أمية هو أكبرهم عزما وتصميما ببناء ملك عظيم وقيام دولة أموية ببلاد الأندلس . إنه عبد الرحمن ابن معاوية (الداخل) الذى أسس الدولة الأموية بالمغرب سنة ١٣٨ هـ ، وهكذا انقسمت الدولة الإسلامية إلى دولة بنى العباس بالمشرق ودولة بنى أمية بالمغرب . وكان هذا أول انقسام يقع فى الدولة الإسلامية ولكن تحول الخلافة إلى بنى العباس لم يرق فى أعين بنى عمهم من أولاد على ابن أبى طالب كرم الله وجهه . الذين يرون أنفسهم أحق بالخلافة من أى بيت آخر فصمموا على أن يثأروا لأنفسهم أو يكذبوا صفوها لخصومهم . وكان أول الثائرين من العلويين هو : محمد بن عبد الله بن الحسن وقد كاد ينال من المنصور

غرضه، ولكن الله لم يرد ذلك فوق في أخطاء وسوء مصادفات قضت عليه بالمدينة وعلى أخيه ابراهيم بين البصرة والكوفة .

استقر الأمر للدولة العباسية بالمشرق ومشت قدما إلى الإمام حتى كانت فتنة الأمين والمأمون التي كانت إيذانا بتمزيق وحدة المسلمين، ثم وجدت عوامل أخرى جعلت عقد الوحدة ينتشر وتظهر في رقعة الوطن الإسلامي الأكبر دول صغيرة هنا وهناك . وكان لذلك أثره القوى في مركز الخلافة وضعف نفوذ الخلفاء وسكون ريحهم .

وقد كان من جراء ذلك قيام الدولة الصفارية والدولة السامانية والدولة البويهية في فارس وخراسان والدولة الطولونية في مصر والشام ومن بعدها الدولة الإخشيدية والدولة الحمدانية في حلب وشمال الشام ودولة الأغالبة في تونس وغيرها من بلدان افريقيا .

ولكن هذه الدول لم تقطع صلاتها بالخلافة العباسية بل كانت تدين لها بالولاء والطاعة ولكنها كانت إيذانا بفرقة الأمة وتقسيمها إلى دويلات، وقد كانت مسيرة الدولة العباسية تتأرجح بين الضعف والقوة وسبب هذا التأرجح أن الدولة العباسية كانت تركز على دعامتين :

الأولى : العصبية العربية على يد من والاهم من العرب .

الثانية : العصبية الفارسية على يد رجال من الفرس كانوا القوة المساعدة للعباسيين على قيام دولتهم .

ولن ننسى هذا الدور الكبير الذي قام به أبو مسلم الخراساني في نقل الخلافة إلى بني العباس .

وقد أخطأ الخلفاء العباسيون الذين كانوا إذا رابهم أى شئ من أحد الفريقين استعانوا عليه بالفريق الآخر مما أحدث فجوة كبيرة من الفرقة والتصدع في جدران الدولة .

وقد تجلى ذلك في الصراع الذي كان بين الخليفة المأمون بن الرشيد – الذي كانت تربيته فارسية محضة – فانتصر على أخيه الأمين بهؤلاء الفارسيين، ولما

ولى أخوه المعتصم استجد لنفسه عصبية أخرى من ممالك الأتراك الذين استكثر منهم . وبذلك كان القضاء المبرم على سلطان الدولة العباسية (١) .

وخضع العباسيون خضوعاً تاماً لهؤلاء الممالك الذين وضع بذورهم الخبيثة : المعتصم فكانت لهم الكلمة النافذة فى حكم البلاد وأبعد العرب عن المناصب الكبرى فى الدولة .

هذا . والأمة الإسلامية لم تعرف النظام الطبقي للمجتمع إلا فى ظل الدولة العباسية . فهناك طبقة الحكام والأمراء وطبقة العلماء وطبقة العامة .

لقد كانت الطبقة الأولى تتمتع بكل الامتيازات الكبرى فتتولى المناصب والوظائف العليا فى الدولة . وتعفى من كافة أنواع الضرائب الواجب دفعها لبيت المال .

وأما طبقة العلماء فقد كان مركزها يتأرجح بين الفينة والأخرى فتارة تغدق عليهم الدولة بالأموال . وتارة يحرمون وثالثة يعذبون وينفون . ومحنة الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه وغيره من علماء أهل السنة خير دليل على ذلك .

وأما الطبقة الكادحة فهم محرومون من مزاولة حقهم السياسى وعلى كاهلهم يقع عبء دفع الضرائب والعشور .

ولم تأت سنة ٣٣٠ هـ ولم يبق من الخلافة إلا الاسم . وتفتت وحدة المسلمين وتفرقت كلمتهم وذهب سلطان العرب إلى الأمم الأخرى كالفرس والديلم والترك والبربر . مما كان له أثر كبير وسبب مباشر فى تعدد الدويلات الإسلامية الضعيفة التى أودت بحياة الأمة الإسلامية إلى عصور التخلف والظلام مما جعل الاستعمار ينال منها ويقسمها تركة مباحة للدول الاستعمارية . التى نهبت خيرات المسلمين وتحكمت فى ثرواتهم وفى أوضاعهم القومية والسياسية حتى غدت الأمة الإسلامية ضعيفة هزيلة ذليلة لا حول لها ولا قوة وها هى اليوم بكل دولها أمة عاجزة ودول نامية فى وسط عالم مملوء بالوحوش والذئاب الضارية ، قتل هنا ، وتشريد هناك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

(١) تاريخ التشريع الإسلامى ١٧٣ الخضرى .

الحالة الحضارية والعلمية

إذا حدثك محدث عن العصر الذهبي للحضارة الإسلامية فإنه سيذكر لك .
ما كان من أمرها مقرونة بتاريخ بنى العباس بن عبد المطلب .

فالبرغم من تردى الأوضاع والحياة السياسية والاجتماعية فى بعض الأحيان
فى الدولة العباسية إلا أن الخلفاء العباسيين كانوا ينشطون الحركة العلمية
والثقافية . ولم ترتق الحضارة الإسلامية وتتطور إلا فى عهد العباسيين أكثر مما
كانت عليه فى عهد بنى أمية .

فلقد أسس أبو جعفر المنصور الخليفة العباسى الثانى مدينة بغداد وجعلها
حاضرة البلاد الإسلامية ، وقد تأتى فى بنائها لدرجة جعلتها تفوق فى ذلك العصر
جميع مدن العالم .

ولما أتم المنصور بناءها فتح أبوابها للعلماء من كل جانب من جوانب هذا
العالم حتى زيد عدد سكانها عن المليونين . ولم ينته عصر المنصور حتى أصبحت
بغداد عروس المدائن وسيدة البقاع فى العالم كله .

وقد تعاون فى بنائها العقل العربى والعقل الفارسى والرومى فأخذت من
كل عقل ما كمن فيه من قدرة الإبداع .

وقد كان من مظاهر هذه الحضارة اهتمام العباسيين بالموارد الاقتصادية*
اهتماما بلغ حد النهاية فنظموا الزراعة بشق الترع والمصارف وإقامة القناطر
واهتمت الحكومة بفلاحة البساتين التى قامت على دراسة عميقة بفضل انتشار
المدارس الزراعية التى ساعدت على دراسة أنواع النباتات وصلاحيات التربة
لزراعتها .

وكذلك اهتم العباسيون بالصناعة فاستخرجوا الفضة والنحاس والرصاص
والحديد مما ساعد على نمو بعض الصناعات المعدنية كما استخرجوا المرمر
والكبريت والملح .

واشتهرت الصناعة الخاصة بالصابون والزجاج والورق فى عدة مدن وندب لها الأساتذة والصناع من مصر وغيرها.

وتفوق المسلمون فى صناعات المنسوجات الحريرية والسجاجيد .

وقد ارتقت هذه الصناعات ارتقاء محمودا لم يعهد من قبل ، ولم يهمل العباسيون التجارة فاهتموا بأمرها وتسهيل سبلها فأنشأوا الآبار فى طريق القوافل التجارية . وأنشأوا المنائر فى الثغور وأقاموا ببلاد الشام أسواقا كثيرة لأنواع التجارات فى طول الشوارع على الجانبين .

ولقد بلغ من عنايتهم بشئون التجارة أن اهتم هارون الرشيد بمراقبة الأسواق وأسعار السلع والإشراف على الموازين والمكاييل منعا للغش مما كان له أكبر الأثر فى ترقية التجارة ونشاطها .

وبذلك استطاع العرب غزو الأسواق التجارية فى أنحاء الشرق والغرب ودون أن يجدوا عقبات فى طريقهم .

هذا ما كان من أمر الموارد الاقتصادية للدولة العباسية مما كان له أثر واضح فى ارتقاء المسلمين من الناحية الفكرية ارتقاء لم يعرفه الشرق أو الغرب من قبل . فى ثقافته ونهضته العلمية والحضارية فقد كان عامة الشعب من الخليفة إلى الرعايا طلابا للعلم أو أنصارا للأدب . وليس أدل على ذلك من رحلاتهم العلمية التى تحدث عنها تاريخ العلم والثقافة كثيرا .

وترجع أهم أسباب التقدم العلمى والثقافى إلى عاملين أساسيين هما :

أحدهما : الموالى ، لقد دخل فى الإسلام عدد عظيم من الفرس والتزوم والمصريين فهم ممن أسروا صغارا وتربوا تحت كنف ساداتهم من المسلمين فعرفوا ما عند ساداتهم من العلوم والمعارف الإسلامية والتى مصدرها الكتاب والسنة . ومنهم من أسلم كبيرا وكان له حظ من العلوم الشرعية والعلوم الدنيوية .

ولقد ارتقى هؤلاء الموالى ثقافيا وعلميا حتى كان لهم مكان مرموق فى

الثقافة الإسلامية . إذ كان منهم القراء الكبار والمحدثون العظام وعلماء اللغة والآداب الفحول مشاركين في ذلك إخوانهم العرب .

وبذلك تلاحقت الأفكار ونضجت العقول وأصبح هؤلاء شركاء في الدولة ، شركاء في السياسة شركاء في العلم والمعرفة .

وقد مكنهم ذلك من القيام بالدور الكبير الذي قاموا به في نقل الخلافة الإسلامية إلى بني العباس .

وثانيهما : حركة التأليف والترجمة :

لقد اتسعت حركة التأليف والترجمة في العصر العباسي الأول فشملت كل أنواع العلوم العقلية والنقلية وكذا الفلسفة بكل فروعها .

ولقد بذل العباسيون الجهد الكبير في الكشف عن مكنون الثقافتين الفارسية واليونانية وكان أكثر الخلفاء العباسيين عناية بهذا الأمر أبو جعفر المنصور والمأمون بن الرشيد وخاصة في مجال الترجمة وكان الأخير مغرما بالآداب اليونانية وبآراء أرسطاطاليس على وجه الخصوص . فأرسل البعوث إلى القسطنطينية لإحضار الكتب في الفلسفة والهندسة والطب والموسيقى فانتشرت هذه الكتب بين المسلمين انتشارا عظيما .

وبذلك استطاع المسلمون أن يخلطوا الثقافة العربية الإسلامية بالثقافات الأخرى .

ومن أجل ذلك أنشأ العباسيون المدارس المختلفة واهتموا بشئون التربية والتعليم مما شجع الكثيرون على تربية أبنائهم في هذه المدارس المختلفة العلوم والفنون كما أنشأ العباسيون المكتبات الضخمة المليئة بأنواع الكتب العظيمة في كافة أنواع العلوم والفنون والفلسفة وعلوم الزراعة والآداب والتاريخ والجغرافيا وغير ذلك .

ولقد أشاد (جوستاف لوبون) بتفتق ذهن العرب ودقتهم في البحث عن الجديد فقال نقلا عن (سديو) قوله إن أهم ما اتصفت به جامعة بغداد منذ البداية

هو روحها العلمية الصحيحة التي كانت سائدة لها في استخراج المجهول من العلوم والعلل من المعلولات وفي عدم التسليم بما لا يقوم على التجربة والترصد . ١ . هـ .

لقد كان لكل هذا أثره البالغ في ارتقاء الفن الإسلامي في البناء والزخرفة والهندسة والمصنوعات المنسوجة والنحت والتحف المعدنية والخزفية، يقول الأستاذ محمد غنيم مشيدا بعظمة هذه الدولة: وكانت دولة كثيرة المحاسن جملة الفوائد . أسواق العلوم فيها رائجة . وبضائع الآداب فيها رائجة وشعائر الدين فيها مقامة . والخيرات مدفقة والحرمان مرعية والثغور محصنة قوية مع كثرة ما حصل في أوائلها من الاضطرابات وسفك الدماء ولم تنزل آخذه في القوة والرفعة إلى أن سامت السماء علوا وشرفا وبقيت كذلك حتى كانت أواخرها فاضطربت واضمحلت حالها . ١ . هـ .

وإذا نظرنا إلى باقي البلاد الإسلامية في هذا العصر نجد في الغرب جزيرة الأندلس حيث مدينة قرطبة التي جعلها الأمير عبد الرحمن بن معاوية مؤسس دولة بني أمية في الأندلس تضارع بغداد، ولقد ارتقت الحضارة العربية في بلاد الأندلس في هذا العصر ارتقاء عظيمًا في كل الفنون وعن طريق الأندلس انتقلت الثقافة العربية الإسلامية فيما بعد إلى أوروبا فأيقظتها من سباتها العميق فهذا أحد المستشرقين يقول معترفا بفضل العرب على أوروبا: إنا لمدينون للعرب كثيرا وبنجاحهم وسموهم .

تحرك أهل أوروبا إلى إحراز المعارف واستفادوا من نومهم العميق ونحن مدينون لهم بترقية العلوم الطبيعية والفنون النافعة وكثير من المخترعات التي نفعت أوروبا علما ومدنية ونجد كذلك مدينة القيروان التي ورثت عظمة المدن الإفريقية والرومانية وانتقل إليها جمالها وبهاؤها ونجد فيما بعد ذلك بسنين مدينة الفسطاط حاضرة مصر وقد جمع مسجدها الأعظم حلقات العلماء والطلاب على اختلاف أشكالهم وألوانهم ومذاهبهم .

وبعد، — فقد كان هذا العصر عصر رفاهية وقوة وعظمة حضارية وعلمية
مما كان له أثر كبير في أن بسط المسلمون أيديهم على معظم أنحاء المعمورة وقت
أن كان الظلام مسيطرا على أوروبا وغيرها.

كل هذا قد بلغ أشده في هذا الدور، حتى صارت الرقعة الإسلامية تزدهر
بحضارتها على كل حضارة سبقتها لأنها خلاصة حضارات مختلفة، ولامراء في
أن لذلك أثر كبير في الفقه لأنه يمكن القائل من وضع المسائل المختلفة ليستنبط
الجواب عليها.

* * *

حركة التشريع الإسلامى فى هذا العصر

لقد احتلت العلوم الشرعية مركزا هاما فى العصر العباسى، وسارت فى تقدم مستمر جنبا إلى جنب فى سرعة منع التقدم الحضارى والثقافى الذى يسير فى قوة فنية رائعة ويخطو خطوات واسعة وعلى نطاق أوسع حتى أصبحت العلوم الشرعية تكون وحدة علمية مستقلة بذاتها لها مميزاتا التى تميزها عما عداها من العلوم الأخرى.

وكان لاهتمام العباسيين بالناحية الدينية أكبر الأثر فى اتساع دائرة التشريع الإسلامى. كما كان لتشجيعهم لأهل رأى فى التشريع الإسلامى أثره، إذ أن العباسيين قد تشبعوا بالعلوم العقلية والثقافات الأجنبية العلمية والفلسفية التى تعتمد على رأى والتى أغرموا بها حتى أن أحدهم وهو المأمون كان يناصر أهل رأى على أهل الحديث.

وقد كان يحمل أهل الحديث على تغيير رأيهم فى ذلك. والذى يطلع على كتابه الذى أرسل به إلى محافظ بغداد فى شأن مقدمى أهل الحديث. يرى كيف كان فكر أهل الكلام فى أهل الحديث. فإنه سماهم بأسمائهم واحدا واحدا وطعن فى أفكارهم أو فى أخلاقهم^(١).

ومن أمثلة ما كان بين أهل الحديث وأهل الكلام من خلاف هو مسألة خلق القرآن، التى أودى فى سبيلها الكثير من العلماء وعلى رأسهم الإمام أحمد بن محمد بن حنبل رضى الله عنه.

وعلى كل حال فقد كان لهذا العصر أكبر الفضل فى إبراز ثلاثة عشر مجتهدا إلى الوجود دونت مذاهبهم وعمل بآرائهم واعترف لهم المسلمون بالإمامة والزعامة فى الفقه الإسلامى، وسائر العلوم الشرعية حتى أصبحوا هم القدوة والقادة.

(١) تاريخ التشريع الإسلامى ١٧٧.

كان سفيان بن عيينة بمكة ومالك بن أنس بالمدينة والحسن البصري بالبصرة وأبو حنيفة وسفيان الثوري بالكوفة والأوزاعي بالشام والشافعي والليث بن سعد بمصر وإسحاق بن راهويه بنيسابور وأبو ثور وأحمد بن حنبل وداود الظاهري وابن جرير ببغداد.

فمن مذاهب هؤلاء ما زال موجودا يدرس ويعمل به المسلمون ومنها ما ضاع واندثر وذلك لعدم وجود تلاميذ لهم يهتمون بالمحافظة على مذاهب أئمتهم وشيوخهم. يقول الشيخ محمد السائيس رحمه الله: وكان إلى جانب هؤلاء كثير ممن لم يسعدهم الحظ بانتشار مذاهبهم واعتناق جمهرة من الناس لها وبالجملة فقد كانت حركة علمية واسعة النطاق في سائر الأقطار^(١).

وكان مركز التشريع في هذا العصر ببغداد ومصر والكوفة والبصرة ومكة والمدينة ودمشق ومرمر ونيسابور والقيروان وقرطبة، لقد قامت في هذه الأمصار نهضة علمية مباركة كان لها أثر كبير في الفقه الإسلامي وسائر العلوم الشرعية حيث كان الاجتهاد على أشده في مجال هذه العلوم.

● عوامل نشاط التشريع الإسلامي:

إن التشريع الإسلامي قد وصل إلى ما وصل إليه من درجات الرقي والكمال في هذا العصر لأسباب كثيرة تذكر منها:

(١) عناية الخلفاء العباسيين بالفقه الإسلامي وبالفقهاء عناية كبيرة. إذ غلبت عليهم النزعة الدينية حتى صبغوا كل مظاهر الدولة بصبغة الدين.

ومن أمثلة ذلك. أن أبا جعفر المنصور كان يؤثر الفقهاء بعطاياه العظيمة، والمأمون كان يشترك مع العلماء في المناظرات العلمية وكان يستنهض العلماء إلى النقاش الحاد. ولذا أثار مسألة خلق القرآن بعد أن أقنعه أحمد بن أبي دؤاد زعيم المعتزلة بالقول بها، وكذلك كان المهدي يناوئ الزنادقة ويتعقبهم واشتد في تعذيبهم وكذلك الرشيد كان يخص أيا يوسف بالصحبة والملازمة،

(١) تاريخ الفقه الإسلامي ٨٢.

وقد طلب منه أن يضع له كتابا يستهدى به فى النظم المالية والإدارية فكتب له مصنفه المعروف « كتاب الخراج » الذى يقول فى مقدمته للخليفة وهو أقوى سلاطين عصره .

(فاقم الحق فيما ولاك الله وقلدك ولا تزع فتزيغ قلوب رعيثك وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب وكن من خشية الله على حذر واجعل الناس عندك فى أمر الله سواء القريب والبعيد . وإن الله سائلك عما أنت فيه وعما عملت به ... إلخ وقد بلغ من عناية العباسيين بالإسلام وتشجيعهم لأهل الرأى أن العلماء كانوا يتمتعون بحرية مطلقة فى البحث فى مجال العلوم الشرعية وغير الشرعية . فيجتهدون ويبحثون فى المسائل الفقهية ومرجعهم فى ذلك كان : الكتاب والسنة وفتاوى الصحابة . ما دام الباحث أهلا للاجتهاد .

(٢) كثرة الوقائع لاتساع رقعة الدولة الإسلامية وتغاير البيئات الاجتماعية . وكان ذلك - حتما - يفرض على الأئمة والعلماء أن يبحثوا وينقبوا عن الحل المناسب لظروف الحدث وواقعه .

(٣) تفرق العلماء والأئمة فى الأمصار وعقد الندوات والمناظرات حول القضايا الإسلامية على تطور عصور الإسلام المختلفة .

(٤) تجدد الحوادث وتنوعها على مدى عصور تطور الفقه الإسلامى .

(٥) الصراع الفكرى والمذهبى بين الفرق الإسلامية المختلفة (السنة - الشيعة - الخوارج - المعتزلة) .

إن لكل مدرسة من هذه المدارس فكرها وأسلوبها فى تناول الأحداث وتحكيم النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة .

فهذه الأسباب كلها مجتمعة كانت الأسباب والعوامل المؤثرة فى تطور الفقه الإسلامى وما يتصل به من قضايا وأحكام .

● تدوين العلوم الشرعية :

أخذ العلماء فى ظل الدولة العباسية يشتغلون بتدوين العلوم الإسلامية إذ

كملت لديهم وسائل التدوين وقد شجعهم الخلفاء على ذلك وأغدقوا عليهم الهبات والهدايا.

والذى يعنينا فى هذا المقام هو الحديث عن تدوين الفقه وأصوله ولذا لزم الكلام عن الكتاب والسنة.

(١) القرآن الكريم وعلومه :

لقد عرف الأصوليون القرآن الكريم بقولهم :

هو اللفظ المنزل على محمد ﷺ المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته المعجز ببيانه وشرائعه .

إن هذا التعريف . تعريف جامع لكتاب الله الذى أنزله على نبيه ﷺ ليكون دستوراً للحياتين الدينية والدنيوية فلا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . وهو المعجزة الباقية نزل بلفظه ومعناه على رسول الله ﷺ بواسطة الوحي يقظة لامناما ولا إلهاما .

ولقد تعهد الله تعالى بحفظه حتى لا تناله أيدى العابثين والمارقين والجهلة والحاقدین ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] .

بهذا الحفظ الإلهى بقى القرآن كما هو وإلى أن يشاء الله رفعه من الصدور تحدى الله به العرب فى بلاغته وبيانه وتحدى غير العرب فى شرائعه وأحكامه .

بهذا آمن المخلصون وصدق المسلمون واطمأنت بذلك قلوبهم ولهجت بتلاوته ألسنتهم ووعته ذاكرتهم لأنه كتاب علم وعبادة . تلاوته عبادة وذكر ودراسته علم ومعرفة .

وقد قام العلماء بالدراسات المستفيضة حول القرآن الكريم . فوضعت علوم التفسير والتجويد والقراءات وغيرها من الدراسات القرآنية ، لقد كان القرآن الكريم هو محل عناية المسلمين منذ أن فارقهم سيدنا رسول الله ﷺ .

تم جمعه وتدوينه فى المصحف فى خلافة الصديق رضى الله عنه بمشورة

عمر رضى الله عنه . وتم نسخه وتوزيعه على الأمصار فى خلافة عثمان رضى الله عنه .

وكان الباعث على جمعه وتدوينه هو مخافة أن يضيع لموت قراء الصحابة فى الحروب والمعارك .

ولما كان العصر العباسى ازداد اهتمام المسلمين بالدراسات القرآنية . وظهر جماعة مشهورة من القراء الذين وهبوا أنفسهم للدفاع عن التلاوة الصحيحة لكتاب الله تعالى فكان جماعة القراءات السبع والقراءات العشر والقراءات الأربع عشر .

والقراءات السبع هى قراءات نافع وابن كثير وأبى عمرو وابن عامر وعاصم وحمة والكسائى رضى الله عنهم .

أما القراءات العشر فهى قراءات هؤلاء السبع وقراءات أبى جعفر ويعقوب* وخلف وأما قراءات الأربع عشر فهى قراءات هؤلاء العشرة وقراءات الحسن البصرى وابن محصن ويحيى اليزيدى والشنبوذى رضى الله عنهم ولا تختلف هذه القراءات المتعددة إلا فى الشئ اليسير الذى يحتمله رسم المصاحف التى كتبت فى عهد سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه ولم يكد هذا الدور ينتهى حتى أصبحت القراءات علما من العلوم الدينية وشرع علماءه يؤلفون فيه الكتب المتعلقة بأدائه .

وقد اهتم العلماء بوضع التفاسير المختلفة لكتاب الله عز وجل فى هذا العصر ومن أشهر هذه التفاسير تفسير ابن جريج وتفسير الطبرى وتفسير الثورى وتفسير ابن إسحاق وتفسير ابن أبى حاتم وغيرهم .

(٢) تدوين السنة الشريفة :

لقد بدأ المسلمون فى تدوين السنة جمعا ونقدا وترتيبا وتصنيفا فى العصر الأموى بتوجيه من الخليفة الأموى : عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ولكن كان العصر العباسى عصرا مجيدا للغة المطهرة حيث أن الرواة قد تنبهوا إلى تصنيفها وتدوينها واجتهد العلماء فى وضع الشروح لها .

وافترق العلماء فى تدوين السنة إلى ثلاث فرق :

الأولى : ضمت الأحاديث وأقوال الصحابة والتابعين ككتاب الموطأ للإمام

مالك ومصنف عبد الرزاق .

والثانية : فرقة رأت أن يفرد حديث رسول الله ﷺ عن غيره فصنفوا ما

سمى بالمسانيد كمسند الشافعى ومسند الإمام أحمد ومسند عبد الله بن موسى

الكوفى ومسند مسدد البصرى ومسند أسد بن موسى المصرى ثم جاءت فرقة

ثالثة وتناولت الأحاديث بجهد أكبر وعناية أوفر من هذه المدرسة الإمام البخارى

والإمام مسلم وغيرهما الذين دققوا وحققوا فى الرواية والاختيار كأبى داود

والترمذى والنسائى وابن ماجه ومن سار على دربهم .

ثم وضع علم الجرح والتعديل فى نقد الرواية والرواة .

ومن رجالات هذا العلم يحيى بن سعيد القطان وعبد الرحمن المهدي

وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين رحمهم الله تعالى .

وقد توفر للسنة من البحث والدراسة والتدقيق ما لم يتوفر لغيرها من

العلوم . حيث بذل علماء السنة جهودا مضنية فى تدوين السنة لكى يطمئن

المسلمون إلى صحة كل ما ثبت وروده عن رسول الله ﷺ .

(٣) تدوين الفقه :

عرف الأصوليون الفقه بأنه : العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من

الأدلة التفصيلية .

وعرفه الفقهاء بأنه : معرفة أحكام الحوادث نصا واستنباطا . إن العصر

الذهبى لتدوين الفقه الإسلامى هو العصر العباسى الأول إذا اشتد النزاع بين

العلماء فى أصوله وفى بحث قضاياها وأحكامها ولم يكد هذا العصر ينتهى حتى

ترك لنا ثروة علمية فقهية ضخمة مدونة فى كتب ومصنفات متعددة من أمثال

كتب أبى حنيفة فى العهد الأموى وكتب الشافعى : الحجة والأمر والرسالة فى

العهد العباسى وكذا موطأ مالك والمدونة ورسائل الإمام أحمد بن حنبل وكتب

غيرهم .

فهذه المؤلفات للأئمة الأربعة كانت البداية وكانت المادة الغزيرة التي كان ينهل منها العلماء والمحققون فيما بعد حتى أصبح التشريع والفقہ الإسلامي أكثر ثراء من غيره من العلوم الأخرى.

(٤) تدوين أصول الفقہ :

علم أصول الفقہ هو : العلم الذي يبحث عن المصادر التي توصل إلى استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية .

وقد نشأ هذا العلم مع نشأة الفقہ الإسلامي وتطور بتطوره .

بعد وفاة الرسول ﷺ كان من الصحابة من هو متصدر للإفتاء والإرشاد ويبين للناس ما يخفى عليهم من معاني القرآن الكريم وقضاء الرسول ﷺ .

فكان من هؤلاء المتصدرين للفتوى . الخلفاء الراشدون وابن مسعود وزيد ابن ثابت وابن عباس والسيدة عائشة وابن عمر . وأبو الدرداء وبعد عصر الصحابة رضي الله عنهم كان لا بد من وضع قواعد وأحكام ضرورية ليتمكن العلماء بمقتضاها أن يستنبطوا الأحكام الشرعية وذهب أهل في ذلك مذاهب متعددة .

وكانت هذه القواعد الأصولية مبعثرة بين مسائل الفقہ وموضوعاته حتى كان الإمام الشافعي رضي الله عنه . فإنه قام يجمع هذه القواعد الأصولية وأصول الأحكام وقام بدراستها ثم ضمنها كتابه القيم (الرسالة) وهي أول كتاب مصنف في علم أصول الفقہ . الذي يعتبر واضعه - بحق - ومنظم مسائله الإمام الشافعي رضي الله عنه . بعد ذلك أخذ العلماء في المذاهب الأخرى يكتبون في هذا العلم طبقاً لمبادئ مذاهبهم .

قال ابن خلدون في المقدمة :

فلما انقرض السلف وانقلبت العلوم صناعة وضعفت الملكات نتيجة لاختلاط العرب بغيرهم . احتاج الفقهاء المجتهدون إلى تحصيل هذه القوانين والقواعد لاستفادة الأحكام من الأدلة فكتبوها علماً قائماً برأسه سموه

(أصول الفقه) وأول من كتب فيه . الشافعي رضي الله عنه أملى فيه رسالته المشهورة ١ . ه .

والقول الذي أطمئن إليه وبه أقول . إن الإمام الشافعي رضي الله عنه ليس هو أول واضع لهذا العلم فقد سبقه علماء الأحناف والمالكية في وضع مسائله إلا أنهم خلطوها بمسائل الفقه . وما قام به الإمام الشافعي هو الفصل بين هذه المسائل وتخليصها مما يشوبها من مسائل الفقه ثم رتبها خالصة في رسالته .

لذا فإن العلماء يعتبرونه هو واضع هذا العلم ومدقق لمسائله حتى صار علم أصول الفقه علما قائما برأسه .

النزاع في مادة أصول الفقه :

إن الإسلام ليس من وضع أحد من البشر فهو تشريع إلهي أوحى به إلى رسول الله ﷺ . أساسه القرآن الكريم والسنة الشريفة وعمل الفقهاء هو محاولة فهم النص من هذين المصدرين الأصليين واستنباط الأحكام الشرعية منهما .

ومن ثم لابد أن يكون لهذا التشريع أصوله وقواعده التي يقوم عليها ويرجع العلماء إليها .

ومن هذه الأصول ما اتفق عليه العلماء وهو : الكتاب والسنة والاجماع ومنها ما هو مختلف فيه وهو : القياس والاستحسان والمصالح المرسلة والاستصحاب . وكان النزاع شديدا حول هذه الأصول .

(١) الكتاب :

اتفق العلماء على أن الكتاب هو المصدر الأول من مصادر التشريع وأنه الأصل الذي يجب أن يذهب إليه العلماء .

ولكنهم اختلفوا حول الاستدلال بالقراءة الشاذة .

إن الحنفية يحتجون بها . والشافعي يرفض الاحتجاج بها ويروى عنه أنه جوز العمل بها كخبر الواحد .

(٢) السنة :

السنة كما عرفها المحدثون هي : أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته وصفاته الخلقية والخلقية .

والسنة هي المصدر الثانى للتشريع . دل على ذلك الكتاب والسنة وفعل الصحابة والإجماع .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣] .

قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : سمعت من أَرْضَى من أهل العلم يقول الحكمة : سنة رسول الله ﷺ (١) .

وقال تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٣] والآيات المنزلة فى هذا الأمر كثيرة .

وروى الحاكم فى مستدركه : « أن النبى ﷺ كان يصلى بأصحابه إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره فلما رأى القوم ذلك ألقوا نعالهم فلما قضى صلاته قال : ما حملكم على إلقاءكم نعالكم ؟

قالوا : رأيناك ألقيت نعليك ؟ فقال : إن جبريل أخبرنى أن فيهما قدرا .
وروى الشيخان : أن عليا رضى الله عنه قال : « كنت رجلا مذاء فاستحييت أن أسأل رسول الله ﷺ فأمرت رجلا فسأله فقال : فيه الوضوء .

وقد أجمع جمهور العلماء من أهل السنة على وجوب العمل بما صح نقله عن رسول الله ﷺ . ولسان حال كل منهم يقول ما قاله الشافعى : (إذا صح الحديث فهو مذهبي . واضربوا بقولى عرض الحائط) .

وقد أنكر حجية السنة والعمل بها بعض المبتدعة والزنادقة انتصارا لمبادئهم ومذاهبهم .

إن الأحكام الشرعية ثابتة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ معا . وبعضها ثابت

(١) الرسالة ٤٤ .

بالقرآن وحده . والبعض الآخر ثابت بالسنة فالسنة هي المصدر الثانى للتشريع الإسلامى .

والأحاديث الشريفة : إما متواتر وإما آحاد .

ولا يناعز أحد فى الاستدلال بالمتواتر . وإنما الخلاف فى الاستدلال بالآحاد .
فالمالكية : لا يستدلون بخبر الواحد إلا إذا اشتهر عند أهل المدينة ولم يكن مخالفا لهم .

وأما الحنفية : فإنهم يشترطون شروطا ثلاثة للعمل بخبر الواحد هي : أن لا يعمل الراوى بخلاف ما يرويه . وأن لا يكون الحديث فيما تعم به البلوى وهو ما يكثرو وقوعه ويحتاج الناس إلى بيانه وأن لا يكون الحديث مخالفا للقياس والأصول الشرعية .

وأما الشافعية : فإنهم يشترطون للأخذ بخبر الواحد . أن يكون متصلا صحيح الإسناد .

وهذا هو الذى جعل العلماء يصفون الشافعى رضى الله عنه بأنه : ناصر السنة .

وأما الحنابلة : فإنهم يوافقون الشافعية فى خبر الواحد ، بيد أنهم يخالفونهم فى إطلاق القول فى الاحتجاج بالمرسل .

فالحنابلة : هم أكثر الفقهاء عملا بالحديث ، والشافعية والمالكية أكثر عملا بالحديث من الحنفية .

قال العلامة ابن القيم فى أعلام الموقعين :

وكيف يمكن أحد من أهل العلم أن لا يقبل حديثا زائدا على كتاب الله فلا يقبل حديث تحريم زواج المرأة على عمتها أو خالتها . ولا حديث التحريم بالرضاعة لكل ما يحزم بالنسب فى الزواج أيضا . ولا حديث خيار الشرط والشفعة والرهن فى الحضر مع أن ذلك كله زائد على ما فى القرآن . كما أن الناس جميعا قد أخذوا بهذا الحديث الثابت عنه ﷺ وهو (من قتل قتيلا فله سلبه) وهو زائد على ما فى القرآن من وجوب قسمة الغنائم كلها بما فيه من أسلاب القتلى بين المسلمين جميعا . ١ . هـ .

(٣) القياس :

القياس معناه فى اللغة : التقدير . فيقال : قست الأرض بالترأى عرفت مساحتها .

وعند علماء الأصول له تعريفات متعددة أهمها : القياس هو : إلحاق نوع بأصل فى حكمه بمساواته له فى علة هذا الحكم الشرعى كالإلحاق النبىذ بالخمر الثابت تحريم تناولها فى الكتاب والسنة فى حرمة الشرف لاتحادهما فى علة الإسكار .

وبالقياس يقول جمهور علماء الأصول والفقهاء لأنهم يرون أن نصوص كتاب الله وسنة بنيه ﷺ لا تنص على أحكام بعض ما يجد من الحوادث وبعض المسائل . والشرعية معقولة المعنى لها أصول عامة فى القرآن والسنة فاستخدموا القياس لقياس المسائل بأشباهها ونظائرها مما أتحدت معه فى علة الحكم . والحكم يدور مع علتة وجودا وعدما .

وأحسن ما وصلنا فى الدفاع عن القياس واعتبارة حجة شرعية هو : ما قرره الإمام الشافعى رضى الله عنه فى رسالته المشهورة .

وقد رفض الأخذ بالقياس جماعة منهم الظاهرية وإمامهم داود بن على فإنهم لا يأخذون بالقياس وإنما يأخذون بالكتاب والسنة فإذا لم يجدوا نصا فى المسألة سكتوا عن الإفتاء .

(٤) الإجماع :

وهو اتفاق جملة من المجتهدين من الفقهاء المسلمين فى عصر من العصور على حكم واقعة من الوقائع أو مسألة من المسائل .

وللعلماء كلام حول الإجماع . لقد أنكره الشيعة وقال النظام باستحالته عادة ، وقال الخوارج بحجية إجماع الصحابة قبل الفرقة وأما بعدها فلا ولن يتحقق إجماع فى غيرهم من غير طائفتهم .

وقال بجواز الأخذ به الإمام مالك رضى الله عنه ، وقال الحنفية بالإجماع السكوتى وهو أن يجيب واحد ويسكت الآخرون .

ويرى الشافعى رضى الله عنه إنكار وجود إجماع على تمام معناه - فإن ذلك يتوقف على معرفة شخصية المجتهدين فى عصر واحد واعتراف الكافة لهم بذلك. وأن ينقل عن كل منهم قول المسألة التى فيها الفتوى وينقل ذلك القول عنهم جمع يؤمن كذبه وإخفاؤه وهذا لم يكن إلا فى ما يسمى بعلم العامة كالعلم بأن الصلوات المفروضة خمس وأن الصبح ركعتان وما شاكل ذلك.

أما ما يسميه بعلم الخاصة فقل أن تجد مسألة يسهل القول بأن المجتهدين فى عصر واحد اتفقوا فى الجواب عنها. ومع إنكار الإمام الشافعى حقيقة الإجماع يرى من الحجة فى الدين أن ينقل الحكم عن السلف ولا يعلم أنهم اختلفوا فيه. فكان الخلاف إنما فى العبارة عن الحجة لا فى الحجة نفسها.

ونقل عن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه أنه قال: من ادعى الإجماع فهو كاذب فزعم بعض الناس أن هذا إنكار منه للإجماع.

ويبعد هذا الزعم ما قاله ابن الحاجب إنما هو - أى ما قاله الإمام أحمد - إنكار على فقهاء المعتزلة الذين يدعون إجماع الناس على ما يقولون مع أنهم من أقل الناس معرفة بأحوال الصحابة والتابعين.

وقد بنى هؤلاء الذين ينكرون الإجماع على أنه لا يمكن تحقيقه فعلا لأنه يتعذر معرفتهم ومعرفة آرائهم جميعا فى المسألة التى يراد معرفة الحكم الشرعى فيها^(١).

هذا ويمكن تحقيق الإجماع فى عصرنا هذا لتعدد وسائل الاتصالات وتنوعها وكثرة انتشارها وسهولة الحصول عليها.

فإننا نرى ونسمع ونقرأ عن المؤتمرات الدولية والمحلية فى سهولة ويسر ويمكن تحقيق ذلك بواسطة الجامعات العلمية الإسلامية والجامعات الإسلامية فى البلاد والأقطار الإسلامية المختلفة.

(٥) الاستحسان:

وهو العدول فى مسألة من المسائل عن حكم نظيرها إلى حكم آخر لوجه

(١) راجع فى هذا الموضع: تاريخ التشريع للخضرى وأصول الفقه - د. طه العريبى.

هو أقوى، قال الدكتور محمد يوسف موسى فى كتابه: الإسلام وحاجة الإنسانية إليه:

الاستحسان ليس قولاً بالرأى المجرد أو الهوى. بل هو قول للدليل رجح لدى القائل به. وليس المراد به ما يستحسنه المجتهد بعقله من غير دليل، ويجئ الاستحسان بعد الكتاب والسنة والإجماع والقياس، هذا وقد أيد الحنفية الأخذ بالاستحسان. ورده الشافعى رضى الله عنه وقال: (من استحسن فقد شرع).

فهو بهذا يرد الاستحسان المبني على الهوى والتلذذ ولكنه لا يرده كلية فقد أثر عنه أنه يأخذ بالاستحسان المؤيد بالدليل ومنه قوله: (استحسن شيئاً من نجوم الكتابة للمكاتب).

(٦) المصالح المرسلة:

وهى كل مصلحة غير مقيدة بنص من الشارع يدعو إلى اعتبارها. وفى اعتبارها مع هذا جلب نفع ودفع ضرر بشرط أن لا تعارض مقصداً من مقاصد الشريعة ولا دليلاً من أدلتها المعروفة. وأن يكون فيها مصلحة حقيقية ضرورية للمجتمع أو على الأقل يكون فيها تحصيل نفع أورد ضرر حقيقى^(١).

ويرى المالكية جواز الأخذ بها. هذا ولم يقف العلماء عند هذا الحد بل انتقل خلافهم إلى طريقة استنباط الأحكام من أوامر الشرع ونواهيه فتارة يبقونها على الفرض والتحريم وتارة يخرجونها عن ذلك إلى النذب والكراهة. وتارة إلى مجرد الإرشاد بنوع القرائن أو الاستدلال بالرأى.

(٧) المصطلحات الفقهية:

لقد وضع الفقهاء ما يسمى بالمصطلحات الفقهية وهى:

الواجب - الفرض - السنة - المندوب - المستحب - المباح - الفاسد الباطل - الحرام، المكروه كراهة تحريم - المكروه كراهة تنزيه.

(١) التشريع الإسلامى وأثره فى الفقه - د. محمد يوسف موسى ٣٥.

وقد انقسم العلماء فى تعريف هذه المصطلحات إلى قسمين :

القسم الأول : وهم الأحناف وأصحاب الرأي . قالوا :

الفرض : ما ثبت طلبه بدليل قطعى ورودا أو دلالة كآيات القرآنية . وما

ثبت من السنة ثبوتا قطعيا بتواتر أو شهرة إذا كانت نصا .

الواجب : ما ثبت طلبه بدليل ظنى الورود أو الدلالة أو هما معا مثال

الواجب ، أن يكون المقروء فى الصلاة الفاتحة .

ويترتب على تركه سهوا سجود السهود وعلى تركه عمدا إعادة الصلاة

ومثال الفرض قراءة ما تيسر من القرآن فى الصلاة ، ويترتب على تركه بطلان

الصلاة .

السنة : ما واطب رسول الله ﷺ عليه مع تركه إياه أحيانا بلا عذر .

المندوب والمستحب : ما لم يواظب عليه وإن لم يفعله بعد أن رغب فيه .

الحرام : ما قابل الفرض .

المكروه كراهة تحريم : ما قابل الواجب .

المكروه كراهة تنزيه : ما قابل السنة .

الباطل : لا يترتب عليه أثر .

الفاسد : يترتب عليه أثر مع خبث .

وأما القسم الثانى : وهم : مالك والشافعى وأحمد وأتباعهم .

قالوا : لا فرق بين الفرض والواجب ومعناه : ما طلب حتما بدليل قطعى أو

ظنى ولكنهم يفرقون بينهما فى مناسك الحج فقط فيقولون إن ما طلبه الشارع

ولا جبر له . ففرض كالوقوف بعرفة .

والواجب : ما طلبه الشارع وجبر تركه بدم كالإحرام .

وعند هذا الفريق فرض يعرف بفرض الكفاية . وهو ما طلب الشارع فعله

من غير قصد إلى فاعله . فإذا فعله البعض سقط الطلب عن الباقي كصلاة

الجنابة .

والسنة والمندوب والمستحب . معناها، واحد لا فرق بينها . فهي : ما طلب طلبا غير جازم .

غير أنهم يقولون : سنة مؤكدة لما سماه الحنفية سنة . وغير مؤكدة لما سموه مندوبا ومستحبا . والحرام : ما قابل الفرض والواجب . والمكروه كراهة تحريم أو كراهة شديدة . ما قابل السنة المؤكدة .

والمكروه كراهة تنزيه . ما قابل السنة غير المؤكدة .

والمباح هو المسكوت عنه أى ما لم يطلب الشرع فعله ولا تركه .

والشرط : ما توقف عليه صحة غيره وليس جزءا منه .

والفاسد والباطل مترادفان وهما : ما لا يجزى عن فاعله ولا يترتب عليه أثره .

فنحن فى هذه العجالة قد قدمنا مصادر التشريع وأصول الأحكام وخلاصة ما دار حولها من نزاع بين الأئمة وعلماء المذاهب الفقهية المختلفة فى هذا العصر الثرى بعطائه العلمى والفقهى .

● المدارس الفقهية فى هذا العصر :

لقد برز فى هذا العصر أئمة أعلام تناولوا قضايا الفقه والتشريع فى الإسلام بوجهات نظر مختلفة فى بعض الأمور ومتفق فى أغلب الأمور . وكان لكل اتجاه مميزاته وخصائصه التى تميزه عن الاتجاهات الأخرى . فتكونت تلك المدارس الفقهية المتعددة . وهى :

(١) مدرسة أهل الرأى :

وهم العراقيون الذى استكثروا من الأخذ بالقياس وإعمال الرأى لأنهم كانوا يرون أن الشريعة معقولة المعنى ولها أصول عامة نطق بها القرآن والسنة . وما كانوا يستدلون بالسنة إلا قليلا .

وكان يترأس هذه المدرسة أبو حنيفة وأصحابه . فيقول : (علمنا هذا رأى . فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه) .

(٢) مدرسة أهل الحديث :

وهم أهل الحجاز قبلتهم السنة باعتبارها مكملة للقرآن ومفسرة له وباعتبارها نصوصا يتعبد بها الشارع .

فمن دان بالإسلام من غير علل رعاها في تشريعه ولا أصول عامة يرجع إليها المجتهد . ولا أصول خاصة بالأبواب المختلفة . فهم المتشرعون النصيون . فإذا لم يجدوا في المسألة نصا سكتوا عن الفتوى .

وإمام هذه المدرسة هو الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه ومن بعده الإمام الشافعي والإمام أحمد رضي الله عنهما .

وإن كان الشافعية بمعنى أدق كانوا وسطا بين مدرسة أهل الحديث ومدرسة أهل الرأي وموقفهم للسنة محمود . ولن ينسى العلماء على مر العصور للإمام الشافعي موقفه العظيم من السنة والاستدلال بحديث الآحاد .

(٣) مدرسة أهل الظاهر :

وإمامهم داود بن علي وابنه من بعده .

ومذهبهم يقوم على إنكار القياس وإبطال العمل بكل ما جاء من طريق غير الكتاب والسنة كالإجماع وغيره . ولا يأخذون إلا بظاهر النص وهذا الاتجاه فيه جمود بعض الشيء .

(٤) مدرسة الشيعة :

روادها هم الفقهاء المتشيعون لأهل البيت النبوي . ومذهبهم بصفة عامة قائم على أن الإمامة نص عليها لأهل البيت خاصة كما يقولون بعصمة الإمام . وهذه المدرسة تنقسم إلى عدة مذاهب شيعية واتجاهات كثيرة .

(٥) مدرسة الخوارج :

ومذهبهم قائم على الأخذ بالنص والقول بتكفير أصحاب الذنوب والكبائر وجواز الخروج على الإمام إذا حاد عن الكتاب والسنة وفكر الخوارج هو اتجاه متشدد ومتزمت كثيرا .

وهو منتشر بعمان وريف الجزائر، وقد نشأ في بدايته بين أهل البادية وهم الذين خرجوا على الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه وقالوا بكفر بعض الصحابة . بمثل ما قال به الشيعة من تكفير بعض الصحابة أيضا وهذه آراء مرفوضة عند أهل السنة والجماعة .

هذا وقد نقل إلينا هذه الثروة الهائلة من الفقه والتشريع للمذاهب التي كان لأئمتها تلاميذ تناقلوها جيلا بعد جيل . وهناك علماء وأئمة في هذا العصر لم ينقل إلينا من مذاهبهم إلا شذرات لعدم نشر تلاميذهم لمذاهبهم ولعدم تدوين الأئمة والعلماء لآرائهم كسفيان بن عيينة والثوري والليث بن سعد وغيرهم .

* * *

الفصل الثانى

حياة الإمام الشافعى

«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»

[رواه أبو داود]

● إرهابيات :

أرسل الله نبيه سيدنا محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق إلى أمة جعلها أمة وسطا تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فهي خير أمة أخرجت للناس . ويشاء الله تعالى أن تسير هذه الأمة على نهج سليم وطريق مستقيم . فإذا انحرفت الأمة وحادت عن الطريق وظهرت البدعة . يبعث الله فى هذه الأمة من أهل العلم من يجدد لها أمر دينها ويوضح لها طريق الهدى من طريق الضلال . روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) (١) وقد تحقق ذلك وبعث الله فى هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من جدد لهذه الأمة أمر دينها وأعادها إلى النبع الصافى والمنهج القويم بشريعة الإسلام .

فكان على رأس المائة الأولى : عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى . الذى قاوم الظلم والفساد وأمر عماله على الأمصار بتكليف العلماء بالتفرغ لجمع أحاديث الرسول ﷺ .

وقد ضرب هذا الخليفة بعظمة الخلافة عرض الحائط ولم تبهره مظاهرها فسرّح الخدم والعبيد من قصر الخلافة وعاد بالمسلمين إلى حظيرة الإسلام الأولى . فكان بحق عمر بن الخطاب الثانى فى زهده وعدله وعلمه وتواضعه وخوفه من الله عز وجل .

وكان على رأس المائة الثانية ناصر السنة عالم قریش الذى ملأ طباق الأرض علما : الإمام مـحمد بن إدريس الشافعى رضى الله عنه . الذى ترك الدنيا وقد خلف وراءه ثروة علمية إسلامية ضخمة .

(١) رواه أبو داود فى السنن وأحمد فى المسند .

روى عن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه أنه قال : (يروى فى الحديث :
أن الله يبعث على رأس كل مائة عام من يصح لهذه الأمة دينها - فنظرنا فى
المائة الأولى : فإذا هو عمر بن عبد العزيز ونظرنا فى المائة الثانية فنراه الشافعى)
وفى رواية : (إن الله يقيض للناس فى رأس كل مائة سنة من يعلمهم السنة وينفى
عن رسول الله الكذب . فنظرنا فى رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز وفى رأس
المائتين الشافعى) .

وأنشد الحافظ جلال الدين السيوطى فى أرجوزته (تحفة المهتدين فى أخبار
المجتهدين) :

لقد أتى فى خبر مشتهر	رواه كل حافظ معتبر
بأن فى رأس كل مائة	يبعث ربنا لهذه الأمة
منا عليها عالما يحدد	دين الهدى لأنه مجدد
فكان عند المائة الأولى عمر	خليفة العدل بإجماع وقر
والشافعى كان عند الثانية	لما له من العلوم السارية

وقد ذكر الخطيب فى الاقناع فى حل ألفاظ أبى شجاع فى فقه الشافعية
يقول : قال رسول الله ﷺ : (اللهم اهْدِ قريشا فإن عالمها يملأ طباق الأرض
علما) .

وقال ﷺ (يخرج فيكم رجل من أهل بيتى يملأ طباق الأرض علما) وقال
الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه : هذا العالم هو الشافعى لأنه لم يحفظ
لقرشى من انتشار علمه ما حفظ للشافعى) .

ويقول محمد بن عبد الحكم رحمه الله تعالى : (إن أم الشافعى لما حملت
به رأت كأن المشتري خرج من بطنها وانقض فوق منه فى كل مكان شظية .

فقال لها المعبرون : إنه يخرج منك عالم عظيم) ذكره الصباغ فى إسعاف
الراغبين وقال الربيع بن سليمان رحمه الله : سمعت الشافعى رضى الله عنه يقول :
رأيت وأنا باليمن كأبى جالس فى فضاء الطواف إذ أقبل علىَّ علىَّ بن أبى طالب

رضي الله عنه فقامت إليه مسرعا وسلمت عليه فصافحته فعانقني ونزع خاتمه من أصبعه فجعله في أصبعي .

فلما أصبحت قصصت ذلك على المعبر . فقال لي : أبشريا أبا عبد الله أما رؤيتك لعلى في الحرم فهو النجاة من النار . وأما مصافحتك إياه فهو الأمان من الحساب وأما جعله الخاتم في أصبعك فسيبلغ اسمك الدنيا ما بلغ على بن أبي طالب ورضي الله عنه .

● أسرته ونسبه :

نبت الشافعي رضي الله عنه من أسرة ثابتة الدعائم قوية الأركان عظيمة البنيان فهو سليل أسرة كريمة اشتغل أبناؤها بالعلم وخدمة الإسلام فهو : أبو عبد الله : محمد بن إديس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف الذي يتصل نسبه بعدنان ويجتمع مع سيدنا رسول الله ﷺ في عبد مناف الذي هو الثالث من أجداد النبي ﷺ التاسع من أجداد الشافعي رضي الله عنه .

وهاشم الذي في نسب الشافعي ليس هو هاشم الذي في نسب النبي ﷺ .
فالثاني عم الأول .

وروى الحاكم والبيهقي والخطيب البغدادي : أن الشافعي رضي الله عنه ولده هاشم بن عبد مناف جد النبي ﷺ ثلاث مرات وذلك لأن أم السائب هي الشفاء بنت الأرقم بن هاشم عبد مناف . وأم الشفاء هي حليدة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف وأم عبد يزيد هي الشفاء بنت هاشم بن عبد مناف تزوجها هاشم فولدت له عبد يزيد فالشافعي ابن عم رسول الله ﷺ في جده ، وابن عمته . أ. هـ .

فالشافعي مطلبى قرشى لأنه يجمع مع رسول الله ﷺ في جده عبد مناف وكان هاشم والمطلب أخوين متناصرين في الجاهلية لقي جده شافع سيدنا رسول الله ﷺ وهو مترعرع في شبابه فهو من صغار الصحابة . وأما جده السائب فكان

صاحب زاية بنى هاشم يوم بدر وأسرف فيها ففدى نفسه ثم رجع مسلماً فقيل له :
 لم لم تسلم قبل أن تفدى نفسك؟ فقال (ما كنت لأحرم المسلمين مطمعا لهم
 فى) وبذلك يكون للشافعى جدان تشرفا بصحبة النبى ﷺ ولقب بالشافعى :
 نسبة إلى جده شافع .

قال أحدهم يذكر هذا النسب الشريف :

يا طالبا حفظ أصول الشافعى	مجتمعا من النبى الشافعى
محمد إدريس عباس ومن	فوقهم عثمان كل وشافع
وسائب ثم عبيد سادس	عبيد يزيد هاشم المجائع
مطلب عبيد مناف عاشر	أكرم بها من نسبة للشافعى

وأما أمه : فقيل . إنها أزدية . وهذا ما يقول به الكثير ممن أرخوا له وقال
 آخرون إن أم الشافعى من أبناء عبد المطلب من أولاد على بن أبى طالب رضى الله
 عنه واسمها : فاطمة بنت عبد الله بن الحسين بن على رضى الله عنهم . ولذا قالوا
 (لا هاشمى ولدته هاشمية إلا على والشافعى رضى الله عنهما) .

وقال الإمام النووى رحمه الله يؤيد الفريق الأول (الشافعى رضى الله عنه
 قرشى مطلبى بإجماع أهل النقل من جميع الطوائف . وأمه أزدية) تهذيب
 الأسماء واللغات ١ / ٤٤ القسم الأول .

وكانت أمه رحمها الله تعالى ، من أذكى الناس فطرة . ذات عقل راجع
 وقلب بالإيمان ثابت وكانت دائما توجه النصيح والإرشاد لولدها رضى الله عنه
 قيل : إنها شهدت عند قاضى مكة هى وأخرى - قيل إنها أم بشر المريسى المعتزلى
 - ولما أراد القاضى أن يفرق بين الشاهدين قالت أم الشافعى : ليس لك ذلك لأن
 الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾ [البقرة :
 ٢٨٢] فرجع لها فى ذلك .

نسب كأن عليه من شمس الضحى	ومن فلق الصباح عمودا
ما فيه إلا سيد وابن سيد	حاز المكارم والتقى والجودا

● مولده ونشأته :

ولد الإمام الشافعى رضى الله عنه بغزة من أعمال فلسطين بحى اليمن وقيل : بعسقلان - تجاور غزة - والأول هو الصحيح .

ولد فى شهر رجب وقيل فى شهر شعبان من عام ١٥٠ هـ (٧٦٧م) يوم وفاة الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه (١) . وقيل فى السنة التى ولد فيها ولم يثبت اليوم أو الشهر .

قال الذهبى : لم يثبت اليوم . وقال البيهقى : هذا التقييد باليوم لم أجده إلا فى بعض الروايات أما التقييد بالعام فمشهور بين أهل التواريخ لقد أراد الله تعالى بمولده فى هذا العام أن لا تحرم الأمة من دعاة الخير والبر والتقوى ففيه ودع نجم الدنيا وبزغ كوكب آخر . فذهب إمام وجاء آخر لكى تستمر سيرة العطاء العلمى والثقافى والروحى .

وليست غزة مدينة آباء الشافعى . وإنما خرج أبوه إليها ومعه زوجه فى حاجة فمات هناك . وقيل : كان أبوه من جنود الثغور .

ومات أبوه وعمر الشافعى كان عامين . طفل لم تكد عيناه تكتحل برؤية أبيه رحمه الله تعالى . فعادت به أمه إلى مكة المكرمة موطن آبائه وأجداده وأقربائهم .

فنشأ بها يتيما فى حجر أمه التى عنيت بتربيته أشد العناية .

ولما شب وترعرع وجهته أمه إلى حفظ القرآن الكريم على يد معلم بمكة ولما سلم الشافعى إلى المعلم ما كان يجد أهله أجرة المعلم . فكان المعلم يفرط فى تعليمه . ولكن الشافعى كان كلما علم المعلم صبيا شيئا تلقفه الشافعى ثم إذا قام المعلم من مكانه أخذ الشافعى يعلم الصبيان تلك الأشياء فنظر المعلم فرأى الشافعى يكفيه أمر الصبيان أكثر من الأجرة التى كان يطمع فيها منه فترك طلب الأجرة .

(١) رواه أبو الحسن محمد بن الحسين بن إبراهيم فى مناقب الشافعى عن الربيع بن سليمان تلميذ الشافعى .

واستمر الشافعي على ذلك حتى أتم حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين ولقد ضرب لأقرانه وزملائه أروع الأمثلة في جفظة لكتاب الله تعالى فقد كان حريصا أشد الحرص على وعى ما يحفظه من القرآن الكريم . وهو لم يبلغ سن الثالثة عشرة . حتى كان له شأن في مسجد الله الحرام فكان إذا قرأ القرآن ينشج الناس يبكون .

قالوا : كنا إذا أردنا أن نبكى قال بعضنا لبعض : قوموا إلى هذا الفتى المطلبى الذى يقرأ القرآن . فإذا أتيناها استفتح القرآن حتى نتساقط بين يديه من كثرة البكاء فإذا رأى ذلك أمسك . أ. هـ .

ولقد سكت التاريخ عن اسم محفظه القرآن الكريم . ولما أتم حفظه توجه إلى الشيخ اسماعيل بن قسطنطين قارئ مكة وجود عليه القرآن الكريم . ثم بعد ذلك أخذ الشافعي يحفظ أحاديث رسول الله ﷺ ويقيد ما يحفظ من الحديث . ليرجع إليه عند الحاجة .

ثم اتجه بعد ذلك إلى دراسة العلم فتوجه إلى مدرسة ابن عباس رضى الله عنهما التى كانت تعنى بدراسة القرآن الكريم وعلومه ومعرفة النسخ والمنسوخ فى القرآن والسنة فبرز الإمام الشافعي فى هذه المدرسة وأجاد وجود ما تعلمه بها . وارتبط فكر الشافعي رضى الله عنه وطريقته بابن عباس رضى الله عنهما كارتباط فكر ابن عباس بفكر الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه الذى برع فى علوم القرآن والفقه والأحكام كل البراعة .

قال الإمام الشافعي :

(لما ختمت القرآن دخلت المسجد فكنت أجالس العلماء وأحفظ الحديث والمسألة وكان منزلنا بمكة فى شعب الخيف وكنت فقيرا بحيث ما أملك أن أشتري القراطيس فكنت آخذ العظم وأكتب فيه) .

وكان الشافعي طموحا لقد اشتاقت نفسه - رغم تحصيله العلمى - لأن يتفصح لسانه العربى حتى لا يكون فيه لكنة فى وقت خالطت العجم فيه المتكلمين بالعربية فى المدائن والأمصار . وفى سبيل تفصح لسانه خرج إلى البادية

فلزم قبيلة هذيل . وكانت من أفصح القبائل العربية في البادية فحفظ أشعارهم وآدابهم حتى صار راوية من رواة أشعارهم .

قال الأصمعي ذو المكانة العالية في رواية الأدب :

(صححت أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له : محمد بن إدريس)
ثم عاد الشافعي إلى مكة المكرمة بعد أن تحقق له ما يصبو إليه من تقويم لسانه حتى كان حجة في رواية اللغة .

قال عبد الملك بن هشام النحوي : (الشافعي كلامه لغة يحتج بها) .

وقال أيضاً : (طالت مجالستنا للشافعي فما سمعت منه لحنه قط ولا كلمة غيرها أحسن منها) .

قال الشافعي رضي الله عنه : خرجت من مكة فلازمت هذيلاً أتعلم كلامها وآخذ طباعها وكانت أفصح العرب أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم . فلما رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار وأذكر الآداب والأخبار .

وذكر العلامة ابن كثير : أنه أقام بالبادية عشر سنين وقد حبيب إليه في صغره الرمي فبرع فيه حتى كان يصيب من العشرة عشرة وأما العلم فقد بلغ فيه شأواً بعيداً رفع الله به ذكره .

قال : تعلمت الرماية حتى كنت أصيب من العشرة عشرة .

وجاء في تذكرة الحفاظ : كان الشافعي من أحذق قريش بالرمي كان يصيب من العشرة عشرة وكان أولاً قد برع في ذلك وفي الشعر واللغة وأيام العرب .

وتعلم الرماية مما يتفاخر به العرب . وكان رسول الله ﷺ : يحث عليها كثيراً ويقول : (ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً) ولما عاد الشافعي من هذيل أقبل يدرس الحديث والفقه بمكة وكذا تجويد القرآن الكريم ثم حفظ الموطأ للإمام مالك رضي الله عنه .

● دراسته الفقه وأصوله :

كان الشافعي رضي الله عنه في طلب العلم منهوماً لا يشبع ولقد تحمل في

سبيل ذلك متاعب كثيرة ثم تحققت له آماله وجلس إلى كبار الشيوخ في عصره فأحسن الاستفادة منهم حتى بلغ في العلم درجة النصح والكمال فإنه لما عاد من البادية طلب تعلم الفقه وأصوله على شيخ مكة ومفتيها الإمام مسلم بن خالد الزنجي (مفتي مكة) رحمه الله تعالى.

وسمى بالزنجي: لشدة شقوته فهو من أسماء الأضداد. وتفقه عليه وعلى غيره من شيوخ مكة وعليهم قرأ الحديث وحفظه ولما قطع في تحصيل العلوم شوطا كبيرا واطمأن إليه شيخه مسلم رحمه الله أذن له بالفتوى والرد على أسئلة المسلمين. فقال له: (أفت يا أبا عبد الله فقد آن لك أن تفتي).

وكانت سنة إذ ذاك خمس عشرة سنة. وهو ما اتفق عليه الأكثرون ولم يبهز الشافعي الإذن له من شيخه بالفتوى لأن طموحه كان أكبر من ذلك فما كاد يسمع بالإمام مالك رضى الله عنه بالمدينة حتى قرر السفر إليه وقبل أن ينشئ السفر حفظ موطأ الإمام مالك.

قال الشافعي: لما رجعت إلى مكة من هذيل بالبادية أنشد الأشعار والآداب وأيام العرب مرّبي رجل من الزبيديين فقال لي: ألا يكون مع هذه الفصاحة والذكاء فقه فتكون قد سدت أهل زمانك. فقلت: ومن بقى يقصد؟ فقال: هذا مالك سيد المسلمين فوق في قلبي فاستعرت الموطأ من رجل بمكة وحفظته في تسع ليال - وقيل في ثلاث - ثم قدمت المدينة، فدخلت عليه فقلت: أصلحك الله. إني رجل مطلبى من حالتي وقصتي كذا وكذا فلما سمع كلامي نظر إلي ساعة. وكان لمالك فراسة فقال لي: ما اسمك؟ فقلت: محمد. فقال لي: يا محمد اتق الله واجتنب المعاصي فإنه سيكون لك شأن فقلت: نعم وكرامة. قال: إن الله تعالى ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بالمعصية.

ثم قال: فإذا كان الغد تجئ نقرأ لك الموطأ.

فقلت: إني أقرؤه من الحفظ ورجعت إليه في الغد وابتدأت بالقراءة وكلما أردت قطع القراءة خوفا من ملاله. أعجبه حسن قراءتي فيقول: يا فتى زد حتى قرأته في أيام يسيره ثم أقمت بالمدينة إلى أن توفي مالك رحمه الله. أ. هـ.

ولما ذهب الشافعى إلى مالك كان يحمل معه رسالة توصية من حاكم مكة وقيل : من شيخه مسلم بن خالد الزنجى رضى الله عنه .

ولازم الشافعى مالكا تسع سنوات تلقى عليه فيها فقه أهل المدينة المنورة وكان مع ذلك يقوم برحلات كثيرة إلى باقى البلدان الإسلامية ليستفيد منها ما يستفيد المسافر الأريب من علم بأحوال الناس وشئون اجتماعهم وكان من وقت لآخر يذهب إلى أمه بمكة فيستنصح بنصائحها إذ كان فيها رأى صائب ونظر ثاقب ورأى راجح .

وكان الإمام مالك رحمه الله تعالى يوصله فى هذه الرحلات بمال كثير وفى المدينة المنورة التقى الشافعى بكثير من علماء مصر الذين وفدوا على الإمام مالك لطلب العلم وكان الشافعى يجلس أمامهم فى مجلس الأستاذ بأمر شيخه .

قال الربيع رحمه الله تعالى : ثم قدم على مالك المصريون بعد قضاء حجهم للزيارة وسماع الموطأ .

قال الشافعى : فأملت عليهم الموطأ حفظاً ، منهم : عبد الله بن عبد الحكم وأشهب وابن القاسم .

قال الربيع : وأحسب أنه ذكر الليث بن سعد .

عاش الشافعى مع مالك كما يعيش الصديق مع صديقه والتلميذ مع أستاذه والأخ مع أخيه والابن مع أبيه .

قال رضى الله عنه : فما علم أحد من الأنس الذى كان بيننا . أينا الضيف وأقام معه حتى توفى مالك سنة ١٧٩ هـ .

● تحقيق :

ذكر كثير من كتاب التراجم والسير والتاريخ أن الشافعى اتصل بالإمام مالك وكانت سنة ثلاث عشرة سنة ، منهم الشقرانى فى طبقاته والشبلنجى فى نور الأبصار والحريفيش فى الروض الفائق . وذكر آخرون أنه لم يتصل به إلا وهو فى سن العشرين أو قبلها بقليل .

وأرى أن القول الأخير هو الصحيح . وذلك لأننا قد عرفنا أن الشافعى قد أقام مع مالك حتى توفى سنة ١٧٩ هـ وكانت مدة مكثه معه تسع سنوات إذا يكون الشافعى قد حفظ الموطأ وهو فى سن العشر سنوات فى تسع ليال أو أقل وهذا ما ذهب إليه الكثير وقال آخرون : إنه لم يحفظه إلا عند ذهابه للإمام مالك وكان فى سن العشرين .

وأرى أنه ليس هناك تعارض بين هذين الرأيين فالشافعى حفظ الموطأ وهو ابن عشر سنين فعلا ولكنه عندما أراد الذهاب إلى الإمام مالك أراد أن يطلع عليه مرة أخرى حتى ينظر فيه هل ينقصه شئ فى حفظه أم لا ؟

ولما توفى الإمام مالك رضى الله عنه حزن الإمام الشافعى لفقده حزنا شديدا ثم عاد إلى مكة المكرمة ولم يكن بذى مال . فاضطر لأن يبحث عن عمل يرتزق منه . فساعده مصعب بن عبد الله القرشى قاضى اليمن وقبل مساعدة حاكمها على أن يلى باليمن عملا يرتزق منه .

وتولى الشافعى عملا بنجران وأقام ملازما للإمام يحيى بن حسان رحمه الله وهناك رأى الشافعى جور الحكام وقسوتهم فثار على هذا الظلم واتصل بالناس وأخذ يشرح لهم مبادئ العدالة فى الشريعة الإسلامية وطبيعى هذا لا يرضى الحكام ولا معاونيهم .

فانتهاز حاكم اليمن فرصة الصراع بين العباسيين والعلويين . فوشى بالشافعى عند الخليفة العباسى هارون الرشيد فأرسل إليه يقول : إن هنا رجلا من ولد شافع المطلبى لا أمرلى معه ولا نهى يعمل بلسانه مالا يقدر عليه المقاتل بسيفه . وحمل الشافعى مع المتهمين بالتشيع لآل البيت وكان ذلك فى سنة ١٨٤ هـ وكان قدومهم على هارون الرشيد بالعراق وكان عمره إذ ذاك أربعاً وثلاثين سنة ونجى الله الشافعى من سيف الرشيد بحيلة ذكاء من الشافعى .

فعندما واجهه الخليفة بقول حاكم اليمن واتهامه له بالتشيع للعلويين فقال الشافعى : يا أمير المؤمنين ما رأيك فى رجل يرانى ابن عمه وآخر يرانى عبده فلمن يكون ولائى وحبى ؟ .

فقال : للذى يراك ابن عمه . فقال يا أمير المؤمنين إنكم بنى العباس تروننا أبناء عمومكم وأبناء على يروننا عبيدا لهم . فعفا عنه الرشيد وبذلك نجاه الله من سيف الرشيد .

● فى العراق :

ولما كان الشافعى بالعراق اتصل بمحمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة فأخذ عنه فقه العراقيين واطلع على كتبهم فأضاف ذلك إلى ما عنده من فقه الحجازيين . قال رضى الله عنه : (حملت عن محمد بن الحسن وقر بغير ليس فيه إلا سماعى منه) .

وكانت له مناظرات ومناقشات مع محمد بن الحسن وغيره . رفع منها الكثير إلى هارون الرشيد فأعجب بها . وكانت له بالعراق نوادر . يقول :

فما بت ليلتى حتى كسانى محمد بن الحسن خلقة بألف درهم ثم دخل خزانة الكتب فأخرج لى الكتاب الأوسط تأليف الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه فنظرت فى أوله وآخره ثم ابتدأت الكتاب فى ليلتى أتحفظه فما أصبحت إلا وقد حفظته ومحمد بن الحسن لا يعلم بشئ . ذلك وكان المشهور فى العراق بالفتوى والمجيب فى النوازل فأنا قاعد عن يمينه فى بعض الأيام إذ سئل عن مسألة . أجاب فيها وقال : هكذا قال أبو حنيفة فقلت له قد وهمت فى الجواب . والجواب عن قول الرجل كذا وكذا . وهذه المسألة تحتها المسألة الفلانية وفوقها المسألة الفلانية وفى الكتاب الفلانى وأمر محمد بن الحسن بالكتاب فأحضر فتصفحه ونظر فيه فوجد القول كما قلت فرجع عن جوابه إلى ما قلت . ولم يخرج إلى كتابا بعد هذا فاستأذنته فى الرحيل) .

ومكث الشافعى ببغداد مدة سنتين فى ضيافة محمد بن الحسن الشيبانى الذى أكرم ضيافته ثم عاد بعدها إلى مكة المكرمة ووصله هارون الرشيد بألفى دينار وكذا وصله محمد بن الحسن بثلاثمائة درهم .

يقول العلامة ابن حجر العسقلانى رحمه الله تعالى :

انتهت رئاسة الفقه في المدينة إلى مالك بن أنس فرحل الشافعي إليه ولازمه وأخذ عنه. وانتهت رئاسة الفقه في العراق إلى أبي حنيفة فأخذ الشافعي عن صاحبه محمد بن الحسن فاجتمع لديه علم أهل الحديث وعلم أهل الرأي حتى اشتهر أمره وعلا ذكره أ. هـ.

وهكذا جمع الله للشافعي علم الحجازيين وعلم العراقيين وعلم أهل اليمن وبذلك أصبح مؤهلاً تأهيلاً علمياً عالياً لأن يعتلى كرسي الأستاذية.

● جلوسه للتدريس والفتوى:

أذن للشافعي بالفتوى مرتين من إمامين جليلين. هما:
مسلم بن خالد الزنجي، ومالك بن أنس رضي الله عنهما.
فالأول أذن له بالفتوى وعمره خمسة عشر عاماً.

قال الحميدي: سمعت مسلماً بن خالد الزنجي وقد مر على الشافعي وهو يفتي وهو ابن خمس عشرة سنة وقال له: أفت فقد آن لك أن تفتي وهكذا أذن له شيخه بالفتوى (الاجتهاد) كذا فسر الباجوري في حاشيته على شرح ابن قاسم في فقه الشافعية.

ولما ذهب الشافعي إلى المدينة لأول مرة وهو في سن العشرين تقريباً وكان في مجلس الإمام مالك رضي الله عنه. فجاء رجل وقال للإمام مالك: إني رجل أبيع القماري^(١) وإني بعت في يومي هذا قمرياً فردده على المشتري وقال: قمريك لا يصيح. فحلفت له بالطلاق أنه لا يهدأ من الصياح فقال له مالك: طلقت زوجتك ولا سبيل لك عليها فقال الشافعي للرجل: أيهما أكثر صياحاً قمريك أم سكوته؟.

فقال له الرجل: بل صياحه. فقال له الشافعي لاطلاق عليك. فعلم بذلك مالك. فقال للشافعي: من أين لك هذا؟ فقال له الشافعي لأنك حدثتني عن الزهري عن أبي مسلمة بن عبد الرحمن عن أم سلمة أن فاطمة بنت قيس قالت:

(١) القماري جمع قمري والقمرى منسوب إلى طير (مختار الصحاح).

يا رسول الله . إن أبا جهم ومعاوية خطباني فقال ﷺ : أما معاوية فصعلوك لا مال له . وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه .

وإن رسول الله ﷺ يعلم أن أبا جهم يأكل وينام ويستريح وقد قال ﷺ لا يضع عصاه على الجواز والعرب تجعل أغلب الفعلين كمداوخته . ولما كان صياح قمرى هذا أكثر من سكوته جعلته كصياحه دائما .

فتعجب الإمام مالك من احتجاجه وقال له : أفت فقد آن لك أن تفتى وبهذا أذن للشافعى بالإفتاء مرتين من أكبر شيوخه (مسلم بن خالد ومالك) رضى الله عنهما .

فى سنة ١٨٦ هـ عاد الإمام الشافعى رضى الله عنه إلى مكة المكرمة كما تعود النحلة إلى خليتها وقد امتصت من يانع الزهر وشهى الثمار لتخرج للناس عسلا مصفى وشرابا سائغا .

عاد إلى مكة وقد حفظ فقه العراقيين بعد أن حصل فقه الحجازيين وبذلك تكونت عنده حصيلة علمية فقهية عظيمة وقد اكتسب فى رحلاته المتعددة خبرة بأحوال المسلمين واسعة مع ما يحمله من قدرات عقلية كبيرة كل هذا أوجد عنده سعة فى الفهم وقدرة على التحليل والاستنتاج والاستنباط ففاق – بذلك – أقرانه وزملاءه .

عاد إلى مكة وهى يومئذ تعج بالعلماء وطلاب العلم الوافدين من شتى بقاع العالم الإسلامى . وجلس يلقي دروسه فى المسجد الحرام . وكثر طلابه واتسعت حلقة درسه . وقد وجد طلاب العلم عنده ما لم يجدوه عند غيره من العلماء فعلا صيته وانتشر خبره وذاع أمره وكان من أبرز تلاميذه الإمام الجليل أحمد بن محمد بن حنبل رضى الله عنه ، قيل للإمام أحمد وهو فى مجلس الإمام الشافعى بالمسجد الحرام :

هذا سفيان بن عيينة فى ناحية المسجد يحدث ، فقال الإمام أحمد : (هذا يفوت وذاك لا يفوت) .

وفى مكة المكرمة كثر عطاء الإمام الشافعى وانتشرت آراؤه بين العلماء

وطلاب العلم ولما كان العصر عصر وضع المناهج أخذ الإمام في وضع مبادئ علم أصول الفقه وقواعده . وبحث في مسائله وقضاياها .

وظل الشافعي بمكة تسع سنوات قضاهما بين التدريس والفتوى والبحث في الأصول . ثم لم يلبث أن تطلع إلى السفر إلى بغداد بالعراق مرة أخرى ونزلها في سنة ١٩٥ هـ كما ينزل الغيث الهتون على الأرض الطيبة وأخذ يتنقل بين ربوع بغداد فأقبل العلماء والمحدثون ينهلون من علمه ويتزودون من علمه .

وعندما نزل بغداد كان الرشيد قد لقي ربه وتولى ابنه المأمون . وكذلك توفي الإمام محمد بن الحسن الشيباني . فحزن الشافعي لفقده . ونزل على محمد ابن حسان الزيادي . وكان من أكابر علماء الحنفية في ذلك الوقت فانضم إلى الشافعي جماعة من علماء العراق وأخذوا عنه . وهناك أملى عليهم كتبه التي وضعها بمكة . فأخذوا عنه الرسالة في أصول الفقه وكتاب جماع العلم وكتاب إبطال الاستحسان . ثم أملى عليهم كتابه (الحجة) وفيه مذهبه العراقي (القديم) .

قضى الشافعي ببغداد عامين أو أكثر عمل فيهما على نشر آرائه وبث مناهجه ومذهبه بين أهل العراق . ثم عاد إلى الحجاز وظل به عاما واحدا . يدرس لطلابه بالحجاز ويؤلف كتبه . ثم عاد إلى العراق مرة أخرى فأقام بها شهرا يدرس العلم وينظر العلماء . وفي المرتين الأخيرتين كان يلتقى به تلميذه الإمام أحمد بن حنبل كما تبعه في العراق أخص تلاميذه : أبو ثور والكرابيبي والزعفراني وغيرهم ممن تحملوا مذهبهم القديم واشتغلوا به بقية أعمارهم . وهناك رأى الشافعي المأمون وقد قرب منه المعتزلة وأخذت الصراعات على أشدها بالعراق بين أهل السنة والمعتزلة وهنا قرر الإمام الشافعي أن يسافر إلى مصر لأنها بلد خال من الصراعات .

● الهجرة إلى مصر :

لم يرض الشافعي عن الإقامة في ظل الغلبة الفارسية ولا أن يقيم في دار الخلافة بعد أن قرب الخليفة المأمون منه المعتزلة بزعامة أحمد بن أبي دؤاد باعث

الفتنة . وأبعد الفقهاء وعلماء أهل السنة فقرر الهجرة إلى مصر التي حفظها الله تعالى من مثل هذه الصراعات التي تهدم ولا تبني . كما أن مصر تتوسط العالم الإسلامي في ذلك الوقت . ويقيم فيها الكبار من تلاميذ الإمام مالك رضي الله عنه . وكان حاكمها عربيا قرشيا عباسيا فأكرم لقاء الشافعي ورحب به في مصر وأجرى عليه حصة من بيت المال كونه قرشيا مطلبيا لأن النبي ﷺ سوى بين بنى هاشم وبنى المطلب في العطاء .

نزل الشافعي مصر في سنة ١٩٩ هـ وبعد استقبال الخليفة له استضافة عبد الله بن الحكم وكان من أكابر علماء المالكية في مصر . وكان الشافعي قد تعرف عليه بالمدينة عند الإمام مالك رضي الله عنه . وأملى عليه الشافعي موطأ الإمام مالك رضي الله عنه .

ولما جاء الشافعي رضي الله عنه إلى مصر أخذ يلقي دروسه في مسجد عمرو بن العاص رضي الله عنهما . وكان مذهباً مالك وأبو حنيفة منتشرين في مصر .

وفي مصر وضع كتابه العظيم « الأم » وفيه رجع عن بعض آرائه لتغير المناخ العلمي في مصر عنه في الحجاز وفي العراق .

ورد في دائرة الشعب : (قدم الشافعي مصر وكان الغالب على المصريين المذهب المالكي والمذهب الحنفي . فنشر مذهبه بها ودون كثيراً من الكتب) .

ومما هو جدير بالذكر أن الإمام الشافعي رضي الله عنه التقى في مصر بالسيدة الجليلة الحسينية النسبية سيدتنا نفيسة العلم والمعرفة ذات القرابة القريبة من إمامنا الجليل محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنهما لقد كان يحضر مجالسها تسمع منه ويسمع منها . وروى أنه كان يصلي بها التراويح في شهر رمضان من كل عام إلى أن توفي رحمه الله تعالى .

وفي مصر التف حولَه جمع كبير من العلماء ومن طلاب العلم استحساناً لعلمه وحباً في منهجه ورغبة في نوال بركته فهو القرشي المطلبى من أبناء عمومة

المصطفى ﷺ . حتى كون مدرسة شافعية قوية بمصر وما زال مذهبه منتشرا في ربوع مصر مدنها وقراها إلى يومنا هذا .

وقد بلغه وهو في مصر أن أهل الأندلس يأخذون قلنسوة الإمام مالك ويتبركون بها فأراد أن يعرفهم بأن الإمام مالك ليس إلا عالما من علماء المسلمين فوضع كتابه « اختلاف مالك » وفيه نقد المذهب المالكي لينعرف الناس أن الإمام مالك شأنه شأن غيره من العلماء يخطئ ويصيب .

وفي مصر شعر الإمام الشافعي بالغربة وأخذ الحنين إلى موطنه ومسقط رأسه ولكن منعه من ذلك طموحه في نشر العلم في بلدان المسلمين شرقا وغربا . يقول :

سأضرب في طول البلاد وعرضها أنال مرادى أو أموت شهيدا
فإن تلفت نفسي فالله درها وإن سلمت كان الرجوع قريبا
وقال أيضا :

مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطا مشاها
ومن كانت منيته بأرض قوم فليس يموت في أرض سواها

● وفاة الإمام الشافعي :

قال الربيع بن سليمان صاحب الإمام الشافعي رضى الله عنه :

رأيت في المنام أن آدم مات - ﷺ - ويريدون أن يخرجوا بجنازته فلما أصبحت سألت بعض أهل العلم عن ذلك فقالوا : هذا موت أعلم أهل الأرض إن الله عز وجل علم آدم الأسماء كلها . فما كان إلا يسيرا حتى مات الشافعي رضى الله عنه .

عاش الشافعي في مصر خمس سنوات وتسعة أشهر قضاهما في نشر العلم والمعرفة حتى مرض مرض الوفاة . فدخل عليه المزنى أحد أتباعه فقال له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلا ولإخوان مفارقا ولسوء عملى ملاقيا

ولكأس المنية شاربا وعلى الله وارداً فلا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها . ثم قال :

ولما قسا قلبي وضائق مذاهبي جعلت رجائي نحو عفوك ربي سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما
وما زلت عفوا عن الذنب الذي لم . تزل تجود وتعفو منه وتكرما

وأوصى قبل موته أن يمروا بجنائزه على بنت السيدة : نفيسة رضي الله عنها
ففعّلوا وصلت عليه السيدة نفيسة رضي الله عنها ^(١) ثم قالت : (رحم الله
الشافعي قد كان رجلا يحسن الوضوء) .

وسمع أحد الأولياء من يقول : غفر الله للشافعي بصلاة السيدة نفيسة عليه
وغفر لمن صلى على الشافعي بالشافعي .

مات رضي الله عنه في ليلة الجمعة ودفن في عصرها (٢٩ من رجب ٢٠٤ هـ -
١٩ يناير ٨٢٠) وله من العمر أربع وخمسون عاما ودفن بالقرافة بمقابر بني
عبد الحكم بمصر بمسجده العامر وله قبة مشهورة ويزوره الناس من كل فج حبا
فيه وتبركا .

قال الربيع بن سليمان : توفي الشافعي رحمه الله ليلة الجمعة بعد المغرب
وأنا عنده ودفن يوم الجمعة بعد العصر آخر يوم من رجب وانصرفنا من جنازته
ورأينا هلال شعبان سنة أربع ومائتين من الهجرة .

يقول البوصيري رحمه الله تعالى :

لقبة قبر الشافعي سفينة رست في بناء محكم فوق جلمود
ولقد غاص طوفان العلوم بقبر اسـ ـ ـ ـ ـ
توى من ذاك الضريح على الجودي

وقال آخر :

أتيت لقبر الشافعي أزوره فوجدنا فلكا وما عنده بحر
فقلت تعالى تلك إشارة تشير بأن البحر قد ضمه قبر

(١) صلت عليه مأمومة خلف أبي يعقوب البويطي .

هذا وقد شيعه المصريون إلى مثواه الأخير في حزن شديد وبكاء وعويل
رحمه الله رحمة واسعة وأجزل له في العطاء.

● زوجته وأولاده:

كان رضى الله عنه متزوجا بامرأة تسمى: حميدة بنت نافع بن عقبة بن
عمرو بن عثمان بن عفان رضى الله عنه.

فولدت له: أبا عثمان: محمدا. الذى كان قاضيا بحلب. وفاطمة وزينب
وللإمام الشافعى ولد آخر يسمى: الحسن مات طفلا وأمه: أم ولد كذا نقله
الرازي.

وليس عبد الله ولدا له وإنما هى كنية كنى بها الشافعى رضى الله عنه ولم
ينقل لنا التاريخ أن الإمام الشافعى رضى الله عنه كان متزوجا بأخرى ولم ينجب
أولادا سوى هؤلاء رضى الله عنه وأرضاه.

* * *

الإمام الشافعي يروى رحلاته

لندع سيدنا الإمام الشافعي رضي الله عنه يحدثنا عن حياته ورحلته جهاده وكفاحه في سبيل طلب العلم وتحصيله وتدريسه ونشره في العالمين.

روى صاحب كتاب «نور الأبصار»^(١) قال: قال الشيخ الإمام العالم المقرئ أبو القاسم: عبد العزيز بن يوسف الأردبيلي المالكي بالجامع العتيق بمصر في سنة ثلاث وخمسين وخمسائة أخبرنا الشيخ أبو محمد: عبد الله بن فتح المعروف بابن الحبشي سنة ثلاثين وخمسائة. أخبرنا الشريف القاضي الموسوي ابن إسماعيل بن الحسيني المقرئ في سنة أربع وثمانين وأربعمائة بالجامع العتيق بمصر قال: أخبرنا الشيخ أبو العباس أحمد بن إبراهيم الفارسي في ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وأربعمائة قال: أخبرنا يحيى بن عبد الله الرجل الصالح ويحيى ابن موسى المعدل بمصر قالوا: حدثنا أبو الحسن أحمد بن محمد الواعظ المصري الكراز قال: حدثني أبو الفرج: عبد الرزاق حميدان البطين. قال: حدثني أبو بكر محمد بن المنذر قال: حدثني الربيع بن سليمان قال: سمعت الإمام الشافعي رضي الله عنه يقول: فارقت مكة وأنا ابن أربع عشرة سنة لا نبات يعارضني من الأبطح إلى ذي طوى وعلى بردتان يمانيتان فرأيت ركبا فسلمت عليهم فردوا على السلام ووثب إلي شيخ كان فيهم قال: سألتك بالله إلا ما حضرت طعامنا قال الشافعي رضي الله عنه وما كنت أعلم أنهم أحضروا طعاما فأجبت مسرعا غير محتشم. فرأيت القوم يأخذون الطعام بالخمس ويدفعون بالراحة فأخذت كما أخذهم كي لا يستبشع عليهم مأكلي والشيخ ينظر إلي ثم أخذت السقاء فشربت وحمدت الله وأثنت عليه فأقبل علي الشيخ وقال: أمكي أنت؟ قلت: مكى قال: أقريشي أنت؟ قلت: قريشي ثم أقبلت عليه وقلت: يا عم بما استدلت علي؟ قال: أما في الحضر فبالزى. وأما في النسب فبأكل الطعام لأنه من أحب أن يأكل طعام الناس أحب أن يأكلوا طعامه وذلك في قريش خصوصا،

(١) تأليف الشيخ سيد الشبلنجي من ص ٤٥٤ وما بعدها.

قال الشافعي رضي الله عنه : فقلت للشيخ من أين أنت ؟ قال : من يشرب مدينة رسول الله ﷺ . فقلت له من العالم بها والمتكلم في نص كتاب الله تعالى والمفتي بأخبار الرسول ﷺ ؟ قال : سيدى ابن أصبح : مالك بن أنس رضي الله عنه قال الشافعي رضي الله عنه فقلت : واشوقاه إلى مالك . فقال لي : قد بل الله شوقك . انظر إلى هذا البعير الأورق فإنه أحسن جمالنا ونحن على رحيل ولك منا حسن الصحبة حتى تصل إلى مالك فما كان غير بعيد حتى قطروا بعضها إلى بعض وأركبوني البعير الأورق ، وأخذ القوم في السير وأخذت أنا في الدرس فخرجت من مكة إلى المدينة ست عشرة ختمة بالليل ختمة وبالنهار ختمة . ودخلت المدينة في اليوم الثامن بعد صلاة العصر فصليت العصر في مسجد رسول الله ﷺ ودنوت من القبر فسلمت على النبي ﷺ ولذت بقبره . فرأيت مالك بن أنس متزرا ببرده متشحا بأخرى ، قال : حدثني نافع عن ابن عمر عن صاحب هذا القبر وضرب بيده إلى قبر رسول الله ﷺ . قال الشافعي رضي الله عنه : فلما رأيت ذلك هبتة مهابة عظيمة وجلست حيث انتهى بي المجلس فأخذت عودا من الأرض فجعلت كلما أملى مالك حديثا كتبتة بريقى على يدي . والإمام مالك رضي الله عنه ينظر إلى من حيث لا أعلم حتى انقضى المجلس . وانتظرني مالك أن أنصرف فلم يرني أنصرف فأشار إلى فدنوت منه . فنظر إلى ساعة ثم قال : أحرمت أنت ؟ قلت : حرمي . قال : أمكى أنت ؟ قلت : مكى قال : أقريشى أنت ؟ قلت : قريشى . قال : كملت أوصافك لكن فيك إساءة أدب قلت : وما الذي رأيت من سوء أدبي ؟ قال : رأيتك وأنا أملى ألفاظ الرسول عليه الصلاة والسلام تلعب بريقك على يدك . فقلت له : عدمت البياض . فكنت أكتب ما تقول فجذب مالك يدي إليه فقال : ما أرى عليها شيئا فقلت : إن الريق لا يثبت على اليد ولكن فهمت جميع ما حدثت به منذ جلست وحفظته إلى حين قطعت .

فتعجب الإمام مالك من ذلك . فقال : أعد علي ولو حديثا واحدا .

قال الشافعي رضي الله عنه : فقلت حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر وأشرت بيدي إلى القبر (الشريف) كإشارته حتى أعدت عليه خمسا وعشرين حديثا حدث بها من حين جلس إلى وقت قطع المجلس وسقط القرص . فصلي

مالك المغرب، وأقبل على عبده وقال: خذ بيد سيدك إليك وسألني النهوض معه قال الشافعي رحمه الله: فقمتم غير ممتنع إلى ما دعا من كرمه. فلما أتيت الدار أدخلني الغلام إلى خلوة في الدار وقال لي: القبلة في البيت هكذا. وهذا إناء فيه ماء. وهذا بيت الخلاء.

قال الشافعي رضي الله عنه: فما لبث مالك رضي الله عنه حتى أقبل هو والغلام حاملا طبقا فوضعه من يده. وسلم الإمام علياً: ثم قال للعبد أغسل علينا. ثم وثب الغلام إلى الإناء وأراد أن يغسل علي أولاً فصاح عليه مالك وقال: الغسل في أول الطعام لرب البيت وفي آخر الطعام للضيف قال الشافعي رضي الله عنه: فاستحسنت ذلك من الإمام مالك رضي الله عنه وسألته عن شرحه. فقال: إنه يدعو الناس إلى كرمه فحكمه أن يبتدئ بالغسل وفي آخر الطعام ينتظر من يدخل فيأكل معه، قال الشافعي رضي الله عنه: فكشف الإمام رضي الله عنه الطبق فكان فيه صفحتان في إحداهما لبن والأخرى تمر فسمى الله تعالى وسميت فأتيت أنا ومالك علي جميع الطعام. وعلم مالك أنا لم نأخذ من الطعام الكفاية فقال لي: يا أبا عبد الله هذا جهد من مقل إلى فقير معدم، فقلت: لا عذر علي من أحسن إنما العذر علي من أساء.

قال الشافعي: فأقبل مالك يسألني عن أهل مكة حتى دنت العشاء الآخرة ثم قام عني. وقال: حكم المسافر أن يقل تعبهُ بالاضطجاع فنمت ليلتي فلما كان في الثلث الأخير من الليل قرع علي مالك الباب فقال لي: الصلاة يرحمك الله فرأيتُه حامل إناء فيه ماء. فتبشع علي ذلك فقال: لا يرعك ما رأيته فخدمة الضيف فرض.

قال الشافعي رضي الله عنه: فتجهزت للصلاة وصليت الفجر مع الإمام مالك في مسجد رسول الله ﷺ والناس لا يعرفون بعضهم بعضاً من شدة الغلس. وجلس كل واحد منا في مصلاه يسبح الله تعالى إلى أن طلعت الشمس على رءوس الجبال، فجلس مالك في مجلسه بالأمس وناولني «الموطأ» أمليه وأقرؤه على الناس. وهم يكتبونه.

قال الشافعي رضي الله عنه : فأتيت على حفظه من أوله إلى آخره . وأقمت
ضيف مالك ثمانية أشهر فما علم أحد من الأنس الذي كان بيننا أينما الضيف .
ثم قدم على مالك المصريون بعد قضاء حجبهم للزيارة واستماع «الموطأ» .

قال الشافعي : فأملت عليهم حفظا منهم : عبد الله بن الحكم وأشهب وابن
القاسم . قال الربيع : وأحسب أنه ذكر . الليث بن سعد . ثم قدم بعد ذلك أهل
العراق لزيارة النبي ﷺ قال الشافعي رضي الله عنه : فرأيت بين القبر والمنبر
(الروضة الشريفة) فتى جميل الوجه نظيف الثوب حسن الصلاة . فتوسمت فيه
خيرا فسألته عن اسمه فأخبرني وسألته عن بلده فقال : العراق فقلت أي العراق ؟
فقال لي : الكوفة . فقلت من العالم بها والمتكلم في نص الكتاب والمفتي بأخبار
رسول الله ﷺ ؟

فقال لي : أبو يوسف ومحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة رضي الله عنه .
فقال الشافعي رضي الله عنه فقلت : ومتى عزمتم تظعنون ؟ فقال لي : في غداة غد
وقت الفجر . فعدت إلى مالك . فقلت له : خرجت من مكة في طلب العلم بغير
استئذان العجوز فأعود إليها أو أرحل في طلب العلم . فقال لي : العلم فائدة
يرجع منها إلى فائدة ، ألم تعلم أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما
يطلبه .

قال الشافعي رضي الله عنه : فلما أزمعت السفر زودني الإمام مالك رضي
الله عنه . فلما كان السحر سار معي مشيعا إلى البقيع ثم صاح بعلو صوته من
يكرى راحلته إلى الكوفة ؟ فأقبلت عليه وقلت : بم تكرى وليس معك ولا معي
شيء ؟ فقال لي : انصرفت البارحة بعد صلاة العشاء إذ قرع قارع على الباب .
فخرجت إليه فأصبت ابن القاسم فسألني قبول هديته فقبلتها ، فدفع إلى صرة
فيها مائة دينار . وقد أتيتك بنصفها وجعلت النصف لعيالي . فاكتري لي بأربعة
دنانير ودفع إلي باقي الدنانير وودعني وانصرف وصرت في جملة الحاج حتى
وصلت إلى الكوفة يوم رابع وعشرين من المدينة . فدخلت المسجد بعد صلاة
العصر وصليت العصر ، بينما أنا كذلك إذا رأيت غلاما قد دخل المسجد وصلى

العصر فما أحسن الصلاة . فقامت إليه ناصحا . فقلت له : أحسن صلاتك لئلا يعذب الله هذا الوجه الجميل بالنار .

فقال لى : أنا أظن أنك من أهل الحجاز لأن فيكم الغلظة والجفاء وليس فيكم رقة أهل العراق وأنا أصلى هذه الصلاة خمس عشرة سنة بين يدي محمد ابن الحسن وأبى يوسف فما عابا على صلاتي قط ، وخرج معجبا ينفذ رداءه في وجهي فلقي للتوفيق محمد بن الحسين وأبا يوسف بباب المسجد ، فقال : أعلمتما في صلاتي من عيب ؟ فقالا : اللهم لا . قال ففي مسجدنا هذا من عاب صلاتي فقالا : اذهب إليه فقل له : بم تدخل في الصلاة ؟ .

قال الشافعي رضي الله عنه : فقال لى : يا من عاب صلاتي بم تدخل في الصلاة ؟

فقلت : بفرضين وسنة .. فعاد إليهما وأعلمهما بالجواب فعلما أنه جواب من نظر في العلم .

فقالا : اذهب إليه . فقل له : ما الفرضان وما السنة ؟

فأتى إلى فقال : ما الفرضان وما السنة ؟ فقلت له : أما الفرض الأول : فالنية والثاني : تكبيره الإحرام والسنة : رفع اليدين فعاد إليهما فأعلمهما بذلك فدخلا المسجد فنظرا إلى أظنهما ازدريانى فجلسا في ناحية . وقالا : اذهب إليه وقل له : أجب الشيخين .

قال الشافعي رضي الله عنه : فلما أتاني علمت أنى مسئول عن شئ من العلم فقلت من حكم العلم أن يؤتى إليه . وما علمت لى إليهما حاجة . قال الشافعي رضي الله عنه : فقاما من مجلسهما إلى فلما سلما على قمت إليهما . وأظهرت البشاشة لهما وجلست بين يديهما . فأقبل على محمد بن الحسن قال : أحرمت أنت ؟ فقلت : نعم ، فقال : أعربى أم مولى ؟ فقلت : عربى . فقال : من أى العرب ؟ فقلت : من ولد المطلب قال : من ولد من ؟ قلت : من ولد شافع قال : رأيت مالك ؟ قلت : من عنده أتيت قال لى : نظرت في الموطأ ؟ قلت : أتيت على حفظه . فعظم ذلك عليه ودعا بدواة وبياض وكتب مسألة في الطهارة ومسألة في

الزكاة ومسألة في البيوع والفرائض والرهان والحج والإيلاء ومن كل باب في الفقه مسألة وجعل بين كل مسألتين بياضا ودفع إلى الدرج وقال: أجب عن هذه المسائل كلها من الموطأ.

قال الشافعي رضي الله عنه: فأجبت بنص كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وإجماع المسلمين في المسائل كلها. ثم دفعت إليه الدرج فتأمله ونظر فيه. ثم قال لعبده: خذ سيدك إليك قال الشافعي رضي الله عنه: ثم سألتني النهوض مع العبد فنهضت غير ممتنع فلما صرت إلى الباب قال لي العبد: إن سيدى أمرنى ألا تصير إلى المنزل إلا راكبا قال: فقلت له: قدم إلى بغلة بسرج محلى فلما علوت على ظهرها رأيت نفسى بأطمار رثة فطاف أزقة الكوفة إلى منزل محمد بن الحسن فرأيت أبوابا ودهاليز منقوشة بالذهب والفضة فذكرت ضيق أهل الحجاز وما هم فيه فبكيت. وقلت: أهل العراق ينقشون سقوفهم بالذهب والفضة وأهل الحجاز يأكلون القديد ويمصون النوى ثم أقبل على محمد ابن الحسن وأنا في بكائي وقال: لا يرعك يا أبا عبد الله ما رأيت فما هو إلا من حقيقة حلال ومكتسب. وما يطالبني الله فيها بفرض وإنى أخرج زكاتها في كل عام فأسر بها الصديق وأكبت بها العدو.

قال الشافعي: فما بت حتى كسانى محمد بن الحسن خلعة بألف درهم ثم دخل خزانته فأخرج إلى الكتاب الأوسط تأليف الإمام أبى حنيفة فنظرت في أوله وفي آخره. ثم ابتدأت الكتاب في ليلتى أتحفظه. فما أصبحت إلا وقد حفظته ومحمد بن الحسن لا يعلم بشئ من ذلك وكان المشهور بالكوفة بالفتوى والمجيب في النوازل، فأنا قاعد عن يمينه في بعض الأيام إذ سئل عن مسألة.

أجاب فيها وقال: هكذا قال أبو حنيفة. فقلت له: قد وهمت في الجواب في هذه المسألة والجواب من قول الرجل كذا وكذا وهذه المسألة الفلانية وفوقها المسألة الفلانية في الكتاب الفلانى فأمر محمد بن الحسن بالكتاب فأحضر فتصفحه ونظر فيه. فوجد القول كما قلت فرجع عن جوابه إلى ما قلت ولم يخرج إلى كتابا بعد هذا.

قال الشافعي : فاستأذنته في الرحيل . فقال : ماكنت لأذن لضييف بالرحيل عني . وبذل لي مشاطرة نعمته . فقلت مالذا قصدت ولا لذا أردت ولا رغبتى إلا في السفر قال : فأمر غلامه أن يأتي ما في خزانته من بيضاء وحمراء فدفع إلي ما كان فيها وهو ثلاثة آلاف درهم وأقبلت أطوف العراق وأرض فارس وبلاد الأعاجم وألقى الرجال حتى صرت ابن إحدى وعشرين سنة ثم دخلت العراق في خلافة هارون الرشيد فعند دخول الباب تعلق بي غلام فلاطفني وقال لي : ما اسمك ؟ فقلت : محمد فقال ابن من ؟ قلت ابن إدريس الشافعي فقال : مطلبى ؟ فقلت : أجل فكتب ذلك في لوح كان في كفه وخلي سبيلي فأويت إلى بعض المساجد أفكر في عاقبة ما فعل حتى إذا ذهب من الليل النصف كبس المسجد وأقبلوا يتأملون وجه كل رجل حتى أتوا إلي . فقالوا للناس لا بأس عليكم هذا هو الحاجة والغاية المطلوبة . ثم أقبلوا على وقالوا : أجب أمير المؤمنين فقلت غير ممتنع فلما بصرت بأمر المؤمنين سلمت عليه سلاما بينا فاستحسن الألفاظ ورد على الجواب ثم قال : تزعم أنك من بنى المطلب فقلت يا أمير المؤمنين كل زعم في كتاب الله باطل فقال ابن لي عن نسبك فانتسبت حتى لحقت آدم عليه السلام فقال لي الرشيد : ما تكون هذه الفصاحة ولا هذه البلاغة إلا في رجل من ولد المطلب هل لك أن أوليك قضاء المسلمين . وأشاطرك ما أنا فيه وتنفذ فيه حكمك وحكمي على ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام . واجتمعت عليه الأمة . فقلت : يا أمير المؤمنين لو سألتني أن أفتح باب القضاء بالغداة وأغلقه بالعشي بنعمتك هذه ما فعلت ذلك أبدا فبكى الرشيد وقال : تقبل من عرض الدنيا شيء . قلت : يكون معجلا فأمر لي بألف دينار فما برحت من مقامي حتى قبضتها ثم سألتني بعض الغلمان والحشم أن أصلهم من صلتى : فلم تسع المروءة أن كنت مسئولا غير المقاسمة فيما أنعم الله به علي ، فخرج لي قسم كأقسامهم ثم عدت إلى المسجد الذي كنت فيه في ليلتي فتقدم يصلي بنا غلام صلاة الفجر في جماعة فأجاد القراءة ولحقه سهو فلم يدر كيف الدخول ولا كيف الخروج فقلت له بعد السلام : أفسدت علينا وعلى نفسك أعد فأعاد مسرعا وأعدنا ، ثم قلت له أحضر بيضا أعمل لك باب السهو في الصلاة والخروج منها . فسارع إلى ذلك .

ففتح الله عز وجل فألفت كتابا من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وإجماع المسلمين وسميته باسمه وهو أربعون جزءا يعرف بكتاب الزعفراني - وهو الذي وضعته بالعراق حتى تكامل في ثلاث سنين وولاني الرشيد الصدقات بنجران وقدم الحاج فخرجت أسألهم عن الحجاز فرأيت فتى في قبته فلما أشرت إليه بالسلام أمر قائد القبة أن يقف وأشار إلي بالكلام فسألته عن الإمام مالك وعن الحجاز فأجاب بخير ثم عاودته إلى السؤال عن مالك فقال: أشرح لك أو أختصر؟ قلت: في الاختصار البلاغة فقال: في صحة جسم وله ثلاثمائة جارية. يبيت عند الجارية ليلة فلا يعود إليها إلى سنة فقد اختصرت لك خبره. قال الشافعي رضي الله عنه فاشتبهت أن أراه في حال غناه كما رأيته في حال فقره. فقلت له أما عندك من المال ما يصلح للسفر فقال: إنك لتوحشني خاصة وأهل العراق عامة وجميع ما لي فيه لك فقلت له فبم تعيش؟ قال: بالجاه. ثم نظر إلي. وحكمني في ماله فأخذت منه على حسب الكفاية والنهاية وسرت على ديار ربيعة ومضر فأتيت حران ودخلتها يوم الجمعة فذكرت فضل الغسل وما جاء فيه فقصدت الحمام فلما سكبت الماء رأيت شعر رأسي شعنا فدعوت المزين فلما بدأ برأسي وأخذ القليل من شعري دخل قوم من أعيان البلد فدعوه فصار إليهم وتركني فلما قضوا ما أرادوا منه. عاد إلي فما أردته وخرجت من الحمام فدفعت إليه أكثر ما كان معي من الدنانير وقلت له: خذ هذه وإذا وقف بك غريب لا تحقره. فنظر إلي متعجبا فاجتمع على باب الحمام خلق كثير فلما خرجت عاتبنى الناس فبينما أنا كذلك إذ خرج بعض من كان في الحمام من الأعيان فقدمت له بغلة ليركبها فسمع خطابي له فأنحدر عن البغلة بعد أن استوى عليها وقال لي: أنت الشافعي؟ فقلت: نعم. فمد الركاب مما يليني، وقال: بحق الله أركب ومضى بي الغلام مطرقا بين يدي حتى أتيت إلى منزل الفتى ثم أتى وقد حصلت في منزله فأظهر البشاشة: ثم دعا بالغسل فغسل علي ثم حضرت المائدة فسمي وحبت يدي فقال مالك يا عبد الله فقلت له: طعامك حرام علي حتى أعرف من أين هذه المعرفة؟ فقال: أنا ممن سمع منك الكتاب الذي وضعته ببغداد وأنت لي أستاذ. قال الشافعي رضي الله عنه: فقلت

العلم بين أهل العقل رحم متصلة فأكلت بفرحة إذ لم يعرف الله تعالى إلا بينى وبين أبناء جنسى . فأقمت عنده ثلاثا فلما كان بعد ثلاث قال لى : حول حران أربع ضياع ما بنجران أحسن منها أشهد الله إن اخترت المقام فإنها هدية منى إليك فقلت له : فبم تعيش . قال : بما فى صناديقى تلك وأشار إليها وهى أربعون ألف درهم وقال : أتجربها فقلت : ليس إلى هذا قصدت ولا خرجت من بلدى إلا فى طلب العلم . فقال لى : فالمال إذا من شأن المسافر فقبضت أربعين ألفا وودعته . وخرجت من مدينة حران وبين يدى أحمال ثم تلقانى الرجال وأصحاب الحديث منهم : أحمد بن حنبل وسفيان بن عيينة والأوزاعى فأجزت كل واحد منهم على قدر ما قسم الله له حتى دخلت مدينة الرملة وليس معى إلا عشرة دنائير فاشتريت بها راحلة واستويت على كورها وقصدت الحجاز فما زلت من منهل إلى منهل حتى قصدت مدينة النبى ﷺ بعد سبعة وعشرين يوما بعد صلاة العصر . فصليت العصر ورأيت كرسيًا من الحديد عليه مخدة من قباطى مصر مكتوب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ .

قال الشافعى رضى الله عنه وحوله أربعمائة دفترا أو يزيدون بينما أنا كذلك إذ رأيت مالك بن أنس رضى الله عنه . فدخل من باب النبى ﷺ وقد فاح عطره فى المسجد وحوله أربعمائة أو يزيدون يحمل ذيوله منهم أربعة فلما وصل قام إليه من كان قاعدا وجلس على الكرسي فألقى مسألة فى جراح العمد فلما سمعت ذلك لم يسعنى الصبر فقممت قائما فى سور الحلقة فرأيت إنسانا فقلت له : قل الجواب كذا وكذا فبادر بالجواب قبل فراغ مالك من السؤال فأضرب عنه مالك وأقبل على أصحابه فسألهم عن الجواب . فخالفوه . فقال لهم : أخطأتم وأصاب الرجل ففرح الجاهل بإصابته فلما ألقى السؤال الثانى : أقبل على الجاهل يطلب منى الجواب فقلت له : الجواب كذا وكذا فبادر بالجواب فلم يلتفت إليه مالك وأقبل على أصحابه واستخبرهم عن الجواب فخالفوه فقال لهم أخطأتم وأصاب الرجل .

قال الشافعي رضي الله عنه : فلما ألقى السؤال الثالث : قلت له قل الجواب كذا وكذا فبادر بالجواب فأعرض مالك وأقبل على أصحابه فخالفوه فقال أخطأتم وأصاب الرجل . ثم قال للرجل : ادخل ليس ذلك موضعك فدخل الرجل طاعة منه لمالك . وجلس بين يديه . فقال له مالك فراسة قرأت الموطأ؟ قال : لا قال : فنظرت ابن جريج؟ قال : لا.. قال : فلقيت جعفر بن محمد الصادق؟ قال : لا قال : فهذا العلم من أين؟ قال : إلى جانبي غلام شاب يقول لي قل الجواب كذا وكذا فكنت أقول . فالتفت مالك والتفت الناس بأعناقهم لالتفات مالك رضي الله عنه . فقال للجاهل : قم فأمر صاحبك بالدخول إلينا .

قال الشافعي رضي الله عنه : فدخلت فإذا أنا من مالك بالموضع الذي كان الجاهل فيه جالسا بين يديه فتأملني ساعة . وقال : أنت الشافعي؟ فقلت : نعم فضمنني إلى صدره ونزل عن كرسيه وقال : أتم هذا الباب الذي نحن فيه حتى ننصرف إلى المنزل الذي هو لك المنسوب إلى .

قال الشافعي رضي الله عنه : فألقيت أربعمئة مسألة في جراح العمد . فما أجابني أحد بجواب واحتجت أن آتي بأربعمئة جواب فقلت الأول كذا وكذا والثاني كذا وكذا حتى سقط القرص وصلينا المغرب فضرب مالك بيده إلى فلما وصلت المنزل رأيت بناء غير الأول فبكيت فقال : بم بكاؤك كأنك خفت يا أبا عبد الله أن قد بعث الآخرة بالدنيا؟ قلت : هو والله ذلك . قال : طب نفسا وقر عينا هذه هدايا خراسان وهدايا مصر والهدايا تجيء من أقاصي الدنيا وقد كان النبي ﷺ يقبل الهدايا ويرد الصدقة وإن لي ثلاثمئة خلة من ورق خراسان وقباطي مصر وعندي عبيد بمثلها لم تستكمل الحلم فهم هدية مني إليك وفي صناديقي تلك خمسة آلاف دينار أخرج زكاتها عند كل حول فلك مني نصفها قلت إنك موروث وأنا موروث فلا يبيت جميع ما دعوتني به إلا تحت خاتمي ليجرى ملكي عليه . فإن حضرني أجلى كان لورثتي دون ورثتك وإن حضرك أجلك كان لي دون ورثتك فتبسم في وجهي وقال : أبيت إلا العلم فقلت : لا يستعمل أحسن منه . وما بت إلا وجميع ما وعدني تحت خاتمي فلما كان في غداة صليت الفجر في جماعة وانصرفت إلى المنزل أنا وهو وكل واحد منا يده في

يد صاحبه إذ رأيت كراعا على بابه من جياذ خراسان وبغلا من مصر فقلت له ما رأيت كراعا أحسن من هذا فقال : هو هدية منى إليك يا أبا عبد الله . فقلت له دع لك منها دابة فقال : إني أستحي من الله أن أطأ قرية فيها نبي الله ﷺ بحافر دابة . قال الشافعي رضى الله عنه : فعلمت أن ورع الإمام مالك باق على حاله فأقمت عنده ثلاثا ثم ارتحلت إلى مكة وأنا أسوق خير الله ونعمه ثم أنفذت من يعلم بخبري فلما وصلت إلى الحرم خرجت العجوز ونسوة معها فضمتني إلى صدرها وضمتني بعدها عجوز كنت آلفها . دعوها خالتي وقالت :

ليس أملك اجتاحت المنايا كل فؤاد عليك أم

قال الشافعي رضى الله عنه : وهو أول كلمة سمعتها في الحجاز من امرأة . فلما هممت بالدخول قالت لى العجوز - أمه - إلى أين عزمتم ؟ فقلت إلى المنزل فقالت ! هيهات تخرج من مكة بالأمس فقيرا وتعود إليها غنيا مترفا تفخر على بنى عمك بذلك فقلت ما أصنع ؟ فقالت : ناد بالأبطح فى العرب بإشباع الجائع وحمل المنقطع وكسوة العراة فتربح ثناء الدنيا وثواب الآخرة ففعلت ما أمرت به . وسار بذلك الفعل الرجال على آباط الإبل وبلغ ذلك مالكا فبعث إلى يستحثنى على هذا الفعل ويعدنى أنه يحمل إلى فى كل عام مثلما صار إلى منه . وما دخلت إلى مكة وأنا أقدر على شئ مما جاء معى إلا على بغلة واحدة وخمسين دينارا فوقعت المقرعة فناولتنى إياها أمة على كتفها قرية فأخرجت لها خمسة دنانير فقالت لى العجوز ما أنت صانع ؟ فقلت : أجيئها على فعلها فقالت : ادفع إليها جميع ما تأخر معك قال : فدفعت إليها ودخلت إلى مكة فما بت تلك الليلة إلا مديونا .

وأقام مالك رضى الله عنه يحمل إلى فى كل عام مثل ما كان دفع إلى أولا إحدى عشرة سنة فلما مات ضاق بى الحجاز وخرجت إلى مصر فعوضنى الله : عبد الله بن الحكم فقام بالكلفة .

فهذا جميع ما لقيته فى سفرى فافهم ذلك يا ربيع .

قال الربيع : وسألنى المزنى إملاء ذلك بحضرته . فما وجدنا للمجلس فرغة فما وقع كتاب السفر إلى أحد غيرى . أ . ه .

شيوخ الشافعى

لقد تلقى الإمام الشافعى رضى الله عنه العلم فى كل فروعه على كثير من العلماء الأعلام والأئمة الفضلاء أشهرهم:

الأئمة: مسلم بن خالد الزنجى، وسفيان بن عيينة، ومالك بن أنس. ومحمد بن الحسن وكان أكثرهم تأثيرا: الإمام سفيان بن عيينة. والإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة كما كان له شيوخ كثيرون فى كافة فروع العلم فى عصره. ذكرهم الحافظ ابن حجر العسقلانى رحمه الله فى كتابه: توالى التأسيس، منهم:

ابراهيم بن سعد بن إبراهيم الزهرى (ت ١٨٣ هـ) وإبراهيم بن عبد العزيز ابن أبى محذورة وإبراهيم ابن محمد بن أبى يحيى (ت ١٨٤ هـ) وإبراهيم بن هرم. وأسامة بن زيد بن أسلم. وإسحاق بن يوسف الأزرق (١٩٥ هـ) وإسماعيل ابن ابراهيم بن مقسم (ت ١٩٣ هـ) وإسماعيل بن جعفر بن أبى كثير (ت ١٨٠ هـ) وإسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين (ت ١٩٠ هـ) وأنس بن عياض (ت ٢٠٠ هـ) وأيوب بن سويد الرملى (ت ١٨٢ هـ) وجعفر بن إبراهيم الطائى وحاتم ابن اسماعيل المدنى (ت ١٨٦ هـ) والحارث بن عمير البصرى. والحرب بن ابراهيم، وحسن الأثلغ، وحماد بن أسامة (ت ٢٠١ هـ) وحماد بن زيد البصرى (ت ١٩٧ هـ) وحماد بن ظريف وداود بن عبد الرحمن العطار (ت ١٧٥ هـ) وسعيد ابن صالح القداح وسعيد بن سلمة بن أبى الحسام. وسعيد بن مسلمة الأموى. وسفيان بن عيينة وسليمان بن عمرو. وسماك بن الفضل الجندى. والضحاك بن عثمان الخزامى وعباد بن العوام (ت ١٨٥ هـ) وعبد الله بن إدريس الأودى (ت ١٩٢ هـ) وعبد الله بن الحارث المكى وعبد الله بن موسى التيمى. وعبد الله بن نافع الصائغ (ت ٢٠٦ هـ) وعبد الرحمن بن ذكوان (ت ١٧٤ هـ) وعبد العزيز ابن محمد الدراوردي (ت ١٨٩ هـ) وعمرو بن حبيب (ت ٢٠٩ هـ) والقاسم ابن عبد الله بن عمر العمرى ومالك بن أنس ومحمد بن الحسن الشيبانى (ت

١٨٩ هـ) ومسلم بن خالد الزنجي ومطرف بن مازن الصنعاني وهشام بن يونس الصنعاني (ت ١٩٧ هـ) ووكيعة بن الجراح (ت ١٩٦ هـ) ويحيى بن سعيد القطان ويحيى بن سالم المكي (ت ١٩٣ هـ) ويوسف بن يعقوب ابن الماجشون .
فهؤلاء وغيرهم سمع منهم الإمام الشافعي ونقل عنهم بمكة والمدينة واليمن والعراق ومصر .

● تلاميذ الشافعي :

يقول الإمام داود بن علي بن خلف الأصبهاني (٢٠١ - ٢٧٠ هـ) أحد الأئمة المجتهدين الذين يأخذون بظاهر نص الكتاب والسنة ويعرضون عن التأويل والرأي والقياس وقد عاش وتوفي ببغداد يذكر الإمام الشافعي رضي الله عنه :
(ومن فضائله ما اتفق له من الأصحاب ولم يتفق لأحد من العلماء والفقهاء ما اتفق له من ذلك وأشهرهم : الحميدى . والكرابيسى وأبو ثور والزعفرانى والبويطى والمزنى وقد جمع ابن النديم فى الفهرست أسماء من روى عن الشافعي وأخذ عنه ، منهم :

الربيع بن سليمان المرادى ويكنى : أبا سليمان . كان مؤذنا بمصر . روى عن الشافعي كتب الأصول ٣٧٠ هـ - إنه راوية الشافعي حقيقة - وأبو الحسن بن محمد بن الصباح الزعفرانى وروى «المبسوط» عن الشافعي . على ترتيب ما رواه الربيع (ت ٢٦٠ هـ) .

وأبو ثور : ابراهيم بن خالد بن اليمان الفقيه . أخذ عن الشافعي وروى عنه . وخالفه فى أشياء وأحدث لنفسه مذهباً اشتقه من مذهب الشافعي (ت ٢٤٠ هـ) .

أحمد بن حجاج المروزى : من شيوخ البخارى .

أحمد بن خالد الخلال البغدادى : وهو من شيوخ الترمذى والنسائى .

أحمد بن سعيد بن بشير الهمداني : وهو من شيوخ أبى داود .

أحمد بن سنان القطانى : حافظ وهو من شيوخ البخارى ومسلم وأبى

داود .

أحمد بن صباح الرازي : وهو من شيوخ البخاري وأبي داود .

أحمد بن عبد الله المكي المقرئ المعروف بقنبل .

أحمد بن محمد بن حنبل : صاحب المذهب الحنبلي وأحد أئمة المحدثين . أحمد بن محمد بن الوليد الأزرقى المكي وهو من شيوخ البخاري وإليه أوصى الشافعى .

ابراهيم بن محمد بن العباس بن محمد بن علي الشافعى : وهو من شيوخ ابن ماجة .

إسحاق بن ابراهيم بن مخلد المروزي : أحد الأئمة المعروف بابن راهويه . اسماعيل بن يحيى أبو ابراهيم المزنى : الإمام المشهور ومن حملة الفقه الشافعى .

أشهب بن عبد العزيز المصرى : صاحب الإمام مالك .

بحر بن نصر بن سابق الخولانى المصرى من شيوخ النسائى .

الحارث بن سريج النقال : أحد حملة الفقه عن الشافعى .

حامد بن يحيى البلخى وهو من شيوخ أبى داود .

حرملة بن يحيى التجيبى المصرى : أحد حملة الفقه الجديد عنه وهو من شيوخ مسلم ، الحسن بن الربيع من شيوخ ابن ماجة .

الحسن بن عبد العزيز الجروى المصرى وهو من شيوخ البخاري .

الحسن بن عثمان الزيادى وهو الإخبارى المشهور .

الحسن بن على الخلال الخولانى : أحد الحفاظ ومن شيوخ البخاري ومسلم والترمذى وابن ماجة .

الحسين بن على الكرابيسى : أحد الأئمة فى الفقه والحديث .

خالد بن نزار الإيلى وهو محدث مشهور أخرج له النسائى وأبو داود .

سعيد بن الجهم بن نافع أبو عثمان : وهو أحد أوصياء الشافعى .

سفيان بن عيينه الهلالى الكوفى المكى أحد الأئمة أخذ منه الشافعى وأخذ عن الشافعى .

أبو أيوب البغدادى : أحد الفقهاء الأئمة وهو من شيوخ البخارى .
أبو حاتم السجستانى : أحد الأئمة فى العربية وهو من شيوخ أبى داود والنسائى .

عبد الرحمن بن مهدي البصرى : أحد أئمة الحديث الكبار .
عبد العزيز بن يحيى المكى : صاحب الشافعى ورفيقه فى رحلته إلى اليمن .
عبد الملك بن عبد العزيز الماجشون : الفقيه المالكى المشهور .
عبد الله بن هشام المصرى النحوى المشهور : صاحب تهذيب السيرة النبوية المسمى (سيرة ابن هشام) .

على بن عبد الله بن جعفر المدينى : وهو من شيوخ البخارى .
عمرو بن أبى سلمة التنيسى : وهو محدث مشهور روى له السنة .
الفضل بن الربيع : وهو الوزير العباسى المشهور .
قتيبة بن سعيد البلخى : وهو من شيوخ الأئمة الخمسة .
قحزم بن عبد الله بن قحزم الأسوانى : حمل الفقه عنه وآخر من صحب الشافعى موتا .

محمد بن أبى بكر المقدمى : محدث مشهور ومن شيوخ البخارى ومسلم .
مسلم بن خالد الزنجى : الفقيه المكى المشهور سمع منه الشافعى وسمع من الشافعى .

موسى بن أبى الجارود المكى : وهو من رواة الفقه القديم ومن شيوخ الترمذى .

يوسف بن يحيى أبو يعقوب البويطى : الإمام المشهور وأحد رواة الفقه وأكبرهم قدرا عينه الشافعى خلفا له .

الربيع بن سليمان الجيزى : من رواة الجديد .

وقد ترجم لهؤلاء جميعا وغيرهم الإمام السبكى فى طبقات الشافعية .

الفصل الثالث

الإمام المجدد

(اللهم اهدي قريشا فإن عالمها يملأ طباق الأرض علما) [رواه أحمد]

● صفاته ومواهبه :

كان الإمام الشافعي رضي الله عنه يتحلى بجميل الصفات وحميد الأفعال كان متواضعا في عظمة كريما في سخاء رغم حاجته حلينا في أدب جم . كما كان صادقا أمينا وفيا رقيقا في عزة وكرامة محبا للناس ودودا لطيفا . عالما مجددا عابدا زاهدا محبوبا من الناس العلماء والعامة لأنه كان كما وصفه حبيبه وتلميذه النجيب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه :

(كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للناس) .

ويصفه ابن الصلاح رحمه الله تعالى فيقول :

كان رضي الله عنه طويلا سائلا الخدين قليل لحم الوجه طويل العنق طويل القصب . أسمر خفيف العارضين يخضب لحيته بالحناء حمراء قانية حسن الصوت حسن السميت عظيم العقل حسن الوجه حسن الخلق فصيحاً من أذرب الناس لسانا إذا خرج لسانه بلغ أنفه وكان مسقاما ممنوا بالبواسير .

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله تعالى :

قد كان الشافعي قوى المدارك . كان حاضر البديهة تنثال عليه المعاني انثيالا في وقت الحاجة إليها . وكان يلقي على الدروس ضوعا من تفكيره فتتضح بين يديه الحقائق ويستقيم منطقها وكان عميق الفكرة وكان بعيد المدى في الفهم لا يقف عند حد حتى يصل إلى الحق كاملا . وكانت نتيجة اتجاهه إلى الكليات أن وضع أصول الفقه . فكان في أصول الفقه كإرسطو في المنطق . وكان الشافعي قوى التأثير وقوى البنيان واضح التعبير وأوتي مع فصاحة لسانه وبلاغة بيانه صوتا عميق التأثير يعبر بنبراته كما يوضح بعباراته ، ولعمق تأثير صوته كان إذا أقرأ

القرآن وجاهر بقراءته أبكى سامعيه . وكان الشافعي نافذ البصيرة قوى الفراسة بصيرا بنفوس الرجال وما تطبيقه مداركهم وقال ابن أبي الجارود رحمه الله تعالى :
ما رأيت أحدا إلا وكتبه أكبر من شاهدته إلا الشافعي فإن لسانه أكبر من كتبه وقد بلغ من إجادته القول أن سماه معاصروه « خطيب العلماء » .

● عوامل تكوين شخصيته :

لقد تأثر الإمام الشافعي رضي الله عنه ببيئته وأثر فيها . وهذه طبيعة الإنسان الصالح فإنه دائما إيجابى ينفعل بما حوله ويتفاعل مع مجتمعه . وترجع أهم العوامل التى شكلت شخصيته الإمام إلى العوامل التالية :

١ - أمه :

قالوا : إن وراء كل عظيم امرأة ، لقد كانت أم الإمام الشافعي امرأة فاضلة كما كانت امرأة على وعى وإدراك كامل بكل متطلبات الحياة . ذات خلق فاضل وسلوك قويم ودين صحيح ذات فصاحة وبلاغة رشيدة ولا عجب فى هذا ولا غرابة فهى من خير بيوتات العرب ومن أطيب سلالات المسلمين إنها من ذرية الخليفة المظلوم الذى كانت تستحى منه الملائكة إنه ذو النورين سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه كانت هذه الأم الفاضلة تربي ولدها على الفضيلة وتحثه على طلب العلم والحكمة وتشجعه وتمده بالنصائح النافعة كانت له أما وأبا بعد موت أبيه فهى رغم عوزها وحاجتها أرسلته إلى معلم القرآن لحفظه ثم وجهته لطلب العلم على أجل شيوخه وخيرة العلماء .

إنها بذلك قد وجهته وشحذت همته لطلب المعالى وبلوغ أرقى الدرجات وأرفعها فكان الشافعي كما أحببت أمه وتمنت .

٢ - النسب الرفيع :

كان لنسبه الرفيع أثره البالغ فى تكوين شخصيته فهو مطلبى قرشى أبا وأموى قرشى أما . وهذا نسب شريف له مطلبه العالى فى طلب نيل المعالى . ولا يخفى علينا أن لهذا النسب أثره فى دفع الهمة فى طلب العلم وتحصيل المعارف .

٣ - النشأة الفقيرة :

إن النشأة الفقيرة مع النسب الرفيع تجعل الناشئ على خلق كريم ومسلك قويم إن أنتفت الموانع ولم يكن ثمت شذوذ .

٤ - لقد تتلمذ الشافعي على خيرة علماء عصره فوق أنه قد قضى تسع سنوات في البادية حصل فيها أشعار هذيل وآدابها وأدبها .

٥ - لقد ظهر الشافعي في عصر كثر فيه الجدل واشتد فيه التنافس بين العلماء واتسعت فيه دائرة البحث العلمي فتعددت العلوم وتنوعت الدراسات وكثرت الأبحاث وقد ضم هذا العصر فحول العلماء وأذكى الطلاب .

٦ - رحلاته الكثيرة :

لقد طاف الشافعي ببلاد الحجاز والعراق واليمن ومصر فاطلع على أحوال المسلمين والتقى بالعلماء والأئمة في هذه البلاد من الفقهاء والمحدثين وغيرهم ولا يخفى علينا ما لذلك من فائدة طيبة في تحصيل العلوم والمعارف .

● منهجه العلمي :

أذن للشافعي شيوخه بالاجتهاد والفتوى فشمر عن ساعد الجد وأخذ يدرس ويبحث وينقب ويناقش حتى أفرز ثروة علمية ضخمة .

وقد اعتمد على المنهج العلمي التالي :

١ - الاعتماد على الكتاب والسنة :

لقد كان يستدل بظاهر الآيات والأحاديث ما لم يقم دليل على أن المراد غير الظاهر . ولذلك كان يستخدم السنة للمساعدة في الوقوف على حقيقة الحكم الوارد في كتاب الله عز وجل . وتوسع في استخدام السنة أكثر من سبقوه لإيمانه بأنها هي التطبيق العملي للقرآن الكريم لأنها أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله وتقريراته وسائر أحواله .

وكان يلحق بهما ما ورد من آثار وأقضية الصحابة والتابعين .

٢ - الأخذ بالإجماع وبالقياس . بشرط أن لا يكون ذلك مخالفاً للقرآن

الكريم والسنة الشريفة . ولكن كان يأخذ بكل منهما شريطة أن يكون لذلك أصل من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ ولذا رفض القول بالاستحسان وقال : من استحسن فقد شرع .

٣ - عدم الجمود أو التعصب .

يقول رضى الله عنه : (مهما قلت من قول أو أصلت من أصل فيه عن رسول الله ﷺ غير ما قلت فالحقول ما قال رسول الله وهو قولى) .

وقال : (إذا صح الحديث فهو مذهبي) .

وقال أيضا : (قولى صواب يحتمل الخطأ وقول غيرى خطأ يحتمل الصواب) وقال : (إذا عارض الحديث مذهبى . فخذوا بالحديث واضربوا بمذهبى عرض الحائط) .

فالإمام الشافعى عالم بحر فى علمه ومعارفه . والعالم لا يتعصب لرأى ولا يجمد عند قول . لأن الجمود والتعصب لا يقعان إلا من جاهل أو غافل أو كان قليل العلم فاقد الأهلية قليل الخبرة فاقد الفكرة .

٣ - وكان رضى الله عنه لا يأخذ برأى غيره إلا إذا تحقق أن رأى غيره أقوى حجة وأصح استدلالا . وكان لا يجمال فى قول الحق ويتجلى ذلك فى موقفه الذى أعلنه فى جرأة وعلانية عندما بلغه أن بعض تلاميذ الإمام مالك وأتباعه كانوا يقدسون قلنسوته ويتبركون بها فرفض هذا ووجه نقدا لفقهاء الإمام مالك فى كتابه « اختلاف مالك » معلنا بذلك أن مالك بشر كسائر البشر يخطئ ويصيب والعصمة لرسول الله ﷺ وحده ، والإمام مالك هو القائل (كل يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر ﷺ) .

٤ - توظيف العقل فى البحث العلمى :

فالعقل هو تلك الجوهرة التى جعلها الله تعالى مناط التكليف للإنسان فمن لا عقل له لا دين له .

ولذلك رفع الإسلام شأن العقل ومجده ، وجعل له دورا أصليا وفاعلا فى

التثبت من صحة النص وفهمه لاستنباط ما يتضمنه النص من أحكام وتوجيهات .

ولذلك أخذ الإمام الشافعي يعمل عقله وملكات تفكيره في تحصيل العلوم والمعارف وفي بثها ونشرها تأليفا وتصنيفا وتدريسا ما دام ذلك في حدود النص بما لا يخرج عن الأصول والقواعد الشرعية الثابتة .

أى أن لم يستخدم العقل مجردا وإنما كان يعصمه بالنص – قرآنا وسنة – لذلك فهو يرفض القول بالرأى في دين الله تعالى . لأن الرأى الذى لا يستند إلى نص هو – فى نظر الشافعي – تشريع بغير ما أنزل الله تعالى .

يقول رضى الله عنه : (إذا ذكرت لكم دليلا فلم تقبلها عقولكم فلا تقبلوها فإن العقل مضطر إلى قبول الحق) .

فهذه الأمور هى أهم ما كان الإمام الشافعي رضى الله عنه يتميز به فى بحثه وفحصه ودراسته لقضايا ومسائل الفقه والتشريع والعقيدة .

لذا كان مذهبه الفقهي منضبطا ووسطا بين مذاهب أهل السنة لذلك كثر أتباعه وانتشر مذهبه فى ربوع العالم الإسلامى منذ ظهوره إلى يومنا هذا .

وعلى هذا المنهج كانت المسيرة العلمية المباركة لإمامنا الشافعي رضى الله عنه فى مجال العلوم الشرعية المختلفة :

– القرآن الكريم وعلومه .

– السنة النبوية الشريفة وعلم مصطلح الحديث .

– علم العقيدة (أصول الدين) .

– علم أصول الفقه .

– علم الفقه والتشريع الإسلامى .

– علم التصوف .

– اللغة العربية وآدابها .

* * *

العلم وأنواعه عند الإمام الشافعي

العلم كما عرفه العلماء: هو إدراك المعلوم على ما هو به.

وهو نوعان: علم تعلمه فرض عين وهو ما يجب على كل مسلم ومسلمة أن يحصلوه، وعلم تعلمه فرض كفاية. وهو ما يجب تعلمه على بعض المسلمين.

وقد بين هذا الموضع الإمام الشافعي رضي الله عنه في كتابه «الرسالة» وأفرد له بابا خاصا. قال المرحوم الأستاذ أحمد محمد شاكر في تعليقه على الكتاب المذكور^(١): (وهذا الباب بدء أبحاث جديدة في الكتاب هي في الحقيقة أصول العلم وأصول الحديث. وأصول الفقه في الدين وهي التي لا يكتبها بمثل هذه القوة إلا الشافعي) لذلك فيني أوثر أن أنقل كلام سيدنا الإمام الشافعي بلفظه زيادة في الفائدة: قال الإمام رحمه الله تعالى: فقال لي قائل: ما العلم؟ وما يجب على الناس في العلم؟ فقلت له: العلم علمان: علم عامة لا يسع بالغا غير مغلوب على عقله جهله قال: ومثل ماذا؟.

قلت: مثل: الصلوات الخمس. وأن على الناس صوم شهر رمضان. وحج البيت إذا استطاعوه وزكاة في أموالهم. وأنه حرم عليهم الزنا والقتل والسرقة والخمر. وما كان في معنى هذا مما كلف العباد أن يعقلوه ويعملوه ويعطوه من أنفسهم وأموالهم. وأن يكفؤا عنه. ما حرم عليهم منه وهذا الصنف كله من العلم موجود نصا في كتاب الله. وموجودا^(٢) عاما عند أهل الإسلام ينقله عوامهم عن من مضى من عوامهم يحكونه عن رسول الله - ﷺ - ولا يتنازعون في حكايته ولا وجوبه عليهم.

وهذا العلم العام الذي لا يمكن فيه الغلط من الخبر ولا التأويل ولا يجوز فيه التنازع.

قال: فما الوجه الثاني؟.

(١) الرسالة من ص ٣٥٧ - ٣٦٩ ط العلمية.

(٢) مفعولا لفعل محذوف تقديره: وتجده موجودا أو نراه موجودا.

قلت له : ما ينوب العباد من فروع الفرائض . وما يُخص به من الأحكام وغيرها . مما ليس فيه نص كتاب . ولا في أكثره نص سنة . وإن كانت في شيء منه سنة فإنما هي من أخبار الخاصة لا أخبار العامة . وما كان منه يحتمل التأويل ويستدرك قياسا .

قال : فيعدو هذا أن يكون واجبا وجوب العلم قبله . أو موضوعا عن الناس علمه حتى يكون من علمه مُنتفلا .

ومن ترك علمه غير آثم بتركه ؟ أو من وجه ثالث . فتوجدناه خبرا أو قياسا ؟ قلت له : بل هو من وجه ثالث .

قال : فصفه واذكر الحجة فيه . ما يلزم منه . ومن يلزم . وعن من يسقط ؟ . فقلت له : هذه درجة من العلم ليس تبلغها العامة ولم يُكَلَّفها كل الخاصة ومن احتمل بلوغها من الخاصة فلا يسعهم كلهم كافة أن يُعطلوها . وإذا قام بها من خاصتهم من فيه الكفاية لم يَحْرَج غيره ممن تركها إن شاء الله والفضل فيها لمن قام بها على من عطلها .

قال : فأوجدني هذا خبرا أو شيئا في معناه ليكون هذا قياسا عليه ؟ .

فقلت له : فرض الله الجهاد في كتابه وعلى لسان نبيه . ثم أكد النفير من الجهاد فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١١١] .

وقال : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٣٦] .

وقال : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِنَّا تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة : ٥] . . . وقال : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا

يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ [التوبة: ٢٩].

أخبرنا عبد العزيز بن محمد الدراوردي - عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة - بن عبد الرحمن - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (لا أزال أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله) (١).

وقال الله جل ثناؤه: ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة: ٣٨، ٣٩].

وقال: ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١].

قال - الشافعي - : فاحتملت الآيات أن يكون الجهاد كله والنفير خاصة منه : على كل مطيق له ، لا يسع أحد منهم التخلف عنه : كما كانت الصلوات والحج والزكاة فلم يخرج أحد وجب عليه فرض منها من أن يؤدي غيره الفرض عن نفسه لأن عمل أحد في هذا لا يكتب لغيره .

واحتملت أن يكون معنى فرضها غير معنى فرض الصلوات : وذلك أن يكون قصد بالفرض فيها قصد الكفاية فيكون من قام بالكفاية في جهاد من جُوهِد من المشركين مدركا تأدية الفرض ونافلة الفضل ومخرجا من تخلف من المأثم .

ولم يسوى الله بينهما فقال الله : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ

(١) رواه أصحاب الكتب الستة وبالألفاظ متقاربة وبأسانيد كثيرة .

بَأْمَوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ
الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿[النساء: ٩٥].

فأما الظاهر فى الآيات فالفرض على العامة (١).

قال : فاین الدلالة فى أنه إذ أقام بعض العامة بالكفاية أخرج المتخلفين من
المأثم؟ فقلت له : فى هذه الآية .

قال : وأین هو منها؟ .

قلت : قال الله : ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ فوعده المتخلفين عن الجهاد
الحسنى على الإيمان . وأبان فضيلة المجاهدين على القاعدین ولو كانوا آثمين
بالتخلف إذا غزا غيرهم - كانت العقوبة بالإثم - إن لم يعفو الله - أولى بهم من
الحسنى قال : فهل تجد فى هذا غير هذا؟ .

قلت : نعم . قال الله : ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ
فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ
يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وغزا رسول الله ﷺ - وغزى معه من أصحابه جماعة وخلف أخرى حتى
تخلف على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - فى غزوة تبوك وأخبرنا الله أن
المسلمين لم يكونوا لينفروا كافة ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ فأخبر أن
النفير على بعضهم دون بعض وأن التفقه إنما هو على بعضهم دون بعض .

وكذلك ما عدا الفرض فى عظم الفرائض التى لا يسع جهلها والله أعلم
وهكذا كل ما كان الفرض فيه مقصودا به قصد الكفاية فيما ينوب فإذا أقام به
من المسلمين من فيه الكفاية خرج من خلف عنه من المأثم .

ولو ضيعوه معا خفت أن لا يخرج واحد منهم مطبق فيه من المأثم . بل لا

(١) هذه الجملة من كلام الشافعى يريد أن ظاهر الآيات فى الأمر بالقتال أنه فرض عين . ثم
هو يريد أن يشرح ما دعاه إلى القول بغير ظاهرها فى صورة السؤال والجواب . أحمد شاكر هامش
ص ٣٦٤ .

أشك إن شاء الله لقوله ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة: ٣٩] قال: فما معناها؟

قلت: الدلالة عليها أن تخلفهم عن النفير كافة لا يسعهم. ونفير بعضهم - إذا كانت في نفير كفاية - يُخرج من تخلف من المأثم. إن شاء الله لأنه إذا نفر بعضهم وقع عليهم اسم «النفير».

قال: ومثل ماذا سوى الجهاد؟

قلت: الصلاة على الجنازة ودفنها. لا يحل تركها. ولا يجب على كل من بحضرتها كلهم حضورها ويخرج من تخلف من المأثم من قام بكفايتها. وهكذا رد السلام. قال الله: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦].

وقال رسول الله - ﷺ - : (يسلم القائم على القاعد)، و: (إذا سلم من القوم واحد أجزأ عنهم) (١).

وإنما أريد بهذا الرد. فرد القليل جامع لاسم «الرد» والكفاية فيه مانع لأن يكون الرد معطلا.

ولم يزل المسلمون على ما وصفت منذ بعث الله نبيه - فيما بلغنا - إلى اليوم يتفقهم أقلهم ويشهد الجنائز بعضهم. ويجاهد ويرد السلام بعضهم ويتخلف عن ذلك غيرهم، فيعرفون الفضل لمن قام بالفقه والجهاد وحضور الجنائز ورد السلام. ولا يؤثمون من قصر عن ذلك. إذا كان بهذا قائمون. ١. هـ.

* * *

(١) الحديثان روي في الصحيحين وفي الموطأ بالفاظ متقاربة.

علم الشافعي بكتاب الله عز وجل

القرآن الكريم : هو ذلك اللفظ المنزل على سيدنا محمد ﷺ بلفظه ومعناه المعجز في لفظه ومعناه المتعبد بتلاوته المحفوظ بين دفتي المصحف . بهذا عرفه علماء الفقه وأصوله .

إنه معجز للعرب في نظمه اللفظي وبيانه . ومعجز لغير العرب في شرائعه وأحكامه . تعهد الله عز وجل بحفظه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ . وكلف نبيه ﷺ ببيانه وتعريف الناس بأحكامه قال الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ .

لقد كان للإمام الشافعي رضي الله عنه إهتمام كبير بكتاب الله عز وجل وعناية فائقة قل ما تجد ذلك عند غيره من الأئمة والعلماء .

قال رضي الله عنه : (قرأت القرآن على : إسماعيل بن قسطنطين ، وكان شيخ أهل مكة في زمانه) .

وقال : (قرأت القرآن على شبل بن عباد ومعروف بن مشكان . وقالوا : قرأنا على عبد الله بن كثير وقال : قرأت على مجاهد . وقال : قرأت على ابن عباس - رضي الله عنهما - وقال : قرأت على أبي بن كعب . وقال : قرأت على رسول الله ﷺ .

قال الشافعي (رضي الله عنه) : وكان إسماعيل يقول : (القرآن اسم وليس بمهموز) قال : (ولم يؤخذ من قرأت ، ولو أخذ من قرأت . لكان كل ما قرئ قرآنا . ولكنه اسم للقرآن مثل : التوراة والإنجيل) وكان يقول : (إذا قرأت القرآن اهمز قرأت ولا تهمز القرآن) (١) .

وروى حرملة بن يحيى : أن الشافعي كان يقرئ الناس في المسجد الحرام وهو ابن ثلاث عشرة سنة .

(١) مناقب الإمام الشافعي للرازي : ١٧٣ .

وعن الربيع: أن الشافعي كان يختم القرآن في كل شهر ثلاثين ختمة وفي شهر رمضان ستين ختمة ختمة بالليل وختمة بالنهار. وقد روى مثل ذلك عن أبي حنيفة النعمان فقد روى عن أبي يوسف: كان أبو حنيفة يختم القرآن في كل ليلة في ركعة، وروى يحيى الحمانى عن أبيه أنه قال: صحبت أبا حنيفة ستة أشهر فما رأيته صلى الغداة إلا بوضوء العشاء الآخر وكان يختم القرآن كل ليلة عند السحر^(١). أ. ه.

وعن يحيى بن نصر قال: كنا إذا أردنا أن نبكى قال بعضنا لبعض: قوموا بنا إلى هذا الفتى المطلبى بقرأ القرآن فإذا أتيناه استفتح القراءة حتى نتساقط بين يديه من كثرة البكاء فإذا رأى ذلك أمسك عن القراءة.

وروى المزني عن الشافعي أنه قال: (من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن نظر في الفقه نبل قدره. ومن كتب الحديث قويت حجته ومن نظر في اللغة رق طبعه ومن نظر في الحساب جزل رأيه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه).

لقد حفظ الإمام الشافعي رضي الله عنه القرآن في صفر سنة حفظا جيدا. ثم تعلم تجويده وكيفية قراءته قراءة صحيحة مرتلة (ورتل القرآن ترتيلا).

ثم درس علومه وأحكامه فتعلم أسباب نزوله وناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه وتعرف على علاقة القرآن بالسنة وعلاقتها به وكيف أنهما متلازمان لا يفترقان.

وقد مكّنه الله عز وجل من دراسة علوم اللغة العربية وآدابها وتفوق في ذلك حتى سبق فيها علماءها. فاجتمع عنده مفاتيح فهم القرآن وتفسيره وتقرير أحكامه وتبيين آدابه فكان في علم التفسير على درجة أهله إن لم يكن متفوقا عليهم رضي الله عنه.

قال يونس بن عبد الأعلى: كان الشافعي إذا أخذ في التفسير فكأنه شهد التنزيل. وكان رضي الله عنه يقول: نظرت بين دفتي المصحف فعرفت مراد الله من

(١) مناقب أبي حنيفة للذهبي.

جميع ما فيه إلا حرفين. قال الراوى : نسيت أحدهما. والثانى : قوله تعالى ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : ١٠]. قال الشافعى : إني لم أجده فى كلام العرب. ثم قرأت لمقاتل بن سليمان : أنه لغة السودان. قال : (دساها) أغواها.

وقال الفخر الرازى فى مناقب الإمام الشافعى رضى الله عنه :

واعلم أن من طالع - التفسير الكبير - الذى صنفناه ووقف على كيفية استنباطنا للمسائل على وفق مذهب الشافعى من كتاب الله تعالى. علم أن الشافعى كان بحراً لا ساحل له فى هذا العلم ونحن نذكر على سبيل المثال آيات ونقرر فيها مذهبه، وقوله :

الآية الأولى : قال الشافعى فى قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ [البقرة : ١٧٣] معناه : من كان مضطراً ولا يكون موصوفاً بصفة البغى ولا بصفة العدوان البتة فأكل (فلا إثم عليه) فخصص البغى والعدوان بالآكل وغيره .

وقال أبو حنيفة : فمن اضطر فأكل غير باغ ولا عاد فى الأكل (فلا إثم عليه) فخصص البغى والعدوان بالآكل. ويتفرع على هذا الاختلاف أن العاصى بسفره هل يترخص أم لا ؟ فقال الشافعى : لا يترخص لأنه متعدي. وقال أبو حنيفة . بل يترخص لأنه مضطر. وغير باغ ولا عاد فى الأكل والله أعلم.

قال الرازى : واحتج الشافعى على قوله : بالنص والمعقول .

أما النص : فهو أنه تعالى قال : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ ﴾ [البقرة : ١٧٣] فحرمها على الكل. ثم أباحها للمضطر الذى يكون موصوفاً بأنه غير باغ ولا عاد والعاصى بسفره لا يصدق عليه أنه غير باغ ولا عاد. فلا يدخل تحت هذه الرخصة. وإنما قلنا : إنه لا يصدق عليه أنه غير باغ ولا عاد لأن قوله تعالى ﴿ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ يفيد نفى ماهية البغى وماهية العدوان ويلزم من انتفاء الماهية. انتفاء جميع أفراد الماهية. فقوله تعالى : ﴿ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ لا يصدق إلا إذا انتفى البغى والعدوان من جميع الوجوه. والعاصى بسفره متعدد بذلك السفر فوجب أن لا يصدق عليه أنه غير باغ ولا عاد فلا يدخل تحت هذه الرخصة فوجب أن يبقى تحت النص الموجب للتحريم. ١٠. هـ .

ثم قال الفخر الرازى فى التفسير وفى المناقب :

(واعلم أن القاضى عبد الجبار بن أحمد نقل فى كتاب (فوائد القرآن) ونقل أبو بكر الرازى فى كتاب «أحكام القرآن» كلاهما عن الشافعى أنه قال فى تفسير قوله عز وجل : ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أى غير باغ : على إمام المسلمين . ولا عاد : فى الأكل . أولى مما ذكره الشافعى . لأن قوله تعالى : ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ شرط ، والشرط بمنزلة الاستثناء فى أنه لا يستقل بنفسه فلا بد من تعلقه بمذكور ، وقد علمنا أنه لا مذكور إلا الأكل لأن معنى الآية : ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ فأكل ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ فلا إثم عليه . وإن كان كذلك وجب أن يكون قوله ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ متعلقا بالأكل . الذى هو فى حكم المذكور دون السفر الذى هو غير مذكور البتة) .

ثم يقول الفخر الرازى رحمه الله تعالى : واعلم : أن هذا السؤال ضعيف . وذلك لأننا بينا أن قوله تعالى : ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ يفيد نفى ماهية البغى ونفى ماهية العدوان وإذا انتفت الماهية فقد انتفى جميع أفرادها . فقوله تعالى : ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ لا يدل على نفى العدوان بالسفر على التعيين . ولكنه يدل على نفى العدوان وذلك يدخل فيه نفى العدوان بالسفر ويدخل فيه نفى سائر العدوانات فظهر أن القوم ما فهموا مقصود الإمام الشافعى ، والله أعلم .

ثم الذى يدل على أنه لا يجوز صرف قوله : ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ إلى :

(أ) إن قوله تعالى : ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ حال من الاضطرار . فلا بد وأن يكون وصف الاضطرار باقيا . مع كونه غير باغ ولا عاد ولو كان المراد بكونه غير باغ ولا عاد . كونه كذلك فى الأكل استحالة أن يبقى وصف الاضطرار معه لأن حال الأكل الكثير لا يبقى وصف الاضطرار .

(ب) إن الإنسان نفور بطبعه عن تناول الميتة والدم وما كان كذلك لم يكن فيه حاجة إلى النهى فصرف هذا الشرط إلى التعدى فى الأكل يخرج الكلام عن الفائدة .

(ج) إن الوجه الذى ذكره الشافعى فى تأويل هذه الآية متايد بآية أخرى

وهي قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣] فبين في هذه الآية : أن المضطر إنما يترخص إذا لم يكن متجانفا لإثم وهو الذي قلناه من أن الآية تقتضي أن لا يكون الرجل موصوفا بالبغى والعدوان في أمر من الأمور .

ثم يقول الفخر الرازي رحمه الله تعالى : واحتج أصحاب أبي حنيفة على صحة تأويل أبي حنيفة بوجه :

(أ) إنه تعالى قال في آية أخرى ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرُّتُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الأنعام: ١١٩] والعاصي بسفره مضطر فوجب أن يترخص .
(ب) قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥] والامتناع من الأكل سعى في قتل النفس وفي إلقيائها إلى التهلكة . فوجب أن يحرم .

(ج) روى أنه - عليه السلام - رخص للمقيم يوما وليلة وللمسافر ثلاثة أيام ولياليهن ولم يفرق بين العاصي بسفره والمطيع .

(د) إن العاصي بسفره إذا كان نائما فأشرف على غرق أو حرق . يجب على الحاضر الذي يكون في الصلاة أن يقطع صلاته لإنجائه من الغرق والحرق . فلأن يجب عليه أن يسعى في اتقاء نفسه من الهلاك كان أولى .

ثم نقول : قوله تعالى ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ يدل على أن من لم يكن باغيا ولا عاديا فلا إثم عليه . وهذا لا يدل على أنه إن كان باغيا وعاديا فهو آثم إلا بسبب دليل الخطاب وإنه عند أبي حنيفة ليس بحجة .

والجواب : إنا بينا بالدلائل الكثيرة . أن الوجه الذي ذكره الشافعي في تأويل هذه الآية هو الصحيح . والذي ذكره غيره ضعيف . ومقصودنا في هذا المقام : أن نظر الشافعي في علم النفس ، كان أكمل من نظر غيره . وقد حصل هذا

المقصود، وما ذكرتموه من الوجوه ليس شيئاً منها دليلاً على صحة التأويل الذى ذكره أبو حنيفة لهذه الآية. فحصل مقصودنا .

ثم نقول : دليلنا النافى لهذه الرخصة، أخص من دلائلكم المثبتة لهذه الرخصة فكان دليلنا راجحاً على ما ذكرتموه. وأيضاً الأصل فى الرخص عدم الشرعية وأما الوجوه القياسية فضعيفة لوجوه :

(أ) إن القياس فى مقابلة النص ليس بشئ وذلك لأن القياس بمقابلة النص ساقط .

(ب) إنه يمكن أن يترخص وذلك بأن يتوب عن ذلك السفر الذى هو معصية وذلك بأن يتوجه إلى سبب ثم يترخص .

(ج) إن تلك الأقيسة معارضة بقياس أقوى منها وهو أن الرخصة إعانة فلو أثبتنا الرخصة للعاصى بسفره لكان ذلك إعانة على المعصية وهو غير جائز لأن الإعانة سعى فى التحصيل والمعصية منهى عنها والنهى سعى فى العدم وبينهما تناقض، وأما قوله : إنه تمسك بدليل الخطاب فضعيف لأنه تعالى قال فى أول الآية : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ ﴾ وذلك يقتضى عموم التحريم . ثم أثبت الحل عند حصول شرط معين . وهو كونه مضطراً وخالياً عن البغى والعدوان فعند عدم هذا الشرط وجب أن يبقى على أصل التحريم . فثبت أن نظر الشافعى فى تفسير هذه الآية فى غاية الجلالة والقوة والله أعلم . أ . هـ .

الآية الثانية : قال الشافعى - رضى الله عنه - قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] إلى قوله ﴿ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ فأمرنا بالكتابة والإشهاد والرهن وظاهر الأمر للوجوب . ثم قال تعالى ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٣] فهذه الآية دلت على أن الأمر بالكتابة والشهود والرهن : أمر إرشاد لا أمر إيجاب لأن قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ ﴾ .

إباحة لمن يأمن بعضكم بعضاً فليدع الكتاب والشهود والرهن .

قال المصنف رحمه الله : ومن اللطائف المستنبطة من هذه الآية : أن شهادة العبد غير مقبولة لأنه تعالى قال : ﴿ وَلَا يَأْبَى الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دَعُوا ﴾ فامر كل من كان شهيدا بأن يترك الإباء، والعبد قد يجب عليه أن يأبى وحيث وجب عليه الإباء لزم قطعا أن لا يكون العبد شاهدا والله أعلم .. إلخ ما ذكره الفخر الرازي رحمه الله (١) وقد ورد في كتاب أحكام القرآن للبيهقي تفسير وتأويل الإمام الشافعي رضي الله عنه لآيات الأحكام نذكر منها على سبيل المثال (٢) :

روى عن المزني أنه قال : سئل الشافعي عن قول الله عز وجل ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : ١، ٢] .

قال : « معناه : ما تقدم من ذنب أبيك آدم وهبته لك . وما تأخر من ذنوب أمتك أدخلهم الجنة بشفاعتك » .

قال الشيخ رحمه الله : وهذا قول مستظرف والذي وضعه الشافعي في تصنيفه أصح الروايتين وأشبه بظاهر الرواية والله أعلم .

وروى عن إبراهيم بن حرب البغدادى قال : إن الشافعي رحمه الله سئل بمكة في الطواف عن قول الله عز وجل ﴿ إِن تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ [المائدة : ١١٨] قال : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم وتؤخر في آجالهم فتمن عليهم بالتوبة والمغفرة » .

وروى الربيع بن سليمان قال : سئل الشافعي عن قول الله عز وجل ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٥] قال : « الخوف : خوف العدو . والجوع : جوع شهر رمضان . ونقص من الأموال : الزكوات والأنفس : الأمراض . والثمرات : الصدقات . وبشر الصابرين على آدائها » .

وقد أضاف الإمام الشافعي إلى علمه بتفسير القرآن وتأويله . العلم أيضا

(١) مناقب الإمام الشافعي ١٧٥ - ١٨١ .

(٢) راجع كتاب أحكام القرآن للشافعي تأليف البيهقي بجزئيه .

بتجويده ومعرفة أوجه القراءات فيه . مما يدل على سعة علمه بالقرآن الكريم ينطق بذلك كتبه العديدة ومصنفاته العظيمة . وقد جمع ذلك كله من كتبه الإمام البيهقي في كتابه القيم (أحكام القرآن للشافعي) ويروى أن الإمام الشافعي رضي الله عنه له كتاب يسمى : (أحكام القرآن) كتبه بنفسه ضمن كتبه القديمة ويبدو أنه قد اندرس وضاع .

وعلى كل حال : إن الإمام الشافعي رضي الله عنه قد بين لنا أحكام القرآن وبثها في كتبه فبين لنا فيها حلاله وحرامه وأوامره ونواهيه وفرائضه ومندوباته فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

* * *

معركة السنة

لقد واجهت السنة الشريفة أشرس المعارك قديماً وحديثاً. والأمر جد خطير لموقع السنة من شريعة الإسلام فهي المصدر الثاني للشريعة الإسلامية فلقد قامت في الماضي حركات ردة ضد السنة. ما بين رفضها كلية أو رفض بعضها كالسنة القولية أو أحاديث الآحاد من أتباع ابن سبأ أو من الخوارج وطوائف المبتدعة من الزنادقة والوضاعين. وقد كسرت أقلام هؤلاء وأولئك وخرست آلسنتهم على يد الفارس المغوار الإمام الشافعي رضي الله عنه ومن شايعه وشد من أثره من العلماء الأعلام.

وفي عصرنا تواجه السنة حرباً شرسة من نوع جديد وبأساليب مختلفة فمن رافض لها كلا أو بعضها وآخر لا يقبل منها مالا يوافق هواه ورأيه من بعض الاتجاهات المتطرفة الذين فرقوا كلمة المسلمين ومزقوا وحدتهم من أهل التعصب والتزمت وأدعياء السلفية - وهم لا يفهمون معناها ولا يعرفون مبنائها - وأصحاب الفتاوى المغرضة والمجاملة. ودعاة التحلل من مطلوبات الشريعة باسم التنوير والمعاصرة والحضارة والمدنية والمتفلسفة المبرمجين الذين يتكلمون بالسنة غيرهم من علماء الغرب والشرق من المستشرقين ودعاة الإلحاد والإباحية.

فهؤلاء وأولئك يرفضون من السنة الصحيحة مالا يوافق هواهم. ولا ينهض لتصحيح دعواهم. بل يعارضها ويخطئها ويجرمها.

وأقول لهم جميعاً اهدءوا بالاً فلن تنالوا ما تهدفون إليه. فدين الله باق ومحفوظ بعناية الله تعالى وستذهبون. فإن تبتم فهو خير لكم. وإلا فيآلى مصيركم تذهبون وعند ربكم ستحاسبون وعن جرمكم ستسألون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون.

أما السنة الشريفة فهي محفوظة بحفظ الله تعالى: الذى خلد الإسلام وحفظه بالمحافظة على ثلاث:

حفظ القرآن الكريم - حفظ السنة الشريفة - حفظ السيرة النبوية، وهي

مصادر ثلاثة مفقودة عند كل الأمم التي سبقتنا وهي محفوظة عندنا للدلالة على صحة ديننا وللتأكيد على أنه الدين الخاتم وللتعريف بأن هذه الأمة هي خير أمة أخرجت للناس.

﴿فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾

[الرعد: ١٧]

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

«تركتم فيكم ما لو تمسكنتم به فلن تضلوا بعدى أبدا: كتاب الله

وسنتي».

ورضى الله تعالى عن إمامنا الشافعي وسائر أئمة الفقه والحديث وجزاهم عن

الإسلام خيرا.

* * *

حجية السنة

معنى السنة وتعريفها

السنة فى اللغة: الطريقة محمودة كانت أو مذمومة. ومنه قوله ﷺ « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة »^(١).

ومن حديث: « لتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع »^(٢).

وهى فى اصطلاح المحدثين: ما أثر عن النبى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو وصفه خلقية أو خلقية أو سيرة. سواء كان قبل البعثة أو بعدها^(٣). وهى بهذا ترادف الحديث عند بعضهم.

وفى اصطلاح الأصوليين: ما نقل عن النبى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير فمثال القول: ما تحدث به النبى ﷺ فى مختلف المناسبات مما يتعلق بتشريع الأحكام كقوله عليه الصلاة والسلام « إنما الأعمال بالنيات »^(٤). وقوله: « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا »^(٥).

ومثال الفعل: ما نقله الصحابة من أفعال النبى ﷺ فى شئون العبادة وغيرها كأداء الصلوات ومناسك الحج وآداب الصيام وقضائه بالشاهد واليمين ومثال التقرير: ما أقره الرسول ﷺ من أفعال صدرت عن بعض أصحابه بسكوت منه مع دلالة الرضى أو بإظهار استحسان وتأيد.

فمن الأول: إقراره عليه الصلاة والسلام لاجتهاد الصحابة فى أمر صلاة العصر فى غزوة بنى قريظة حين قال لهم « لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة »^(٦) فقد فهم بعضهم هذا النهى على حقيقة فأخروا إلى ما بعد المغرب

(١) أخرجه مسلم عن جرير بن عبد الله البجلي.

(٢) أخرجه البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى.

(٣) قواعد التحديث ٣٥ - ٨٢ وتوجيه النظر ص ٢.

(٤) أخرجه البخارى ومسلم عن عمر.

(٥) أخرجه البخارى ومسلم عن ابن عمر. (٦) أخرجه البخارى ومسلم عن ابن عمر.

وفهمه بعضهم على أن المقصود حث الصحابة على الإسراع فصلاها في وقتها وبلغ النبي ما فعل الفريقان . فأقرهما ولم ينكر عليهما .

ومن الثانى : ما روى أن خالد بن الوليد رضى الله عنه أكل ضبّا قدم إلى النبي ﷺ دون أن يأكله . فقال له بعض الصحابة : أو يحرم أكله يا رسول الله ؟ فقال : لا ولكنه ليس فى أرض قومى فأجدنى أعافه .^(١) وقد تطلق السنة عندهم على ما دل عليه دليل شرعى . سواء كان ذلك فى الكتاب العزيز أو عن النبي ﷺ ، أو اجتهد فيه الصحابة كجمع المصحف وحمل الناس على القراءة بحرف واحد . وتدوين الدواوين ويقابل ذلك « البدعة » ومنه قوله ﷺ « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى »^(٢) .

وفى اصطلاح الفقهاء : ما ثبت عن النبي ﷺ من غير افتراض ولا وجوب وتقابل الواجب وغيره من الأحكام الخمسة . وقد تطلق عندهم على ما يقابل البدعة . ومنه قولهم : طلاق السنة كذا . وطلاق البدعة كذا^(٣) .

ومرد هذا الاختلاف فى الاصطلاح إلى اختلافهم فى الأغراض التى يعنى بها كل فئة من أهل العلم .

فعلماء الحديث إنما بحثوا عن رسول الله ﷺ الإمام الهادى الذى أخبر الله عنه أنه أسوة لنا وقدوة . فنقلوا كل ما يتصل به من سيرة وخلق وشمائل وأخبار وأقوال وأفعال سواء أثبت ذلك حكما شرعيا أم لا .

وعلماء الأصول : إنما بحثوا عن رسول الله ﷺ المشرع الذى يضع القواعد للمجتهدين من بعده ويبين للناس دستور الحياة . فيعنوا بأقواله وأفعاله وتقريراته التى تثبت الأحكام وتقررهما .

وعلماء الفقه : إنما بحثوا عن رسول الله ﷺ الذى لا تخرج أفعاله عن الدلالة على حكم شرعى . وهم يبحثون عن حكم الشرع على أفعال العباد وجوبا أو حرمة أو إباحة أو غير ذلك . أ . هـ بنضه^(٤) .

(١) أخرجه البخارى ومسلم عن ابن عباس .

(٢) أخرجه أبو داود والترمذى عن العرباض بن سارية . (٣) إرشاد الفحول ص ٣١ .

(٤) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ص ٥٧ ، ٥٨ .

وكل علماء الإسلام قد تعاملوا مع السنة على أنها المصدر الثانى للتشريع كل فى مجال تخصصه (العقيدة - أصول الفقه - الفقه - التفسير - السيرة - الأخلاق وأدب السلوك) ولم نرأى عالماً أو إماماً فى مجال من مجالات العلم المختلفة رد سنة رسول الله ﷺ إلا ما كان ممن ليس عنده علم يعصمه من الزلل أو كان من أصحاب الأهواء والبدع كالخوارج والروافض فإنهم تعلقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التى قد تضمنت بيان الكتاب قال فتحيروا وضلوا كما قال الإمام الخطابى فى معالم السنن . وقال إمامنا الشافعى رضى الله عنه : (إذا وجدت سنة رسول الله فاتبعوها) ^(١) لأننا إن لم نتبعها فسوف نضل ونهلك لأن أحكام السنة . إما موافقة لحكم القرآن ومساوية له . وإما مبينة وموضحة ومفسرة لمبهمه . وإما مخصصه لمجمله وعامه أو منشئة لحكم لم ينص عليه فى القرآن الكريم كصلاتي العيدين والجنائز وغيرها ففى ترك السنة النبوية الشريفة الخسران المبين والهلاك العظيم .

* * *

(١) مفتاح الجنة فى الاحتجاج بالسنة ص ٧٥ .

وجوب طاعة الرسول ﷺ واتباع أمره

إن سيدنا محمداً ﷺ هو النبي المصطفى والرسول المجتبي اصطفاه الله عز وجل من خيرة خلقه واجتباه من صفوة ولد سيدنا إسماعيل عليه السلام . وبعثه نبينا وللبشرية كلها بالهدى ودين الحق وأوجب على الإنس والجن الإيمان به والتصديق بنبوته وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين فلا نبوة بعده قال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ... ﴾

[الأحزاب : ٤٠]

قد أوجب الله علينا طاعته واتباع أمره قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر : ٧] .

فهو المعصوم في كل ذلك فلا يقول إلا حقاً ولا ينطق إلا صدقاً ولا يفعل إلا ما أمر بفعله ولا ينتهي إلا عما نهى الله عنه قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾ [النجم : ٣ - ٥] .

ولقد أنزل الله عز وجل عليه القرآن الكريم . والقرآن في حاجة إلى تبیین حکامه وتوجيهاته . وتلك من مهمة المصطفى ﷺ .

قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى : جعل الله - تبارك وتعالى - له - النبي ﷺ - بيان ما كان منه - القرآن - مجملاً وتفسير ما كان منه مشكلاً . وتحقيق ما كان منه محتملاً ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به . ومنزلة لتفويض إليه .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾

[النحل : ٤٤]

ثم جعل إلى العلماء بعد رسول الله ﷺ استنباط ما نبه على معانيه . وأشار إلى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد فيمتازوا بذلك عن غيرهم . يختصوا بثواب اجتهادهم قال الله تعالى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ

أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴿ [المجادلة: ١١] فصار الكتاب أصلا والسنة له بيانا واستنباط العلماء له إيضاحا وتبيانا . ١ . هـ (١) .

ويقول الله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣] وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] وقال عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦] .

هذا ويقرر الأئمة الأربعة وجوب الأخذ بسنة رسول الله ﷺ روى عن عثمان بن عمر قال : جاء رجل إلى مالك فسأله عن مسألة فقال : قال رسول الله ﷺ كذا وكذا فقال الرجل : أرايت ... ؟ . فقال مالك ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣] وقال مالك (لا تعارضوا السنة وسلموا لها) (٢) .

وأخرج البيهقي عن الربيع قال : روى الشافعي يوما حديثا فقال رجل : أتاخذ بهذا يا أبا عبد الله ؟ فقال : (متى ما رويت عن رسول الله ﷺ حديثا صحيحا فلم آخذ به فأشهدكم أن عقلي قد ذهب) (٣) .

وأخرج أيضا عن الربيع قال : سمعت الشافعي يقول : إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ ودعوا ما قلت (٤) وقال أبو حنيفة (عليكم باتباع السنة) (٥) وقال عروة بن الزبير (اتباع السنن قوام الدين) (٦) .

وقال الأوزاعي (إذا بلغك عن رسول الله ﷺ حديث فإياك أن تقول بغيره . فإن رسول الله ﷺ كان مبلغا عن الله) (٧) .

وقال الإمام أحمد بن حنبل (إذا ثبت ورود الحديث عن رسول الله ﷺ وجب العمل به) (٨) هذا وسوف نعرض رأى إمامنا الشافعي رضي الله عنه في وجوب طاعة الرسول ﷺ ووجوب العمل بسنته والدفاع عن السنة بما لم يسبق بمثله ولم يأت أحد بعده مدافعا عن السنة بمثل ما أتى به رضي الله عنه وأرضاه .

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢/١ .

(٢ - ٨) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة ص ٥١ ، ٥٢ .

الإمام الشافعي ناصر السنة

روى البيهقي عن الربيع بن سليمان أنه قال :

قال الشافعي رحمه الله تعالى : « وضع الله جل ثناؤه رسوله ﷺ - من دينه وفرضه وكتابه - الموضع الذي أبان (جل ثناؤه) أنه جعل علما لدينه بما افترض من طاعته . وحرم من معصيته وأبان فضيلته بما قرر من الإيمان برسوله مع الإيمان به فقال تبارك تعالى ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ... ﴾ [النساء: ١٣٦] وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ... ﴾ [النور: ٦٢] .

فجعل دليل ابتداء الإيمان - الذي ما سواه تبع له - الإيمان بالله ثم برسوله ﷺ . فلو آمن به عبد ولم يؤمن برسوله ﷺ لم يقع عليه اسم كمال الإيمان أبدا حتى يؤمن برسوله - عليه السلام - معه » قال الشافعي رحمه الله : « وفرض الله تعالى على الناس اتباع وحيه وسنن رسوله ﷺ . فقال في كتابه : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ [الأحزاب: ٣٤] وذكر غيرها من الآيات التي وردت في معناها . قال : فذكر الله تعالى الكتاب وهو القرآن . وذكر الحكمة فسمعت من أَرْضَى من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله ﷺ . وهذا يشبه ما قال . (والله أعلم) بأن القرآن ذكر وأتبعته الحكمة . وذكر الحكمة . وذكر الله - عز وجل - منته على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة فلم يجز (والله أعلم) أن تعد الحكمة ها هنا

إلا سنة رسول الله ﷺ . وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله وأن الله افترض طاعة رسول الله ﷺ وحتم على الناس اتباع أمره . فلا يجوز أن يقال لقول : فرض إلا لكتاب الله ثم سنة رسول الله ﷺ مبينة عن الله ما أراد دليلا على خاصه وعامه . ثم قرن الحكمة بكتابه فاتبعها إياه ولم يجعل هذا لاحد من خلقه غير رسول الله ﷺ .

ثم ذكر الشافعي رحمه الله الآيات التي وردت في فرض الله - عز وجل - طاعة رسوله ﷺ . منها قوله عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩] فقال بعض أهل العلم : أولو الأمر . أمراء سرايا رسول الله ﷺ . وهكذا أخبرنا والله أعلم . وهو يشبه ما قال والله أعلم . أن من كان حول مكة من العرب لم يكن يعرف إمارة . وكانت تأنف أن تعطى بعضها بعضا طاعة الإمارة فلما دانت لرسول الله ﷺ بالطاعة . لم تكن ترى ذلك يصلح لغير رسول الله ﷺ . فأمرُوا أن يطيعوا أولى الأمر الذين أمرهم رسول الله ﷺ . لا طاعة مطلقة بل طاعة يستثنى فيها لهم وعليهم . قال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ... ﴾ [النساء: ٥٩] يعنى إن اختلفتم فى شئ وهذا إن شاء الله كما قال فى أولى الأمر . لأنه يقول : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ يعنى - والله أعلم - هم وأمرؤهم الذين أمرُوا بطاعتهم ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ يعنى - والله أعلم - إلى ما قال الله والرسول إن عرفتموه . وإن لم تعرفوه سألتهم رسول الله ﷺ عنه إذا وصلتكم إليه . أو من وصل إليه . لأن ذلك الفرض الذى لا منازعة لكم فيه لقول الله عز وجل ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦] ومن تنازع ممن - بعد عن رسول الله ﷺ - رد الأمر إلى قضاء الله . ثم إلى قضاء رسول الله ﷺ فإن لم يكن فيما تنازعوا فيه قضاء نصا فيهما ولا فى واحد منهما ، ردوه قياسا على أحدهما .

وقال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ الآية

[النساء: ٦٥] قال الشافعي: (نزلت هذه الآية فيما بلغنا - والله أعلم - في رجل خاصم الزبير رضي الله عنه في أرض فقضى النبي ﷺ بها للزبير رضي الله عنه وهذا القضاء سنة من رسول الله ﷺ لا حكم منصوص في القرآن. وقال عز وجل ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [النور: ٤٨] والآيات بعدها. فاعلم الله الناس أن دعاءهم إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهم. دعاء إلى حكم الله وإذا سلموا لحكم النبي ﷺ. فإنما سلموا لفرض الله) وبسط الكلام فيه.

قال الشافعي رضي الله عنه: «وشهد له - جل ثناؤه - باستمساكه بأمره به والهدى في نفسه وهداية من اتبعه. فقال: (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم. صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور)»^(١) وذكر معها غيرها. ثم قال في شهادته له: إنه يهدي إلى صراط مستقيم صراط الله وفيما وصفت - من فرض طاعته - ما أقام الله به الحجة على خلقه بالتسليم لحكم رسوله واتباع أمره. فما سن رسول الله ﷺ فيما ليس لله فيه حكم - فحكم الله سنته.

ثم يقول البيهقي رحمه الله تعالى: ثم ذكر الشافعي رحمه الله الاستدلال بسنته على الناسخ والمنسوخ من كتاب الله ثم ذكر الفرائض المنصوصة التي بين رسول الله ﷺ معها. ثم ذكر الفرائض الجمل التي أبان رسول الله ﷺ عنه الله سبحانه كيف هي ومواقيتها ثم ذكر العام من أمر الله الذي أراد به العام. والعام الذي أراد به الخاص ثم ذكر سنته فيما ليس فيه نص كتاب. وإيراد جميع ذلك هاهنا مما يطول به الكتاب. وفيما ذكرناه إشارة إلى ما لم نذكره^(١). أ. هـ.

وورد في كتاب «الرسالة»: (قال الشافعي رضي الله عنه):

وقد سن رسول الله ﷺ مع كتاب الله عز وجل وبين فيما ليس فيه بعينه نص كتاب وكل ما سن فقد ألزمنا الله تعالى اتباعه وجعل في اتباعه طاعته. وفي

العنود عن اتباعه معصيته التي لم يعذر بها خلقا ولم يجعل له من اتباع سنن رسول الله ﷺ مخرجا لما وصفت وما قال رسول الله ﷺ . أخبرنا سفيان بن عيينة قال أخبرنا سالم أبو النضر مولى عمر بن عبد الله أنه سمع عبيد الله بن أبي رافع يحدث عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : (لآلئين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا أدري ما وجدناه في كتاب الله اتبعناه) قال سفيان وحدثني محمد بن المنكدر عن النبي ﷺ مرسلا .

قال الشافعي رضي الله عنه : والأريكة السرير . قال الشافعي رضي الله عنه : وسنن رسول الله ﷺ مع كتاب الله عز وجل وجهان : أحدهما : نص كتاب الله فاتبعه رسول الله ﷺ كما أنزل الله والآخر : جملة بين رسول الله ﷺ فيه عن الله سبحانه وتعالى معنى ما أراد بالجملة وأوضح كيف فرضها أعاما أم خاصا وكيف أراد أن يأتي به العباد وكلاهما اتبع فيه كتاب الله تعالى – قال الشافعي رحمه الله تعالى : فلم أعلم من أهل العلم مخالفا في أن سنن النبي ﷺ من ثلاثة وجوه . فأجمعوا منها على وجهين . والوجهان يجتمعان ويتفرعان :

أحدهما : ما أنزل الله عز وجل فيه نص كتاب فسن رسول الله ﷺ مثل ما نص الكتاب .

والآخر : ما أنزل الله فيه جملة كتاب فبين عن الله معنى ما أراد وهذان الوجهان اللذان لم يختلفوا فيهما .

والوجه الثالث : ما سن رسول الله ﷺ مما ليس فيه نص كتاب فمنهم من قال : جعل الله له بما افترض من طاعته وسبق في علمه من توفيقه لرضاه . أن يسن فيما ليس فيه نص كتاب . فمنهم من قال : لم يسن سنة قط إلا ولها أصل في الكتاب كما كانت سنته تبين عدد الصلاة وعملها على أصل جملة فرض الصلاة وكذلك ما سن في البيوع وغيرها من الشرائع لأن الله تعالى ذكره قال : ﴿ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ وقال ﴿ وَأَحِلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ فما أحل وحرم إنما بين فيه عن الله تعالى كما بين الصلاة ومنهم من قال : بل جاءته به رسالة الله عز وجل فأثبتت سنته بفرض الله تعالى . ومنهم من قال : القى في روعه كل ما سن .

وسنته الحكمة للذى ألقى فى روعه عن الله تعالى فكان مما ألقى فى روعه سنته، أخبرنا عبد العزيز بن محمد عن عمر بن أبى عمرو مولى المطلب عن المطلب بن حنطب قال: قال رسول الله ﷺ (ما تركت شيئاً مما أمركم الله به إلا قد أمرتكم به ولا تركت شيئاً مما نهاكم الله تعالى عنه إلا وقد نهيتكم عنه ألا إن الروح الأمين قد ألقى فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها فأجملوا فى المطلب).

قال الشافعى رحمه الله تعالى: فكان مما ألقى فى روعه سنته وهى الحكمة لتى ذكر الله تعالى وما نزل به كتاب عليه فهو كتاب الله عز وجل وكل جاءه من عم الله تبارك وتعالى كما أراد الله تعالى وكما جاءته النعم تجمعها النعمة وتتفرق بأنها فى أمور بعضها غير بعض فنسأل الله العصمة والتوفيق، قال لشافعى رحمه الله تعالى: وأى هذا كان فقد بين الله عز وجل أنه فرض فيه طاعة رسوله ﷺ. ولم يجعل لأحد من خلقه عذرا بخلاف أمر عرفه من أمر رسول الله ﷺ. وأن قد جعل الله تعالى بالناس كلهم الحاجة إليه فى دينهم وأقام عليهم حجته بما دلهم عليه من تبين رسوله معانى ما أراد الله تعالى بفرائضه فى كتابه ليعلم من عرف منها ما وصفنا أن سنته ﷺ إذا كانت سنته مبينة عن الله تعالى معنى ما أراد الله من مفروضه فيما فيه نص كتاب يتلونه وفيما ليس فيه نص كتاب أخرى فهى كذلك أين كانت لا يختلف حكم الله تعالى ثم حكم رسوله بل هو لازم بكل حال وكذلك قال رسول الله ﷺ فى حديث أبى رافع الذى كتبنا قبل هذا.

قال الشافعى رحمه الله عليه: وسأذكر مما وصفنا من السنة مع كتاب الله والسنة فيما ليس فيه نص كتاب بعض ما يدل على جملة ما وصفنا منه إن شاء الله تعالى. فأول ما نبدأ به من ذكر سنة رسول الله ﷺ مع كتاب الله تعالى ذكر الاستدلال بسنته على الناسخ والمنسوخ من كتاب الله عز وجل. ثم ذكر الفرائض المنصوصة التى سن رسول الله ﷺ معها. ثم ذكر الفرائض الجمل التى أبان رسول الله ﷺ عن الله كيف هى ومواقيتها ثم ذكر العام من أمر الله تعالى الذى أراد به

العام والعام الذى أراد به الخاص ثم ذكر سنته فيما ليس فيه نص كتاب، انتهى نص الرسالة (١).

وهذه العلاقة بين القرآن والسنة يذكرها العلامة ابن القيم الجوزية (٢) رحمه الله تعالى مؤكداً كلام الإمام الشافعى رضى الله عنه. فيقول: والسنة مع القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون موافقة له من كل وجه. فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتضافرها.

ثانيها: أن تكون بياناً لما أريد بالقرآن وتفسيراً له.

ثالثها: أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه أو محرمته لما سكت عن تحريره. ولا تخرج عن هذه الأقسام فلا تعارض بوجه ما، أ. هـ.

ويقول ابن القيم أيضاً: (والذى يشهد الله ورسوله به أنه لم تأت سنة صحيحة عن رسول الله ﷺ تناقض كتاب الله وتخالفه البتة كيف ورسول الله هو المبين لكتاب الله وعليه أنزل وبه هداه الله. وهو مأمور باتباعه وهو أعلم بتأويله ومراده) (٣).

وقد ذكر الإمام البيهقى رحمه الله تعالى (٤) جملة من الروايات مما يستدل به على حسن اعتقاد الإمام الشافعى فى متابعة السنة ومجانبة البدعة نذكر منها:

عن أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى - قال: ما رأيت أتبع للأثر من الشافعى، وقال أيضاً يذكر الشافعى (لقد كان يذب عن الآثار).

وعن حرملة بن يحيى قال: سمعت الشافعى يقول: سميت ببغداد «ناصر الحديث».

وعن الربيع بن سليمان المرادى يقول: سمعت الشافعى يقول: إذا وجدت

(١) الرسالة ١٥، ١٦ طبعة بولاق.

(٢) اعلام الموقعين ٢/ ٣٠٧.

(٣) الطرق الحكمية ص ٨٤.

(٤) مناقب الشافعى ١/ ٢٥٤، ٢٥٥.

فى كتابى خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ ودعوا ما
لمت .

وعنه قال : سمعت الشافعى يقول : إذا وجدت من رسول الله ﷺ
خلاف قولى فخذوا بالسنة ودعوا قولى . فإنى أقول بها .

وعن الحميدى قال : سأل رجل الشافعى بمصر عن مسألة فأفتاه . وقال : قال
لبنى ﷺ كذا . فقال الرجل : أتقول بهذا ؟ .

قال : رأيت فى وسطى زناراً ؟ أترانى خرجت من الكنيسة ؟ أقول قال النبى
ﷺ وتقول لى : أتقول بهذا ؟ .

أروى عن رسول الله ﷺ ولا أقول به ؟ .

وروى أبو نعيم فى الحلية (١) عن الربيع بن سليمان قال : سمعت الشافعى
يقول : وسأله رجل عن مسألة . فقال : روى عن النبى ﷺ أنه قال كذا وكذا فقال
ه السائل : يا أبا عبد الله أتقول بهذا ؟ فارتعد الشافعى واصفر لونه وقال :
ويحك . أى أرض تقلنى ؟ وأى سماء تظلمنى ؟ إذا رويت عن رسول الله ﷺ شيئاً
فلم أقل به . نعم على الرأس والعينين على الرأس والعينين .

وروى البيهقى عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى قال :

(كان أحسن أمر الشافعى أنه كان إذا سمع الخبر - الحديث - لم يكن
عنده قال به . وترك قوله) .

وروى أيضاً عن الربيع بن سليمان قال : سمعت الشافعى يقول (لولا
أصحاب الحديث لكنا بياع القول) .

وعن أحمد بن حنبل قالت : سألت الشافعى عن القياس . فقال : ضرورة
وعن الربيع بن سليمان قال : قال الشافعى : لا تترك الحديث عن رسول الله ﷺ
بأن يدخله القياس ولا يوضع القياس مع السنة وروى أيضاً عن الربيع بن سليمان
قال : سألت الشافعى عن الطيب قبل الإحرام بما يبقى ريحه بعد الإحرام وبعد

رمى الجمر والحلاق وقبل الإفاضة؟ فقال: جائز وأحبه ولا أكرهه. لثبوت السنة فيه عن رسول الله ﷺ والإخبار عن غير واحد من الصحابة.

فقلت: وما حجتك فيه؟ فذكر فيه الأخبار والآثار ثم قال: أخبرنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن سالم قال: قال عمر: من رمى الجمرة فقد حل له ما حرم إلا الطيب والنساء.

قال سالم: وقالت عائشة - رضى الله عنها - طابت رسول الله ﷺ عليه وسلم بيدي سنة رسول الله ﷺ أحق أن تتبع قال الشافعي: وهكذا ينبغي أن يكون الصالحون من أهل العلم. فاما ما تذهبون إليه من ترك السنة لغيرها. وترك ذلك الغير لرأى أنفسكم فالعلم إذا إليكم تأتون منه ما شئتم وتدعون منه ما شئتم. وبسط الكلام فيه (١).

ويؤكد على هذه المعانى كلها الإمام البيهقي رحمه الله تعالى فى كتابه القيم (معرفة السنن والآثر) : عن أبى محمد : الربيع بن سليمان المرادى رحمه الله قال : أخبرنا الشافعى رحمه الله قال : الحمد لله على جميع نعمه بما هو أهله وكما ينبغي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله يعثه بكتاب عزيز لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد فهدى بكتابه ثم على لسان نبيه من أنعم عليه وأقام الحجة على خلقه لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . فقال : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ [النحل: ٨٩] وقال : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤] وفرض عليهم اتباع ما أنزل إليهم وسن رسول الله ﷺ لهم فقال : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ [الاحزاب: ٣٦] فأعلم أن معصيته فى ترك أمره وأمر رسوله ﷺ ولم يجعل لهم إلا اتباعه . ثم ساق الكلام إلى أن قال وقال لنبيه ﷺ ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ

(١) راجع مناقب الشافعى للبيهقى ٢٥٤ - ٢٦٠ .

مِنْ رَبِّكَ ﴿ [الأنعام: ١٠٦] وقال: ﴿ وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٩]
 وقال: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ [ص:
 ٢٦] وقال: وليس يؤمر أحد أن يحكم بحق إلا قد أعلم الحق ولا يكون الحق
 معلوماً إلا عن الله جل ثناؤه نصاً أو دلالة وقد جعل الله الحق في كتابه ثم سنة نبيه
 ﷺ فليست تنزل بأحد نازلة إلا والكتاب يدل عليها نصاً أو جملة فالنص ما
 حرم الله وأحل نصاً حرم الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات ومن ذكر
 معهن في الآية ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ... ﴾ [النساء: ٢٣] وأباح من سواهن
 وحرم الميتة والدم ولحم الخنزير والفواحش ما ظهر منها وما بطن وأمر بالوضوء
 فقال: ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ [المائدة:
 ٦] الآية فكان مكنتى بالتنزيل في هذا عن الاستدلال فيما نزل فيه مع أشباه له.
 قال: والجمل ما فرض الله من صلاة وزكاة وحج فدل رسول الله ﷺ كيف الصلاة
 وعددها ووقتها والعمل فيها وكيف الزكاة وفي أي المال هي وفي أي وقت هي
 وكم قدرها وبين كيف الحج والعمل فيه وما يدخل به فيه وما يخرج به منه. فإن
 قيل: فهل يقال لهذا كما قيل للأول قبل عن الله تبارك وتعالى؟ قيل: نعم قبل
 عن الله عز وجل بكلامه جملة وقبل تفسيره عن الله بأن الله فرض طاعة نبيه ﷺ
 فقال: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧]. وقال:
 ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠] مع ما فرض الله من طاعة رسوله
 ﷺ. فإن قيل: هل سنة النبي ﷺ بوحي؟ قيل: الله أعلم أخبرنا مسلم بن خالد
 أحسبه عن ابن جريج عن ابن طاووس عن أبيه أن عنده كتاباً من العقول نزل بن
 الوحي. وما فرض رسول الله ﷺ من صدقة وعقول فإنما نزل به الوحي قال
 الشافعي: وقيل: لم يسن رسول الله ﷺ شيئاً قط إلا بوحي الله عز وجل. فمن
 الوحي ما يتلى ومنه ما يكون وحياً إلى رسوله فيستن به. أخبرنا عبد العزيز بن
 محمد عن عمرو بن أبي عمرو عن المطلب بن حنطب أن رسول الله ﷺ قال: (ما
 تركت شيئاً مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم به ولا شيئاً مما نهاكم الله عنه إلا وقد
 نهيتكم عنه. وإن الروح الأمين قد ألقى في روعي أنه لن تموت نفس حتى
 تستوفى رزقها فأجملوا في الطلب).

قال الشافعي : وقد قيل ما لم يتل به قرآنا فإنما ألقاه جبريل عليه السلام في روعه بأمر الله عز وجل فكان وحيا إليه وقد قيل جعل الله إليه لما شهد له به من أنه يهدي إلى صراط مستقيم أن يسن وأيهما كان فقد ألزمه الله خلقه ولم يجعل لهم الخيرة من أمرهم فيما سن وفرض عليهم اتباع سنة .

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه الحافظ رحمه الله فيما قرئ عليه من كتب الشافعي رحمه الله في الأصول أن أبا العباس محمد ابن يعقوب حدثهم قال : أخبرنا الربيع بن سليمان قال : أخبرنا الشافعي قال : وقد وضع الله رسوله ﷺ من دينه وفرضه وكتابه الموضع الذي أبان جل ثناؤه أنه جعله علما لدينه بما افترض من طاعته وحرم من معصيته وأبان من فضيلته بما قرن من الإيمان برسوله مع الإيمان به فقال تعالى : ﴿ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التغابن: ٨] وقال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [النور: ٦٢] فجعل كمال ابتداء الإيمان الذي ما سواه تبع له الإيمان بالله ثم برسوله .

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه الحافظ رحمه الله قال : حدثنا أبو العباس . قال : أخبرنا الربيع قال : أخبرنا الشافعي قال : أخبرنا ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله عز وجل : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح: ٤] . قال : لا أذكر إلا ذكرت أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله قال الشافعي : وفرض الله على الناس اتباع وحيه وسنن رسوله فقال في كتابه ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا ﴾ الآية كلها إلى قوله ﴿ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمرا: ١٦٤] مع آي سواها ذكر فيهن الكتاب والحكمة قال الشافعي : فذكر الله الكتاب وهو القرآن . وذكر الحكمة . فسمعت من أَرْضَى من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله ﷺ .

وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩] .

فقال بعض أهل العلم : أولوا الأمر . أمراء سرايا رسول الله ﷺ وهكذا أخبرنا

وقال: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ يعني إن اختلفتم في شيء يعني والله أعلم هم وأمرؤهم الذين أمروا بطاعتهم ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ يعني والله أعلم ما قال الله والرسول. ثم ساق الكلام إلى أن قال: وأعلمهم أن طاعة رسوله ﷺ طاعته. فقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

قال الشافعي: نزلت هذه الآية فيما بلغنا والله أعلم في رجل خاصم الزبير في أرض فقضى النبي ﷺ بها للزبير.

قال: حدثنا الليث عن الزهري عن عروة أن عبد الله بن الزبير حدثه أن رجلا خاصم الزبير في شراج - مسيل الماء - الحرة (موضع بالمدينة المنورة) التي يسقون بها، فقال الأنصاري: سرح الماء يمر فأبى عليه الزبير فقال رسول الله ﷺ للزبير: «اسق يا زبير ثم أرسل إلى جارك» قال: فغضب الأنصاري. فقال يا رسول الله: إن كان ابن عمك فتلون وجه رسول الله ﷺ. ثم قال: «اسق ثم احبس حتى يرجع إلى الجدر» فقال الزبير: فوالله إني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ...﴾ الآية.. أخرجه أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل البخاري وأبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري في الصحيح من حديث الليث بن سعد وفي رواية معمر وشعيب بن أبي حمزة عن الزهري عن عروة أنه قال: واستوعى رسول الله ﷺ الزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري. وكان أشار عليهما قبل ذلك بأمر كان لهما فيه سعة وقد أخرجه البخاري.

قال الشافعي رضي الله عنه: وهذا القضاء سنة من سنة رسول الله ﷺ لا حكم منصوص في القرآن واحتج أيضا في فرض اتباع أمره بقوله عز وجل ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ الآية إلى قوله ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وذكر غير ذلك من الآيات التي دلت على مثل ما دلت عليه هذه الآيات.

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ قال: حدثنا: أبو العباس قال: أخبرنا الربيع قال: أخبرنا الشافعي قال: وكان فرضه على من عاين رسول الله ﷺ ومن بعده إلى يوم

القيامة واحدا في أن على كل طاعته ولم يكن أحد غاب عن رؤية رسول الله ﷺ يعلم أمر رسول الله ﷺ إلا بالخبر عنه.

قال: والخبر عنه خبران: خبر عامة عن عامة عن النبي ﷺ بجمل ما فرض الله على العباد أن يأتوا به بالسنتهم وأفعالهم ويؤتوه من أنفسهم وأموالهم وهذا مالا يسع جهله.

وخبر خاصة في خاص الأحكام لم يكلفه العامة ولم يأت أكثره كما جاء الأول وكلف علم ذلك من فيه الكفاية للقيام به دون العامة وساق الشافعي الكلام في شرح كل واحد منهما أ. هـ (١).

* * *

(١) راجع كتاب معرفة السنن والآثار للبيهقي ج ١ ص ٦١ - ٦٦.

خبر الواحد

الخبر متواتر أو أحاد . والخبر المتواتر: هو ما رواه جمع عن جمع تحيل العادة تواطؤهم على الكذب . وعددهم لا يقل عن أربعة .

وأما خبر الأحاد فهو ما رواه عدد أقل من أربعة .

ولا خلاف بين العلماء من المحدثين والفقهاء على ثبوت الحديث المتواتر وأن قوة الاستدلال بالمتواتر في الأحكام كقوة الاستدلال بالقرآن الكريم ولكن دار بينهم نزاع حول حجية الاستدلال بخبر الواحد .

ومن فقه كلام الإمام الشافعي رضي الله عنه في باب خبر الواحد في كتبه (الرسالة والآم واختلاف الحديث وجماع العلم) وجد أنه قد جمع كل القواعد الصحيحة لعلوم الحديث (المصطلح) وأنه أول من أبان عنها إبانة صحيحة واضحة مما يدل على أنه أول واضع لعلوم الحديث وأصوله بما يسمى (مصطلح الحديث) كما يدل على أنه أقوى من نصر الحديث واحتج لوجوب العمل به وتصدى للرد على مخالفيه . مما جعل أهل مكة يقولون : (إن الشافعي هو ناصر الحديث) ومن بعدهم قال أهل العراق : (إن الشافعي هو ناصر السنة) رضي الله عنه . يقول رضي الله عنه في كتاب (الرسالة باب خبر الواحد) (١) .

فقال لي قائل : أؤكد لي أقل ما تقوم به الحجة على أهل العلم حتى يثبت عليهم خبر الخاصة .

فقلت : خبر الواحد عن الواحد حتى ينتهي به إلى النبي أو من انتهى به إليه دونه ولا تقوم الحجة بخبر الخاصة حتى يجمع أمورا :

منها : أن يكون من حدث به ثقة في دينه . معروفا بالصدق في حديثه . عاقلا لما يحدث به عالما بما يحيل معاني الحديث من اللفظ وأن يكون ممن يؤدي الحديث بحروفه كما سمع لا يحدث به على المعنى لأنه إذا حدث به على المعنى

(١) انظر كتاب الرسالة باب خبر الواحد من ص ٣٦٩ - ٤٠٠ .

وهو غير عالم بما يحيل معناه .. لم يدر لعله يحيل الحلال إلى الحرام . وإذا أذاه بحروفه فلم يبق وجه يخالف فيه إحالته الحديث . حافظا إن حدث به من حفظه حافظا لكتابه إن حدث من كتابه . إذا شرك أهل الحفظ في الحديث وافق حديثهم . برىا من أن يكون مدلسا : يحدث عن من لقي ما لم يسمع منه ويحدث عن النبي ﷺ ما يحدث الثقات خلافة عن النبي ﷺ .

ويكون هكذا من فوقه ممن حدثه حتى ينتهى بالحديث موصولا إلى النبي ﷺ أو إلى من انتهى به إليه دونه لأن كل واحد منهم مثبت لمن حدثه . ومثبت على من حدث عنه . فلا يستغنى في كل واحد منهم عما وصفت فقال : فأوضح لى من هذا بشئ لعلى أكون به أعرف منى بهذا الخبرتى به وقلة خبرتى بما وصفت فى الحديث ؟ .

فقلت له : أترى أن أخبرك بشئ يكون هذا قياسا عليه ؟

قال : نعم .

قلت : هذا هذا أصل فى نفسه . فلا يكون قياسا على فميزه لأن القياس أضعف من الأصل .

قال : فلست أريد أن تجعله قياسا ولكن مثله لى على شئ من الشهادات التى العلم بها عام .

قلت : قد يخالف الشهادات فى أشياء ويجامعها فى غيرها .

قال : وأين يخالفها ؟ .

قلت : أقبل فى الحديث الواحد والمرأة . ولا أقبل واحدا منهما وحده فى الشهادة وأقبل فى الحديث « حدثنى فلان عن فلان » إذا لم يكن مدلسا ولا أقبل فى الشهادة إلا « سمعت » أو « رأيت » أو « أشهدنى » .

وتختلف الأحاديث فأخذ ببعضها استدلالا بكتاب أو سنة أو إجماع أو قياس وهذا لا يؤخذ به فى الشهادات هكذا ولا يوجد فيها بحال ثم يكون بشر كلهم تجوز شهادته ولا أقبل حديثه من قبل ما يدخل فى الحديث من كثرة الإحالة وإزالة بعض ألفاظ المعانى .

ثم هو يجمع الشهادات فى أشياء غير ما وصفت .

ثم قال رضى الله عنه : ومن كثر غلطه من المحدثين ولم يكن له أصل كتاب صحيح لم يقبل حديثه كما يكون من أكثر الغلط فى الشهادة لم يقبل شهادته وأهل الحديث متباينون . فمنهم المعروف بعلم الحديث - بطلبه وسماعه من الأب والعم وذوى الرحم والصدىق وطول مجالسة أهل التنازع فيه . ومن كان هكذا كان مقدما فى الحفظ إن خالفه من يقصر عنه كان أولى أن يقبل حديثه ممن خالفه من أهل التقصير عنه .

ويعتبر على أهل الحديث بأن إذا اشتركوا فى الحديث عن الرجل بأن يستدل على حفظ أحدهم بموافقة أهل الحفظ وعلى خلاف حفظه بخلاف حفظ أهل الحفظ له .

وذا اختلفت الرواية استدللنا على المحفوظ منها والغلط بهذا ووجوه سواء تدل على الصدق والحفظ والغلط قد بينها فى غير هذا الموضع وأسأل الله التوفيق .

فقال : فما الحجة لك فى قبول خبر الواحد . وأنت لا تجيز شهادة واحد وحده وما حجتك فى أن قسته بالشهادة فى أكثر من مرة وفرقت بينه وبين الشهادة فى بعض أمره ؟ .

قال الشافعى : فقلت له : أنت تعيد ما قد ظننتك فرغت منه ولم أقسه وإنما سألت أن أمثله لك بشئ تعرفه . أنت به أخبر منك بالحديث فمثلتك لك بهذا الشئ لا أنى احتجت لأن يكون قياسا عليه .

وتثبتت خبر الواحد أقوى من أن أحتاج إلى أن أمثله بغيره . بل هو أصل فى نفسه قال : فكيف يكون الحديث كالشهادة فى شئ ثم يفارق بعض معانيها فى غيره ؟ فقلت له : هو مخالف للشهادة - كما وصفت لك - فى بعض أمره ، ولو جعلته كالشهادة فى بعض أمره دون بعض كانت الحجة لى فيه بينة إن شاء الله .

ثم أخذ رضى الله عنه يشرح ويبين هذا الأمر فى قوة وبراعة فائقة لا تكون

إلا للإمام الشافعي رضي الله عنه . إلى أن قال : وإن الحديث في الحلال والحرام
أعلى الأمور وأبعدها من أن يكون فيه موضع ظنة وقد قُدم إليهم في الحديث عن
رسول الله ﷺ بشئ لم يقدم إليهم في غيره . فوعد على الكذب على رسول الله
النار أ.هـ .

ثم هو يذكر من الأحاديث الشريفة مما يستدل به على حرمة الكذب على
رسول الله ﷺ منها : روى بسنده المتصل عن وائلة بن الأسقع - رضي الله عنه عن
النبي ﷺ قال : (إن أفرى الفرى . من قولنى ما لم أقل . ومن أرى عينيه ما لم
ترى . ومن أدعى إلى غير أبيه) ورواه البخارى ٤ / ١٨٠ .

وروى أيضا عن أبي سلمة عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله
ﷺ قال : (من قال على ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار) ورواه مسلم
١ / ٥٠ .

وروى أيضا بسنده المتصل عن أبي هريرة رضي الله عنه . أن رسول الله
ﷺ قال : (حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج . وحدثوا عني ولا تكذبوا على)
ورواه الإمام أحمد في المسند ج ٣ ص ١٢ برقم ١١٠٨ أطول من هذا عن طرق
متعددة وهي أحاديث صحاح كما ذكره الأستاذ أحمد شاكر في هامش
الرسالة .

ثم يقول الإمام الشافعي عن الحديث الأخير : وهذا أشد حديث روى عن
رسول الله ﷺ في هذا وعليه اعتمدنا مع غيره في أن لا نقبل حديثا إلا من ثقة
ونعرف صدق من حمل الحديث من حين ابتدئ إلى أن يُبلغ به منتهاه . فإن قال
قائل : وما في هذا الحديث من الدلالة على ما وصفت .

قيل : قد أحاط العلم أن النبي ﷺ لا يأمر أحدا بحال أبدا أن يكذب على
بنى إسرائيل ولا على غيرهم . فإذا أباح الحديث عن بنى إسرائيل فليس أن يقبلوا
الكذب على بنى إسرائيل أباح . وإنما أباح قبول ذلك عن من حدث به ممن يُجهل
صدقه وكذبه .

ولم يباحه أيضا عن من يُعرف كذبه لأنه يُروى عنه أنه « من حدث بحديث

وهو يُراه كذبا فهو أحد الكاذبين» (١) ومن حدث عن كذاب لم يبرأ من الكذب لأنه يرى الكذاب في حديثه كاذبا .

ولا يستدل على أكثر صدق الحديث وكذبه إلا بصدق المخبر وكذبه إلا في الخاص القليل من الحديث . وذلك أن يستدل على الصدق والكذب فيه بأن يحدث المحدث مالا يجوز أن يكون مثله أو ما يخالفه ما هو أثبت وأكثر دلالات بالصدق منه وإذا فرق رسول الله ﷺ بين الحديث عنه والحديث عن بنى إسرائيل فقال : « حدثوا عني ولا تكذبوا علي » فالعلم إن شاء الله يحيط أن الكذب الذي نهاهم عنه ، هو الكذب الخفى . وذلك الحديث عمن لا يُعرف صدقه لأن الكذب إذا كان منهيا عنه على كل حال - فلا كذب أعظم من كذب على رسول الله ﷺ أ . هـ .

قال الشيخ شاکر في حاشيته على الرسالة (٢) : وهذا البحث الجليل الذى كتبه الشافعى تبعه فيه الخطابى . فقال فى معالم السنن (ج ٤ ص ١٨٧ - ١٨٨) عند هذا الحديث الذى روى أبو داود أوله قال : ليس معناه إباحة الكذب فى أخبار بنى إسرائيل ورفع الجرح عمن نقل عنهم الكذب . ولكن معناه الرخصة فى الحديث عنهم على معنى البلاغ وإن لم يتحقق صحة ذلك بنقل الإسناد وذلك لأنه أمر قد تعذر فى أخبارهم لبعد المسافة وطول المدة ووقوع الفترة بين زمانى النبوة وفيه دليل على أن الحديث لا يجوز عن النبى ﷺ إلا بنقل الإسناد والتثبت فيه . وقد روى الداروردي هذا الحديث عن محمد بن عمرو بزيادة لفظ دل بها على صحة هذا المعنى ليس فى رواية على بن مسهر الذى رواها أبو داود عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج وحدثوا عني ولا تكذبوا علي) ومعلوم أن الكذب على بنى إسرائيل لا يجوز بحال فإنما أراد بقوله (وحدثوا عني ولا تكذبوا علي) أى تحرزوا من الكذب على بأن لا تحدثوا عني إلا بما يصح عندكم من جهة الإسناد الذى به يقع التحرز عن الكذب على) أ . هـ .

(١) رواه مسلم ١ / ٥ عن سمرة بن جندب والمغيرة بن شعبة .

(٢) هامش ص ٤٠٠ من الرسالة .

إن أقوال الرسول ﷺ وأفعاله تشريع للأمة. والكذب عليه ليس كالكذب على غيره. ففي الكذب عليه أمر خطير لما يترتب عليه من حكم أو بيان لأمر أو تفسير لآية. لذلك كانت جهود علماء السنة في جمع الأحاديث والأخبار عن رسول الله ﷺ جهوداً مضنية مكنتهم من التثبت من صحة الأخبار الصحيحة على اختلاف درجاتها وتمييزها عن غيرها من الأحاديث والأخبار الضعيفة والموضوعة.

وإمامنا الشافعي رضي الله عنه قد ساهم في هذا المجال مساهمة فعالة وقادرة وليس أدل على ذلك من كتبه التي وضعها في هذا الشأن:

المسند والسنن ومختلف الحديث وما رواه في كل مصنفاته: الأم وجماع العلم والرسالة واختلاف مالك واختلاف العراقيين وغيرها.

● تثبيت خبر الواحد (١):

قال الشافعي: فإن قال قائل: اذكر الحجة في تثبيت خبر الواحد بنص خبر أو دلالة فيه إجماع.

فقلت له: أخبرنا سفيان - بن عيينة - عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه أن النبي - ﷺ - قال: (نضر الله عبداً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله. والنصيحة للمسلمين ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم) (٢).

فلما ندب رسول الله - ﷺ - إلى استماع مقالته وحفظها وآدائها أمراً يؤديها. والإمرء واحد. دل على أنه لا يأمر أن يؤدي عنه إلا ما تقوم به الحجة على من أدى إليه لأنه إنما يؤدي عنه حلال وحرام يجتنب، وحد يقام، ومال يؤخذ ويعطى، ونصيحة في دين ودنيا.

(١) انظر كتاب الرسالة ص ٤٠١ - ٤٧١.

(٢) رواه الشافعي والبيهقي في المدخل ورواه أحمد والترمذي وأبو داود عن زيد بن

ثابت.

ودل على أنه قد يحمل الفقه غير فقيه يكون له حافظا ولا يكون فيه فقيها وأمر رسول الله بلزوم جماعة المسلمين مما يحتج به في أن إجماع المسلمين - إن شاء الله - لازم.

أخبرنا سفيان - بن عيينة - قال: أخبرني سالم أبو النضر أنه سمع عبيد الله ابن أبي رافع يخبر عن أبيه قال: قال النبي ﷺ: (لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته. يأتيه الأمر من أمرى مما نهيت عنه أو أمرت به. فيقول: لا ندرى. ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه).

ثم قال الشافعى: وفي هذا تثبيت الخبر عن رسول الله - ﷺ - وإعلامهم أنه لازم لهم. وإن لم يجدوا له نص حكم في كتاب الله وهو موضوع في غير هذا الموضع.

أخبرنا مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار: أن رجلا قبل امرأته وهو صائم فوجد من ذلك وجدا شديدا فأرسل امرأته تسأل عن ذلك فدخلت على أم سلمة أم المؤمنين فأخبرتها. فقالت أم سلمة إن رسول الله - ﷺ - يقبل وهو صائم. فرجعت المرأة إلى زوجها فأخبرته فزاده ذلك شرا وقال: لسنا مثل رسول الله - ﷺ - يحل الله - تعالى - لرسوله ما شاء فرجعت المرأة إلى أم سلمة. فوجدت رسول الله - ﷺ - عندها فقال رسول الله ﷺ: ما بال هذه المرأة؟ فأخبرته أم سلمة فقال: ألا أخبرتها أنى أفعل ذلك؟ فقالت أم سلمة. قد أخبرتها فذهبت إلى زوجها فأخبرته فزاده ذلك شرا وقال: لسنا مثل رسول الله - ﷺ - يحل الله لرسوله ما شاء فغضب رسول الله - ﷺ - ثم قال: (إني لأتقاكم لله ولا علمكم به).

وقد سمعت من يصل هذا الحديث ولا يحضرني ذكر من وصله (١) قال الشافعى: في ذكر قول النبي ﷺ (ألا أخبرتها أنى أفعل ذلك) دلالة على أن خبر أم سلمة عنه مما يجوز قبوله. لأنه لا يأمرها بأن تخبر عن النبي - ﷺ - إلا وفي خبرها ما تكون الحجة لمن أخبرته.

(١) قال الزرقانى فى شرح الموطأ ٩٢/٢ وصله عبد الرزاق بإسناد صحيح عن عطاء عن رجل من الأنصار ورواه الإمام أحمد فى المسند ٤٣٤/٥.

وهكذا خبر امرأته إن كانت من أهل الصدق عنده .

أخبرنا مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال :
(بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ أتاهم آت فقال : إن رسول الله - ﷺ -
- قد أنزل عليه قرآن وقد أمر أن يستقبل القبلة فاستقبلوها . وكانت وجوههم
إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة) .

وأهل قباء أهل سابقة من الأنصار وفقه وقد كانوا على قبلة فرض الله عليهم
استقبالها . ولم يكن لهم أن يدعوا فرض الله في القبلة إلا بما تقوم عليهم الحجة
ولم يلقوا رسول الله - ﷺ - ولم يسمعوا ما أنزل الله عليه في تحويل القبلة .
فيكونون مستقبلين بكتاب الله وسنة نبيه سماعا من رسول الله - ﷺ - ولا بخبر
عامة . وانتقلوا بخبر واحد إذا كان عندهم من أهل الصدق عن فرض كان عليهم
فتركوه إلى ما أخبرهم عن النبي - ﷺ - أنه أحدث عليهم من تحويل القبلة ولم
يكونوا ليفعلوه - إن شاء الله - بخبر إلا عن علم بأن الحجة تثبت بمثله إذا كان
من أهل الصدق .

ولا ليحدثوا أيضا مثل هذا الأمر العظيم في دينهم إلا عن علم بأن لهم
إحدائه ولا يدعون أن يخبروا رسول الله - ﷺ - بما صنعوا منه ولو كان ما قبلوا
من خبر الواحد عن رسول الله - ﷺ - في تحويل القبلة وهو فرض - مما يجوز لهم
لقال لهم - إن شاء الله - رسول الله - ﷺ - قد كنتم على قبلة . ولم يكن لكم
تركها إلا بعد علم تقوم عليكم به حجة من سماعكم مني أو خبر عامة أو أكثر
من خبر واحد عنى أ . هـ .

ثم أخذ الإمام الشافعي رضي الله عنه : يذكر من أحاديث رسول الله ﷺ
ومن آثار الصحابة والتابعين ما يستدل به على حجية تثبيت خبر الواحد . ثم هو
يبين دلالة كل خبر أو أثر في قوة وبيان منقطع النظير في كتاب الرسالة وفي سائر
كتبه الأخرى . ثم قال في الرسالة (١) :

وكل حديث كتبه منقطعا فقد سمعته متصلا أو مشهورا عن من روى

(١) الرسالة ص ٤٣١ العلمية .

(م ٨ - الإمام الشافعي)

عنه بنقل عامة من أهل العلم يعرفونه عن عامة . ولكنى كرهت وضع حديث لا أتقنه حفظا وغاب عني بعض كتبى وتحقت بما يعرفه أهل العلم مما حفظت فاختصرت خوف طول الكتاب فأتيت ببعض ما فيه الكفاية دون تقصى العلم فى كل أمره .

فقبل عمر خبر عبد الرحمن بن عوف ^(١) فى المجوس . فأخذ منهم وهو يتلو القرآن ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] ويقرأ القرآن بقتال الكافرين حتى يسلموا وهو لا يعرف فيهم عن النبى - ﷺ - شيئا . وهم عنده من الكافرين غير أهل الكتاب فقبل خبر عبد الرحمن - رضى الله عنه - فى المجوس عن النبى - ﷺ - فاتبعه .

وحديث بجمالة موصول فقد أدرك عمر بن الخطاب رجلا وكان كاتباً لبعض ولاته فإن قال قائل : قد طلب عمر مع رجل أخبره خبراً آخر .

قيل له : لا يطلب عمر مع رجل أخبره آخر إلا على أحد ثلاث معانى : إما أن يحتاط فيكون ، وإن كانت الحجة تثبت بخبر الواحد فخبر الإثنين أكثر وهو لا يريد أن يثبتها .

وقد رأيت ممن أثبت خبر الواحد من يطلب معه خبراً ثانياً ويكون فى يده السنة من رسول الله - ﷺ - من خمس وجوه فيحدث بسادس فيكتبه لأن الأخبار كلما تواترت وتظاهرت كان أثبت للحجة وأطيب لنفس السامع .

وقد رأيت من الحكام من يثبت عنده الشاهدان العدلان والثلاثة . فيقول للمشهود له : زدنى شهوداً . وإنما يريد بذلك أن يكون أطيب لنفسه ولو لم يزد المشهود له على شاهدين لحكم بهما .

ويحتمل أن يكون لم يعرف المخبر فيقف عن خبره حتى يأتى مخبر يعرفه ثم قال رضى الله عنه : ولكن أقول : لم أحفظ من فقهاء المسلمين أنهم اختلفوا فى

(١) روى الشافعى بسنده عن عمرو أنه سمع بجمالة يقول : (ولم يكن عمر أخذ الجزية حتى أخبره عبد الرحمن بن عوف أن النبى أخذها من مجوس هجر) هجر : هى قسبة بلاد البحرين .

تثبت خبر الواحد بما وصفت من أن ذلك موجودا على كلهم وقال : فلا يجوز عندي على عالم أن يثبت خبرا واحدا كثيرا ويحل به ويحرم ويرد مثله . إلا من جهة أن يكون عنده حديث يخالفه . أو يكون ما سمع ومن سمع منه أوثق عنده ممن حدثه خلافه . أو يكون من حدثه ليس بحافظ أو يكون متهما عنده . أو يتهم من فوقه ممن حدثه أو يكون الحديث محتملا معنيين فيتأول فيذهب إلى أحدهما دون الآخر . فأما أن يتوهم متوهم أن فقيها عاقلا يثبت سنة بخبر واحد مرة ومرارا ثم يدعها بخبر مثله وأوثق بلا واحد من هذه الوجوه التي تُشبه بالتأويل كما شُبّه على المتأولين في القرآن وتهمة المخبر أو علم بخبر خلافه - فلا يجوز إن شاء الله . ١ . ه .

هذا وقد كان الإمام الشافعي رضي الله عنه لا يقبل الرواية المرسلة ولا يحتج بها وقد صرح بذلك في مسنده الذي رواه عنه الربيع المرادي (١) . فقال : وقد رويت أحاديث مرسلّة عن النبي ﷺ في العقوبات وتوقيتها تركناها لانقطاعها ونقل البيهقي عنه كلاما في قبول مراسيل كبار التابعين وقال : فالشافعي رحمه الله يقبل مراسيل كبار التابعين إذا انضم إليها ما يؤكدها وإذا لم ينضم إليها ما يؤكدها لم يقبها سواء كان مرسل ابن المسيب أو غيره وهو ما ذكره الإمامان البيهقي وابن أبي حاتم رحمهما الله تعالى (٢) .

وقد انفرد الإمام الشافعي رضي الله عنه ببعض الآراء في مصطلح الحديث واشتهر عنه عدم التفريق بين قولهم « حدثنا » و« أنبأنا » وكان يعدّهما شيئا واحدا .

وقد ذكر ابن أبي حاتم والبيهقي أن الشافعي رجع عن ذلك إلى رأى المحدثين في التفريق بين الفعلين وكان يعرف الشاذ بمخالفة الثقة للثقات ولا يجيز اختصار الحديث (٣) .

(١) المسند ص ٤٦٤ .

(٢) المناقب للبيهقي ٣٢ / ٢ والمناقب لابن أبي حاتم ٢٣٢ .

(٣) المناقب للبيهقي ٣٠ / ٢ .

وكان الشافعي رضى الله عنه ينهى عن الرواية عن أهل العراق ومن قبلها
روى أبو عوانة قال : سمعت يونس بن عبد الأعلى يقول : قال لى الشافعي : ما
أتاك من هاهنا وأشار إلى العراق لا يكون له هاهنا أصل وأشار إلى الحجاز وإلى
المدينة فلا تعتد به .

قال أحمد : وقد رويانا في ذم رواية أهل العراق عن سعد بن أبي وقاص وابن
عمرو وعائشة ثم عن طاووس والزهرى وهشام بن عروة ومالك بن أنس وغيرهم .
وكان مالك بن أنس رحمه الله يقول : لم يأخذ أولونا عن أوليكم فكذا
آخرون لا يأخذون عن آخريكم .

ثم إن الشافعي أملى في ذلك ما أخبرنا أبو سعد أحمد بن محمد الماليني
قال : أخبرنا أبو أحمد بن عدى الحافظ قال : أخبرنا على بن أحمد المدائني قال :
أخبرنا بحر بن نصر قال أملى علينا الشافعي قال :

من عرف من أهل العراق ومن أهل بلدنا بالصدق والحفظ قبلنا حديثه .
ومن عرف منهم ومن أهل بلدنا بالغلط رددنا حديثه وما حابيننا أحدا ولا حملنا
عليه قال أحمد : وعلى هذا مذاهب أكثر أهل العلم بالحديث ، وإنما رغب بعض
السلف عن رواية أهل العراق لما ظهر من المناكير والتدليس في روايات بعضهم .

ثم قام بهذا العلم جماعة منهم ومن غيرهم فميزوا أهل الصدق من غيرهم
ومن دلس ممن يدلس وصفوا فيه الكتب حتى أصبح من عمل في معرفة ما
عرفوه وسعى في الوقوف على ما عملوه على خبرة من دينه وصحة ما يجب
الاعتماد عليه من سنة رسول الله ﷺ فله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة .

وروى عن حرملة بن يحيى قال : سمعت الشافعي يقول : لولا شعبة ما
عرف الحديث بالعراق فكان يجئ إلى الرجل ويقول : لا تحدث وإلا استعديت
عليك السلطان .

ثم قال البيهقي : فأما ترجيح رواية أهل الحجاز عند الاختلاف على رواية
غيرهم وأنهم أعلم بسنن رسول الله ﷺ من غيرهم فإليه ذهب أكثر أهل العلم
بالحديث . وروينا عن زيد بن ثابت أنه قال :

إذا رأيت أهل المدينة على شيء؟ فاعلم أنه السنة.

وقال عبد الله بن المبارك: حديث أهل المدينة أصح وإسنادهم أقرب واحتج الشافعي في القديم في ذلك بما روى عن النبي ﷺ أنه قال: (تعلموا من قريش ولا تعلموها، وقدموها ولا تقدموها).

وقال: (قوة الرجل من قريش مثل قوة رجلين من غيرهم) يعنى نبل الرأي وقال النبي ﷺ: (الإيمان يمان والحكمة يمانية) (رواه الشيخان).

قال الشافعي: ومكة والمدينة يمانيتان مع ما دل به على فضلهم في علمهم.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يوشك الناس أن يضربوا أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة) رواه أحمد والحاكم.

هذا وقد أملى الشافعي في الجديد أحاديث في فضائل قريش والأنصار وسائر قبائل العرب. وقصده من ذلك: ترجيح معرفتهم بالسنن على معرفة غيرهم^(١) اعلم أنه إذا ثبت صحة ورود الخبر عن رسول الله ﷺ فإنه يجب العمل به عند الإمام الشافعي رضي الله عنه. وكذا قال به الإمام أحمد بن حنبل وغيرهما لأن رفض العمل بالحديث الصحيح. رد لسنة صحيحة وهو أمر له طوره الإيمانية. لأن التصديق بنبوة النبي ﷺ تلزمنا بأن نأخذ عنه كل ما روى عنه قولا أو فعلا أو تقريرا أو صفة. قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾. وهكذا دافع إمامنا الشافعي رضي الله عنه عن السنة الشريفة بما لم يسبق بمثله. ولم يأت أحد من بعده مدافعا عنها إلا كان مقتبسا منه أو كان أضعف منه فإن كتابه القيم «الرسالة» قد تناول فيه قضية السنة تناولاً يندر أن يحدث من غيره. لذلك فانت تراه في كتبه ومؤلفاته عالم السنة بدون منازع وفارس ميدانها بدون مكافئ رحمه الله رحمة واسعة.

(١) راجع معرفة السنن والآثار للبيهقي ١/ ٨٥ - ٦٣ إذا أردت المزيد.

كَذِبُ الْمُفْتَرُونَ

لا يشك أحد من أهل العلم في علو مكانة الإمام الشافعي رضي الله عنه في بصيل وتدريس وإملاء العلوم الشرعية لأنه، أحد الأئمة الأربعة الذين يشار إليهم بالبنان.

وقد تجرأ بعض الحاسدين له، فاتهمه بالضعف في رواية الأحاديث الشريفة تفرده ببعض الآراء كالقنوت في صلاة الصبح وغيره واعتبروا ذلك نقيصة فيه. كتاب الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي تأليف: محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي. من بين الكتب المليئة بالافتراءات على بعض الأئمة من علماء التابعين وغيرهم وقد لمز فيه مؤلفه الإمام الشافعي في أمور عديدة في مواضع مختلفة واتهمه بالتقصير في رواية الحديث وضعف الأحاديث الواردة التي فهم منها العلماء أنها تشير إلى الشافعي ونفى أن يكون الإمام الشافعي لمقصود بها ولا عجب فالرجل ذو اتجاه متعصب من دعاة السلفية المعاصرة.

وأقول له ولغيره ممن رموا الإمام الشافعي رضي الله عنه بالتقصير أو بالجهل في رواية السنة: قفوا مكانكم وابكوا على ما أخطأتم فيه. فإن الإمام لم يكن كما نلتهم - ولكنه الحق الأعمى - فلقد كان إماما حافظا لعلوم الشريعة واللغة وغيرها. ورأى هؤلاء وأولئك رأي غير صحيح لما يلي:

أولا: لقد كانت السنة هي شغله الشاغل كما أنها كانت أول من عمل على تحصيله ودراسته بعد كتاب الله عز وجل. فلقد سمع الحديث وهو في سن لصبا والشباب من الأعلام، سمع بمكة من سفيان بن عيينة رضي الله عنه وسمع بالمدينة المنورة من الإمام مالك رضي الله عنه وهما أجل الأئمة في عصره ولقد روى عنه أنه قد حفظ «الموطأ» قبل أن يتصل بالإمام مالك.

ثانيا: لقد أسس الشافعي مذهبه في العقيدة والفقه على نصوص الكتاب ونصوص السنة. وقد توسع في ذلك كثيرا مما جعله ينكر على أهل الرأي آراءهم غير المؤسسة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وقد رد على الإمام مالك القول بالاستحسان وسد الذرائع والقول بعمل أهل المدينة لما رأى أن ذلك لا يستند على نص من الكتاب أو من السنة .
وفى سبيل ذلك وضع كتابيه : الرسالة والحجة للرد على أصحاب القول بالرأى .

ثالثا : لقد وضع كتابه « الرسالة » القديمة والجديدة فى علم أصول الفقه مبينا فى الرسالتين خطورة السنة فى التشريع وكيف أن التشريع الفقهي لا ينهض بغيرها ويقر أن الحديث • متواترا أو آحادا - طالما أنه قد ثبت صحة نقله عن رسول الله ﷺ فإنه يجب العمل به .

رابعا : مما يدل على صحة روايته للأحاديث ما ذكر فى كتبه إملاء وتدريسا من الأحاديث الشريفة مثل : المسند ، السنن ، اختلاف الحديث اختلاف مالك ، إبطال الاستحسان ، الأم .

إن كل هذه الكتب : بعضها فى جمع الأحاديث والبعض الآخر يتضمن بعض الأحاديث التى شهد لها العلماء الأجلاء بصحة الرواية فيها .

خامسا : الإمام الشافعى رضى الله عنه هو عالم قريش وفقهها الذى نبه عليه الرسول ﷺ فيما صحت روايته عنه . وليس ابن عباس رضى الله عنهما ولا غيره . لأن عليا بن أبى طالب كرم الله وجهه وابن عباس رضى الله عنهما كانا من الصحابة والصحابة رضى الله عنهم لم تكن لهم مذاهب مدونة . وفى مسائل العلم كان يكمل بعضهم البعض الآخر .

والحديث الوارد - لفظا ومعنى - يشير إلى عالم جمع الله له مسائل العلم ودقائقه ولم يحفظ العلماء لأحد من قريش مثل ما حفظوا للشافعى رضى الله عنه .

سادسا : الإمام الشافعى هو الإمام الوحيد الذى انضم إليه جمع كبير من علماء المذاهب الأخرى ، ولو كان مقصرا فى أى أمر لما انضم إليه هؤلاء العلماء وشهدوا له بالعلم والمعرفة وبعضهم أئمة أو بلغ مرتبة الإمامة .

يقول أبو بكر بن أبي داود سمعت أبي يقول : « ليس من العلماء أحد إلا
أخطأ في حديثه إلا بشر بن المفضل وما أعرف للشافعي حديثاً خطأ » .

ويقول أبو زرعة الرازي (ما عند الشافعي حديث غلط فيه) .

وقال أبو بكر بن الأثرم : قلت لأبي عبد الله بن حنبل : الشافعي كان
أحب حديث ؟ قال أبي : والله صاحب حديث .

وقال الحارث بن سريح سمعت يحيى بن سعيد القطان يقول : إني لأدعو
للشافعي وحده ولما قرأ الإمام عبد الرحمن بن مهدي الرسالة للشافعي قال (ما
لي صلاة إلا وأدعو للشافعي فيها) .

ويقول الإمام أحمد بن حنبل : (صاحب الحديث لا يشبع من كتب
شافعي) وقال غيره (لا يستغنى) .

وبعد فهذا قليل من كثير ولقد قام الإمام البيهقي رحمه الله تعالى بجهد
خم نرجو الله تعالى أن يدخره له عنده ، لقد دافع عن الإمام الشافعي دفاعاً مريراً
د كيد الكائدين ورد بغى الظالمين في أجل كتبه :

كتاب : معرفة السنن والآثار ، وهو مطبوع في خمس مجلدات .

وكتاب : بيان خطأ من أخطأ على الشافعي في مجلد واحد بتحقيق
كتور الشريف نايف الدعبس جزاه الله خيراً عن تعليقه وتحقيقه لهذا الكتاب
ظيم .

ففي هذين الكتابين ما يشفي العليل ويروى الظمان .

وأختم هذا بقول الإمام المزني تلميذ الشافعي رضي الله عنهما :

يقول المزني : (من شاء من خلق الله عز وجل ناظرته على خطأ الشافعي أن
طأ من الكاتب ليس منه) .

وهذا معناه أن البيهقي لم ينفرد وحده بالدفاع عن الإمام الشافعي رضي الله
عنه وإنما سبقه غيره .

وقديماً قالوا : (إن الشجرة المثمرة يكثر قذفها بالحجارة) .

والله ولي التوفيق ،

الإمام الشافعي وعلم الكلام

كان الإمام الشافعي رضي الله عنه يكره الاشتغال بعلم الكلام أو التحدث في مسائله، وقد أفتى بتحريم الاشتغال به.

قال يونس بن عبد الأعلى رحمه الله تعالى: أتيت الشافعي بعدما ناظر في الأصول مع (حفص الفرد) فقال: غبت عنا يا أبا موسى: ولقد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما توهمته قط ولأن يبتلى المرء بجميع ما نهى الله عز وجل عنه سوى الشرك بالله خير من أن يبتليه الله عز وجل بالكلام.

وروى عن أبي ثور عن الشافعي أنه قال: ما ابتدئ أحد بالكلام فأفلح وقال الحسن بن محمد الزعفراني: سمعت الشافعي يقول:

حكمي في أصحاب الكلام. أن يضرّبوا بالجريد. ويحملوا على الإبل منكسين ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام.

وروى الربيع عن الشافعي أنه قال: لو أن رجلاً أوصى بكتبه من العلم لأحد. وكان فيها كتب الكلام لم تدخل تلك الكتب في الوصية لأنها ليست من كتب العلم ولو أوصى لأهل العلم لم يدخل أهل الكلام في تلك الوصية وقال: لو علم الناس ما يحل بالعالم بالكلام من العذاب. لفروا منه كما يفر الإنسان من الأسد.

وقال: إياكم والنظر في الكلام فإن رجلاً لو سئل عن مسألة في الفقه فأخطأ فيها كما لو سئل عن رجل قتل رجلاً فقال: ديته بيضة. كان أكثر شيء أن يضحك منه، ولو سئل عن مسألة في الكلام فأخطأ فيها. نسب إلى البدعة.

وعن أبي ثور قال: قلت للشافعي: ضع في الكلام شيئاً. فقال: من تردى في الكلام لم يفلح.

وقال المزني: سمعت الشافعي يقول: الكلام يلعن أهل الكلام، وعن عبد

لله بن أحمد بن حنبل قال : سعت أبى يقول : خير خصلة فى الشافعى أنه ما كان يشتهى الكلام . إنما همته الفقه .

وعن الربيع عن الشافعى أنه قال : رأيت أهل الكلام يكفر بعضهم بعضا ورأيت أهل الحديث يخطئ بعضهم بعضا والتخطفة أهون من التكفير وروى أن الشافعى أنشد فى ذم الجدل فقال :

لم يبرح الناس حتى أحدثوا بدعا فى الدين بالرأى لم تبعث بها الرسل حتى استخف بدين الله أكثرهم وفى الذى حملوا من حقه شغل

ولم يصدر حكم الإمام الشافعى على علم الكلام والمتكلمين عن هوى أو عن جهالة وإنما علم ومعرفة ودراية بكل مسأله وقضاياه . ومنهج البحث فيه على طريقة المتكلمين .

وترجع أهم أسباب رفضه الاشتغال بعلم الكلم إلى أمرين :

الأول : إن الاشتغال بهذا العلم يأخذ بالإنسان إلى الهاوية والضلال فى بعض مسأله ، ولا فائدة ترجى من وراء البحث والجدل على طريقة المتكلمين إلا وراثه الشك والقلق .

الثانى : إن المعتزلة هم أول الناس اشتغالا بهذا العلم ، وهم الذين روجوا له وطلبوا من الخلفاء وخاصة فى الدولة العباسية حمل علماء المسلمين جميعا على الأخذ بآراء المعتزلة فى أمر العقيدة .

روى عن المزنى أنه قال : كنا على باب الشافعى رضى الله عنه نتناظر فى الكلام فخرج إلينا فسمع بعض ما كنا فيه فرجع عنا ثم خرج إلينا وقال : ما منعنى الخروج إليكم إلا أننى سمعتكم تتناظرون فى الكلام أتظنون أنى لا أحسنه ؟ لقد دخلت فيه حتى بلغت مبلغا عظيما . إلا أن الكلام لا غاية له . تناظروا فى شئ إن أخطأتم فيه يقال أخطأتم ولا يقال كفرتم . وعند الحاكم : ولا تناظروا فى شئ إن أخطأتم فيه يقال كفرتم قال البيهقى : وهذه الحكاية تدل على أن الشافعى كان عالما بهذا العلم . إلا أنه ما كان يفتح فيه باب المناظرة للخوف من المفاسد المتولدة منها . أ. ه .

إن ذم الشافعي رضي الله عنه لهذا العلم لم يكن رفضاً له أو جهلاً به .
ولكنه كان يكره طريقة المتكلمين وجدالهم، وإثارتهم للفتن وتعرضهم للكلام
في أمور تفرق كلمة الأمة، وتنزع عنها لباس الوحدة والألفة والمحبة، إنه كان
يحب البحث في علم الكلام (أصول الدين) بمنهج القرآن والسنة فالإمام رضي
الله عنه كان قرآني العقيدة بمعنى: أنه كان يرى أن في القرآن والسنة الكفاية في
أمور العقيدة الإسلامية، ولا يجوز للعقل أن يبحث ولا أن يجادل في أمورها لأنه
لا اجتهد في العقيدة. فهي تؤخذ من الوحي.

(وقد روى أن الإمام الشافعي رضي الله عنه كان له كتاب اسمه من نواذر
الأصول في علم التوحيد - الفقه الأكبر، شرح فيه علم التوحيد على هذا النحو:
شرائط وجوب المعرفة - معنى النظر - الخالق والمحدث - الوجدانية - ليس الله
بجوهر ولا جسم ولا عرض - الصفات والذات - صفة الكلام - الرؤية -
أفعال العباد الخلق لله والكسب للعبد لا يجب على الله شيء - خلق الله العالم لا
عن علة - البعث - النبوءات - المعجزات - عصمة الأنبياء - المعصية لا تنفي
الإيمان - الشفاعة - وجود الجنة والنار الآن - عذاب القبر - الميزان والصراط -
الإمامه) (١).

ومعنى هذا أنه كان يتكلم في العقيدة بمنهج الكتاب والسنة لا بمنهج
علماء الكلام لما رآه من الفتن العظيمة التي وقعت في ذلك الزمان بسبب خوض
المتكلمين في مسائل مبتدعة ومشاكل مصطنعة كما حدث من المعتزلة وغيرهم
من المبتدعة في مسألة خلق القرآن. وغيرها، وقد استعانوا في ذلك بجبروت
السلطان وقهروا أهل الحق ولم يلتفتوا إلى دلائل المحققين من علماء أهل السنة
حتى كانت محنة الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه (٢) فلما عرف الإمام
الشافعي رضي الله عنه أن البحث في هذا العلم في هذا الزمان ليس لله وإنما لدنيا
يطلبونها، كما أن البحث في هذا العلم لم يكن هدفاً للشافعي الذي كان هدفه

(١) راجع هامش مناقب الإمام الشافعي للرازي ص ٩٧ .

(٢) انظر حديث المحنة في كتابنا (الإمام أحمد بن حنبل) .

العلم بالسنن والأحكام والشرائع الفقهية لذلك ترك البحث في مسائل العقيدة - رغم علمه بها - وذر الكلاميين وكل من سلك سبيلهم. وكان ذمه لكلامهم المبتدع وليس لمسائل هذا العلم، يدل على ذلك ما رواه الحافظ البيهقي في مناقب الشافعي بإسناده عن المزني أنه قال: دار بيني وبين رجل مناظرة فسألني عن كلام - إن صح - كاد أن يشككني في ديني، فجئت إلى الشافعي فقلت له: كان من الأمر كيت وكيت. فقال الشافعي: (هذه مسألة الملحدين والجواب عنها كيت وكيت).

قال البيهقي: وهذا يدل على حسن معرفة الشافعي بالكلام فإنه لولا أن الأمر كذلك وإلا لما قدر على الجواب عن تلك الشبهة.

وإليك أخى القارئ بعض النماذج التي تدل في وضوح على أن الإمام الشافعي كان على معرفة تامة وحسنة بمسائل هذا العلم.

(١) الإيمان :

حدث الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص.

وحدث أيضا قال: حدثنا الشافعي في مسألة ذكرها في كتاب السنن وهكذا إن صلى فالصلاة من الإيمان.

وقال الشافعي في « الأم » في كتاب الصيد والذبائح في مسألة ذكرها: وأحب أن يكثر الصلاة عليه يعني على النبي ﷺ - فصلى عليه في كل الحالات. لأن ذكر الله والصلاة عليه. إيمان بالله وعبادة له يؤجر عليها إن شاء الله من قالها.

ثم ساق الكلام إلى أن قال: وما يصلى عليه أحد إلا إيمانا بالله وإعظاما له وتقربا إليه. وقرينا بالصلاة عليه منه زلفى (١).

وحدث أبو عثمان: محمد بن محمد الشافعي - ولد الإمام - قال: سمعت أبي محمد بن إدريس الشافعي يقول ليلة للحميدى: ما يحتج

(١) إنه يعتقد في صحة التوسل برسول الله ﷺ.

عليهم - يعني على أهل الإرجاء - أحج من قوله عز وجل: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وروى عن حرملة أنه قال: اجتمع حفص الفرد ومصلان الأثماطى عند الشافعى بمصر فتكلما فى الإيمان فاحتج مصلان فى الزيادة والنقصان واحتج الفرد فى الإيمان قولا فعلا حفص الفرد على مصلان وقوى عليه وضعف مصلان. فشق على الشافعى فأخذ المسألة على أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص فطحن حفص الفرد وقطعه (١). ١. هـ.

وروى عن أبى محمد الزبيرى قال:

قال رجل للشافعى: أى الأعمال عند الله أفضل؟

قال الشافعى: ما لا يقبل الله عملا إلا به. قال: وما ذاك؟

قال: الإيمان بالله الذى لا إله إلا هو أعلى الأعمال درجة وأشرفها منزلة وأسنها حظا.

قال الرجل: ألا تخبرنى عن الإيمان. قول وعمل. أو قول بلا عمل؟.

قال الشافعى: الإيمان عمل لله. والقول بعض ذلك العمل.

قال الرجل: صف لى ذلك حتى أفهمه.

قال الشافعى: إن للإيمان حالات ودرجات وطبقات فمنها التام المنتهى تمامه والناقص البين نقصانه. والراجع الزائد رجحانه.

قال الرجل: وإن الإيمان ليتم وينقص ويزيد؟ قال الشافعى: نعم.

قال: وما الدليل على ذلك؟.

قال الشافعى: إن الله جل ذكره فرض الإيمان على جوارح بنى آدم فقسمه

فيها. وفرقه عليها فليس من جوارحه جارحة إلا وقد وكلت من الإيمان بغير ما وكلت به أختها. بفرض من الله تعالى.

(١) مناصرة الشافعى لمصلان فى كون الأعمال من الإيمان لأن مصلان من الإباضية وهم يرون العمل من الإيمان.

ثم أخذ يبين ذلك للرجل فى تفصيل وشرح إلى أن قال :

ولو كان هذا الإيمان واحدا لا نقصان فيه ولا زيادة لم يكن لأحد فيه فضل واستوى الناس وبطل التفضيل ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة . وبالإضافة فى الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله فى الجنة . وبالنقصان من الإيمان دخل المفرطون النار ١ هـ .

وقال الشافعى أيضا : إن الله جل وعز . سابق بن عبادة كما سبق بين الخيل يوم الرهان ثم إنهم على درجاتهم من سبق عليه فجعل كل امرئ على درجة سبقه لا ينقصه فيها حقه . ولا يقدم مسبوق على سابق ولا مفضل على فاضل وبذلك فضل أول هذه الأمة على آخرها ولو لم يكن لمن سبق إلى الإيمان فضل على من أبطأ عنه للحق آخر هذه الأمة بأولها .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : قد رأيت هذا الجواب عن الإيمان « لابن عبيد » أبسط من هذا . فإن صحت الحكايتان فيحتمل أن يكون أبو عبيد أخذه من الشافعى ثم زاد فى البيان ، ويحتمل أن يوافق قول قولا . والله أعلم .

إن الإمام الشافعى رضى الله عنه قد قال فى الإيمان بمثل ما كان يعتقده السلف الصالح رضى الله عنهم ويقولون به (الإيمان قول وعمل يزيد وينقص) .

قال الإمام البغوى رحمه الله فى السنة : (اتفقت الصحابة والتابعون فمن بعدهم من علماء السنة على أن الأعمال من الإيمان ، وقالوا : إن الإيمان قول وعمل وعقيدة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية) .

وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام - رحمه الله - (فالأمر الذى عليه أهل السنة عندنا ما نص عليه علماءنا مما اقتصصنا فى كتابنا هذا : أن الإيمان بالنية والقول والعمل جميعا وأنه درجات بعضها فوق بعض) وقال الحافظ أبو القاسم اللالكائى :

(سياق ما روى عن النبى ﷺ فى أن الإيمان تلفظ باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح) .

وقد ذكر فى هذا الأمر روايات كثيرة من الحديث وأقوال الصحابة والتابعين وقال الأجرى فى الشريعة : (اعلموا رحمنا الله وإياكم أن الذى عليه علماء

المسلمين : أن الإيمان واجب على جميع الخلق وهو تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح .

ثم اعلّموا أنه لا تجزئ المعرفة بالقلب والتصديق إلا أن يكون معه الإيمان باللسان نطقاً ، ولا تجزئ معرفة بالقلب ونطق باللسان حتى يكون عمل بالجوارح فإذا كملت هذه الخصال كان مؤمناً .

دل على ذلك الكتاب والسنة وقول علماء المسلمين .

وروى عن شيخ المحدثين والحفاظ الإمام البخاري رضي الله عنه أنه قال :
(لقيت أكثر من ألف رجل من أهل العلم .. أن الدين قول وعمل) (١) .

وقد نقل البغوي والبيهقي وابن عبد البر الإجماع على أن الإيمان قول وعمل وروى عن عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل رحمهما الله تعالى بسنده عن عبد الرزاق قال : (كان معمر وابن جريج والثوري ومالك وابن عيينة يقولون :

الإيمان قول وعمل يزيد وينقص . قال عبد الرزاق : وأنا أقول ذلك : الإيمان قول وعمل والإيمان يزيد وينقص فإن خالفته فقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين) هذا وقد قال الحافظ اللالكائي رحمه الله :

قال الشافعي رحمه الله في كتاب الأم في باب النية في الصلاة : نحتج بأنه لا تجزئ صلاة إلا بنية لحديث عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات) ثم قال : وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ممن أدركناهم أن الإيمان : قول وعمل ونية لا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر .

وحدث الربيع قال : سمعت الشافعي يقول : (الإيمان قول وعمل واعتقاد القلب ألا ترى قول الله عز وجل ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ يعني صلاتكم إلى بيت المقدس فسمى الصلاة إيماناً وهي قول وعمل وعقد) ذكره ابن عبد البر في الانتقاء .

وروى أبو نعيم في حلية الأولياء بسنده عن الربيع بن سليمان قال :

سأل رجل من أهل بلخ الشافعي عن الإيمان . فقال للرجل : فما تقول أنت

(١) فتح الباري ٤٧/١ .

فيه؟ قال أقول: إن الإيمان قول. قال: ومن أين قلت؟ قال: من قول الله تعالى: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات - فصار الواو فصلا بين الإيمان والعمل فالإيمان قول والأعمال شرائعه.

فقال الشافعي: وعندك الواو فصل؟ قال: نعم: قال: فإذا كنت تعبد إلهين إلهاً في المشرق وإلهاً في المغرب. لأن الله تعالى يقول: ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾ فغضب الرجل وقال: سبحان الله أجعلتني وثنياً؟ فقال الشافعي: بل أنت جعلت نفسك كذلك قال: كيف؟ قال: بزعمك أن الواو فصل. فقال الرجل: فإنني أستغفر الله مما قلت. بل لا أعبد إلا رباً واحداً ولا أقول بعد اليوم إن الواو فصل بل أقول: إن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص. قال الربيع: فأنفق على باب الشافعي مالا عظيماً وجمع كتب الشافعي وخرج من مصر سنياً. أ. هـ.

فهذا الذي روى عن الشافعي رضي الله عنه ليس بدعا من القول ولا هديانا ذكر الآجري في الشريعة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول لأصحابه (هلموا نزداد إيماناً فيذكرون الله عز وجل).

وقال ابن عباس وأبو هريرة رضي الله عنهما (الإيمان يزداد وينقص).

وروى في صحيح البخاري رحمه الله: باب زيادة الإيمان ونقصانه وقول الله تعالى ﴿وزدناهم هدى﴾ ﴿ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾ ﴿فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم﴾ فإذا ترك شيئاً من الكمال فهو ناقص. أ. هـ.

وخلاصة قول الشافعي رضي الله عنه في الإيمان ما ذكره في كتاب الفقه الأكبر. ونصه: فصل في الإيمان: واعلموا أن الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان، ثم الإيمان أصل وفرع؛ فأصله: ما إذا تركه العبد كفر كالمعرفة والتصديق، واعتقاد ما يجب اعتقاده من أحكام المكلفين، وفرعه: إذا ما تركه العبد لم يكفر، ولكن يعصى في ترك البعض، كالصلوات المفروضة وغيرها من الواجبات^(١).

● الاستثناء في الإيمان :

اختلف العلماء حول هذه القضية، جوز ذلك بعضهم ومنعه آخرون.

(١) هامش مناقب الإمام الشافعي للرازي ص ١٢٢.

قال الإمام الآجری فی کتابه « الشریعة » (١) رحمه الله تعالى : من صفة أهل الحق ممن ذكرنا من أهل العلم : الاستثناء في الإيمان لا على سبيل الشك نعوذ بالله من الشك في الإيمان ولكن خوف التزكية لأنفسهم من الاستكمال للإيمان لا يدري أهو ممن يستحق حقيقة الإيمان أم لا . وذلك أن أهل العلم من أهل الحق إذا سئلوا أمؤمن أنت ؟ قال : آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار وأشباه هذا والناطق بهذا والمصدق به بقلبه مؤمن . وإنما الاستثناء في الإيمان لا يدري أهو ممن يستوجب ما نعت الله عز وجل به المؤمنين من حقيقة الإيمان أم لا .

هذا طريق الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان عندهم أن الاستثناء في الأعمال لا يكون في القول والتصديق بالقلب وإنما الاستثناء في الأعمال الموجبة لحقيقة الإيمان .

والناس عندهم على الظاهر مؤمنون به يتوارثون ، وبه يتناكحون وبه تجرى أحكام ملة الإسلام . أ . ه .

فما ذكره الآجری رحمه الله تعالى هو ما قال به سلف الأمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم والأئمة الأعلام من الفقهاء والمحدثين رضي الله عنهم أجمعين .

روى أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله تعالى بسنده أن رجلاً قال عند ابن مسعود رضي الله عنه : أنا مؤمن . فقال ابن مسعود : أفأت من أهل الجنة ؟ فقال : أرجو . فقال ابن مسعود : أفلا وكلت الأولى كما وكلت الأخرى .

وروى عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه قال : سمعت يحيى بن سعيد يقول : (ما أدركت أحداً إلا على الاستثناء) .

وهذا مقرر في كتاب الله عز وجل وفي سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى : ﴿ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ [الفتح : ٢٧] .

(١) الشريعة ص ١٣٦ .

وقال ﷺ في السلام على أهل القبور: (السلام عليكم دار قوم مؤمنين. إنا إن شاء الله بكم لاحقون) (١).

وقال قال الإمام الشافعي رضي الله عنه بجواز الاستثناء في الإيمان.

قال أبو البقاء الفتوحى الحنبلى رحمه الله تعالى: ويجوز الاستثناء فيه أى في الإيمان بأن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، نص على ذلك الإمام أحمد والإمام شافعي وحكى عن ابن مسعود رضي الله عنهم، وقد عاب بعض العلماء على إمام الشافعي القول بجواز الاستثناء في الإيمان يرد هذا الاعتراض على الشافعي رضي الله عنه الإمام الفخر الرازى رحمه الله (٢) فيقول: عابوا على الشافعي قوله: أنا مؤمن إن شاء الله.

والجواب: أن هذا القول منقول عن كثير من السلف. قيل للحسن: أمؤمننت؟ فقال: إن شاء الله، فقليل له: تستثنى يا أبا سعيد في الإيمان؟ فقال: أخاف أن أقول: نعم. فيقول الله: كذبت.

وقال إبراهيم: إذ قيل لك: أمؤمن أنت؟ فقل: لا إله إلا الله، وقال مرة أخرى قل: أنا لا أشك في الإيمان. وسؤالك إياي بدعة.

وقيل لعلقمة: أمؤمن أنت؟ فقال: أرجو إن شاء الله. وقال: سفيان الثوري بن قال: أنا مؤمن عند الله فهو من الكذابين. ومن قال: أنا مؤمن حقا. فهو بتدع - هكذا حكى البيهقي في هذا الباب عن السلف.

والإشكال فيه: أنه إن كان الرجل جازما بكونه مؤمنا، كان توقفه باطلا لأنه من كان مؤمنا في نفسه كان مؤمنا عند الله، كما أن من كان طويلا أو شيخا في نفسه كان عند الله كذلك. وإن كان شاكاً في إيمانه كان غير مؤمن.

وجوابه: إن هذا الاستثناء ليس للشك بل لوجوه أخرى هي:

(١) إن الإيمان أفضل الصفات. فإذا قال الرجل. أنا مؤمن حقا فقد وصف نفسه بأفضل الصفات فكان هذا تزكية للنفس وتزكية النفس مذمومة، قال الله

(١) مسلم ٢١٨/١.

(٢) مناقب الإمام الشافعي ص ١٣٧ - ١٣٩.

تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [النساء: ٤٩] فالمقصود من قولنا: إن شاء الله هضم النفس وترك تزكيتها.

(ب) المقصود منه التأديب بذكر الله تعالى في جميع الأمور قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ - ٢٤] ثم لم يقتصر على ذلك في حق العباد. بل ذكر ذلك في كلام نفسه فقال: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧] وكان تعالى عالما بأنه يدخل لا محالة، وكان النبي ﷺ إذا دخل المقابر قال: (السلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله عن قريب بكم لاحقون) وهذا اللحوق غير مشكوك فيه، لكن المقصود رعاية الأدب فكذاك ههنا.

(ج) إنه تعالى شرف قوما بقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾

[الأنفال: ٤]

والمقصود منه، كونهم كاملين في نتائج الإيمان وثمراته فقولنا: أنا مؤمن إن شاء الله. عائد إلى كمال حال الإيمان. وذلك الكمال هو فعل الطاعات والاجتناب عن المحرمات ويدل عليه. قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ١٥]. وقال عليه الصلاة والسلام: (الإيمان بضع وسبعون بابا).

فقولنا: إن شاء الله. عائد إلى الشك في حصول هذه الكمالات.

(د) إن الإيمان عند الشافعي اسم لمجموع الإقرار والاعتقاد والعمل، ولا شك أن العمل قد يوجد وقد لا يوجد. فكان المراد بقولنا: إن شاء الله ليس هو الشك في الاعتقاد والإقرار بل الشك في كمال الأعمال بلى من كان مذهبه أن الإيمان هو التصديق بالقلب فقط. لم يجز له أن يقول: إن شاء الله، وأما الشافعي فلما كان مذهبه أن الإيمان اسم لمجموع هذه الثلاثة كان الشك قائما في العمل فكان الاستثناء حسنا جائزا.

(هـ) أن يكون المراد منه خوف الخاتمة أى : إن شاء الله أكون مؤمنا فى آخر حياة . والدليل عليه . قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام قال : ﴿ إِنِّي نَقِيمٌ ﴾ [الصفات : ٨٩] وهو ما كان سقيما فى تلك الحالة لكنه لما علم أنه سيصير نقيما حسن قوله ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ ألا ترى أن الرجلين إذا تصارعا وعلم من حال أحدهما أنه ينصرع فقد يقال قبل انصراعه . إنه منصرع وإنه مغلوب بمعنى أنه سيصير كذلك ، فهنا قوله : أنا مؤمن إن شاء الله أى أبقي مؤمنا عند الموت إن شاء الله . ١ . هـ .

وخلاصة القول فى هذا الأمر هو ما ذكره الإمام الشافعى رضى الله عنه فى كتابه الفقه الأكبر ونصه :

(واعلموا أن قول أهل السنة والجماعة : أنا مؤمن إن شاء الله تعالى ، ليس به شك فى الإيمان الحاصل الحاضر لهم وإنما الشك فى الإيمان المثاب عليه ، فذلك نوط بالعاقبة . والعاقبة مغيبة عنا فالشك واقع فى المغيب لا فى الحاصل لوجود) .

● الفرق بين الإسلام والإيمان :

اختلف سلف الأمة حول هذه المسألة فمنهم من قال بأنهما اسمان لمسمى واحد . ومنهم من قال : إنهما شيئان متغايران ، قال الزهرى : (الإسلام هو الكلمة الإيمان العمل) .

ومن قال بالرأى الأول الإمام الشافعى رضى الله عنه ، والإمام البخارى رضى الله عنه والإمام محمد بن نصر المروزي رحمه الله تعالى وغيرهم مستدلين بقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

ومن يقول بالرأى الثانى : الزهرى وأحمد بن حنبل وابن منده رضى الله عنهم ، قال عبد الملك الميمونى : سألت أحمد بن حنبل : أتفرق بين الإيمان الإسلام فقال لى نعم . قلت له باى شئ نحتج ؟ قال لى : قال الله عز وجل :

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] وقال :
وأقول مؤمن إن شاء الله . وأقول : مسلم ولا أستثنى . ١. هـ .

إن الإمام الشافعي رضي الله عنه يرى أن الإيمان والإسلام اسمان لمسمى واحد - كما أسلفنا - .

قال الزعفراني : قال أبو عبد الله الشافعي . وفي هذا الحديث والذي قبله -
أي حديث الجارية - الدلالة على أن وصف الإسلام إسلام يوجب لصاحبه اسم
الإسلام . والإسلام : إيمان قال البيهقي : وفي هذا إشارة من الشافعي رحمه الله إلى
أن الإيمان والإسلام اسمان لمسمى واحد . إذا كانا حقيقة أو كانا باللسان دون
العقيدة في حقن الدم وإنما يفترقان إذا كان أحدهما حقيقة والآخر بمعنى
الاستسلام خوفا من السيف . ١. هـ .

(٢) دليل الوجدانية :

روى محمد بن إسماعيل بن الحبال الحميري عن أبيه قال :

كان محمد بن إدريس الشافعي رجلا شريفا فذكر الحكاية في ابتداء تعلمه
ورحلته إلى مالك بن أنس . ثم خروجه إلى اليمن ثم حملة إلى العراق ثم رجوعه
ثم حملة إلى العراق مرة أخرى مقيدا واجتماعه مع محمد بن الحسن وبشر
المريسي . في مجلس هارون الرشيد .

قال : فقال له بشر : أخبرني ما الدليل على أن الله تعالى واحد ؟

فقال الشافعي : يا بشر . ما تدرك من لسان الخواص فأكلمك على لسانهم
إلا أنه لا بد لي من أن أجيبك على مقدارك من حيث أنت الدليل عليه به ومنه
وإليه . واختلاف الأصوات من المصوت إذا كان المحرك واحدا دليل على أنه واحد .
وعدم الضد في الكلام على الدوام دليل على أن الله واحد وأربع نيرات مختلفات
في جسد واحد متفقات الدوام على تركيبه في استقامة الشكل . دليل على أن
الله واحد . وأربع طبائع مختلفات في الخافقين أضداد غير أشكال مؤلفات على
إصلاح الأحوال . دليل على أن الله واحد .

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي

فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ [البقرة: ١٦٤].

كل ذلك دليل على أن الله واحد لا شريك له .

فقال له بشر: وما الدليل على أن محمدا رسول الله؟

قال: القرآن المنزل وإجماع المسلمين عليه . والآيات التي لا تليق بأحد غيره - يعنى المعجزات التي ظهرت عليه دون غير - وتقرير المعلوم فى كون الإيمان بدليل واضح دليل على أن رسول الله ﷺ لا بعده مرسل نقر له .

وذكر باقى الحكاية وفيها: فقال له بشر: ادعيت الإجماع فهل تعرف شيئا أجمع الناس عليه؟ قال: نعم . أجمعوا على أن هذا الحاضر أمير المؤمنين فمن خالفه قتل فضحك الرشيد وأمر بأخذ القيد عن رجله وخلع عليه وأمر له بخمسين ألف درهم .

قال البيهقى رحمه الله وقد أخبرنى به الثقة من أصحابنا أن أبا نعيم أنبأه إجازة فذكره .

لقد بين هذه الدلائل وفسرها الإمام فخر الدين الرازى رحمه الله تعالى قال: إن الشافعى ذكر أنواعا من الدلائل فيجب علينا أن نفسرها أولا . ثم نبين دلالتها على الوحدةانية ثانيا .

النوع الأول: مما ذكره هو اختلاف الأصوات من المصوت .

أعلم: أن الأعضاء التي هى الآلات فى تكوين الأصوات والحروف . أعضاء مخصوصة وهى: الحلق والحنجرة واللسان والأسنان والشفتان . ثم إنك ترى جميع الناس مع اشتراكهم فى هذه الآلات مختلفين فى الأصوات حتى أنك لا ترى فى الدنيا إنسانين يتشابه صوتاهما من جميع الوجوه فلولا أن الصانع القادر الحكيم خصص خلق كل إنسان وحنجرته ولسانه وأسنانه وشفتيه بكيفيات مخصوصة لأجلها صار هو مختصاً بذلك الصوت المعين . وإلا لم يحصل ذلك

الاختصاص ولا يمكن إضافة تلك الاختصاصات إلى طبيعة النطفة والرحم والطبائع والأفلاك والأنجم فإن نسبته الكل إلى الكل على السوية فلم يبق إلا الجزم باستنادها إلى الفاعل المختار وكما أنك لا تجد في الدنيا إنسانين يتشابه صورتاهما من جميع الوجوه. وذلك أيضا من أعظم الدلائل على الصانع الحكيم.

وإلى هذين النوعين من الدلالة الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَإِخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢].

النوع الثاني: قوله: عدم الضد في الكل على الدوام.

وتفسيره: إن بدن كل إنسان ينتقل من حال إلى حال. مثل: أن يكون صبيا ثم شابا ثم كهلا. ثم شيخا، وأيضا: يكون سمينا ثم يصير هزيلا. وبالضد ويكون حارا ثم يصير باردا وبالضد. ثم إنا نرى الإنسان مع اختلاف هذه الأحوال باقيا على نهجه الأول في الصوت والصورة. ولو كانت هذه الأحوال معللة بما فيه من الطبائع والأمزجة لوجب اختلافها عند اختلاف الأحوال الطبائع والأمزجة.

ولما رأينا أن الصوت والصورة باقيتان مصونتان عن الضد مع اختلاف هذه الأمور. علمنا: أن بقاءهما بسبب أن الفاعل الحكيم المختار يبقيهما على تلك الأحوال والهيئات.

النوع الثالث: قوله: وأربع نيرانيات مختلفات في جسد واحد متفقات على ترتيبه على استقامة الشكل. دليل على أنه واحد.

وتفسيره: أن في البدن نيرانا أربعة:

أحدها: نار الشهوة. وهي الحرارة التي تثور في بدن الإنسان عند قضاء الشهوة من الجماع.

وثانيها: حرارة الغضب. وهي الحرارة التي تثور عند استيلاء الغضب.

وثالثها: الحرارة القائمة بأعضاء الغذاء وهي الحرارة الغريزية المؤثرة في هضم الغذاء.

ورابعها : الحرارة الغريزية المتولدة في قلبه . وهي الحرارة المؤثرة التي بها يتم أمر الحياة .

فهذه الأنواع الأربعة من الحرارة : نيران مختلفة بالماهية . ثم إنها اجتمعت في بدن الإنسان وتبقى كل واحدة منها على صفتها المخصوصة وطبيعتها المخصوصة . وهي كامنة في بدن الإنسان . لا تظهر إلا عند وقت الحاجة إليها ، ثم إنها مع اختلافها وتباينها متوافقة متعاونة على تحصيل مصلحة الإنسان . وموجبة لاستقامة سلامة ذلك الجسد .

النوع الرابع : قوله : وأربع طبائع مختلفات في الخافقين . أضداد غير أشكال مؤلفات على صلاح الأحوال .

وتفسيره : أن أبدان الحيوانات - على قول الأطباء - متولدة من الأرض والماء والهواء والنار . ومن الأخلاط الأربعة . وهي : الصفراء . والسوداء والبلغم . ثم إنها أضداد - متغايرة - متنافرة . متعاندة بطبائعها فاجتماعها في لبدن الواحد . لا بد وأن يكون بقدره قدرة وتدبير مدبر قدير وما ذلك إلا صانع الحكيم ، وإذا عرفت تفسير هذه الكلمات فنقول : إنها دالة على وجود صانع القديم وكمال قدرته وعلمه وحكمته . وهي أيضا : دالة على كون الصانع واحدا ، لأنه لو كان الصانع أكثر من واحد . لما حصل هذا النظام في المخلوقات . لكان يحصل الفساد . كما قال الله تعالى ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَنَسَدْتَا ﴾ [الأنبياء : ٢٢] .

فثبت بما ذكرنا أن الوجوه التي ذكرها الشافعي : دالة على وحدانية الصانع لثل هذا التقدير قال تعالى : ﴿ وَالْهَكْمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ . احتج على وحدانيته بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ إلى ﴿ لَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

ومعلوم : أن دلالة هذه الأشياء على صحة قوله تعالى ﴿ وَالْهَكْمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ ست إلا بالطريق الذي ذكرناه .

فثبت : أن كلام الشافعي في هذا الباب على وفق دلائل القرآن من غير تفاوت أصلا .

ثم قال الرازي رحمه الله تعالى : وأقول : الدليل على نبوة محمد ﷺ إما القرآن . وإما سائر المعجزات .

أما القرآن : فدلالته على نبوة - محمد عليه السلام - موقوفة على مقدمتين :

إحدهما : أن القرآن معجزة في نفسه . وإليه الإشارة بقول الشافعي : (القرآن المنزل) .

والمقدمة الثانية : كون القرآن مختصا بمحمد - عليه السلام - بمعنى أنه ظهر عليه ولم يظهر على غيره . وذلك لا يعلم إلا بالتواتر . وإليه الإشارة بقوله (وإجماع الناس إذ لا ينبغي أن يظن بالشافعي أنه جعل اتفاق أمة محمد عليه السلام على نبوته دليلا على نبوته فإن فساد هذا مما لا يخفى على الصبيان فكيف على شيخ العلماء وإمام أهل الدين .

وأما قوله : (والآيات التي لا تليق بأحد غيره) فهو إشارة إلى ما سوى القرآن من المعجزات . فهذا تفسير هذه الكلمات (القليلة) على ما خطر بالبال والله أعلم بالمراد على سبيل الحقيقة .

وكان الإمام الشافعي - رضى الله عنه - في هذه الكلمات القليلة أكثر مما ذكره المتكلمون في الكتب الطويلة . وهذا يدل على أنه كان متقنا في علم الأصول والله الموفق (١) . هـ .

وذكر البيهقي في مناقب الشافعي رضى الله عنه قال : قال الشافعي في تحميد ربه عز وجل قال الله تبارك وتعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١] .

قال الشافعي : والحمد لله الذي لا يؤدي شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة منه

(١) مناقب الإمام الشافعي من ١٠٢ إلى ١٠٧ .

توجب على مؤدى ماضى نعمه بأدائها . نعمة حادثة يجب عليه شكره بها ولا يبلغ الواصفون كنه عظمتها الذى هو كما وصف نفسه وفوق ما يصفه به خلقه .

وأحمده حمدا كما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله . وأستعينه استعانة من لا حول له ولا قوة إلا به . وأشهد بهديه بهداه الذى لا يضل من أنعم به عليه وأستغفره لما أزلفت وأخرت استغفار من يقر بعبوديته ويعلم أنه لا يغفر ذنبه ولا ينجيه منه إلا هو . وأشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له . وأن محمدا عبده ورسوله .

ثم ساق الكلام إلى آخره - مقدمة كتاب الرسالة .

ثم قال : وقال فى كتاب (الرسالة القديمة) : وأنا أسأل الله المبتدئ لنا بنعمه قبل استحقاقها . المديمها علينا بإفضاله مع تقصيرنا الجاعلنا فى خير أمة أخرجت للناس . أمة خير خلقه : محمد عبده ورسوله ﷺ . أن يأخذ بأسماعنا وقلوبنا وألسنتنا إلى طاعته . وأن يملك لنا أنفسنا وألسنتنا وجميع جوارحنا عما يخالف طاعته . وأن لا يكلنا إلى أنفسنا . فإنه إن وكلنا إليها وكلنا إلى غير كاف . وأن يحضرنا العصمة والتوفيق . وينطق ألسنتنا بالحق الذى لا تخطئه الشبه ولا تميل به الأهواء ولا تخونه الغفلات وله دعوات حسان قد نقلت أكثرها إلى كتاب الصلاة والحج من كتاب المعرفة وبالله التوفيق والعصمة أ . ه .

(٣) أسماء الله وصفاته عز وجل :

مسألة الأسماء والصفات اختلف حولها المتكلمون سلفهم وخلفهم إن كل فرقة من الفرق الكلامية قد تناولت هذه المسألة تناولا خاصا لعب العقل فيه دورا كبيرا وغاب فيه النص عند فرق عديدة وأتى بعد العقل عند المعتزلة والقدرية واختلطت المفاهيم عند سلفية هذا العصر .

أما الإمام الشافعى رضى الله عنه فإنه قد تكلم فى مسألة الأسماء والصفات بمنهج سلف الأمة ، من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم .

قال الشافعى رحمه الله تعالى فى كتابه « الفقه الأكبر » :

(وهذه صفات أزلية موجودة بذاته ، يعنى : ليست بعرض حادثة ولا

محدثة لم يزل ولا يزال بهذه الصفات، ولا يشبه شيء منها شيئاً من صفات المخلوقات كما لا تشبه ذاته . ذات المخلوقين).

وقال الفخر الرازي رحمه الله ^(١) : اعلم : أن الصفات، إما صفات الجلال وإما صفات الإكرام.

أما صفات الجلال : فالمراد منها : تنزيهه تعالى عن الجسمية والجوهرية والمكان وذكر الشافعي في خطبة كتاب « الرسالة » أنه لا يبلغ الواصفون كنه عظمته وأنه كما وصف نفسه وفوق ما يصفه به خلقه .

وهذا الكلام يدل على أنه كان يعتقد أنه تعالى ليس بجسم ولا في جهة وإلا لبغ الواصفون كنه عظمته . وهذا القدر، وإن كان كلاماً قليلاً إلا أنه كاف في الغرض . كما أن قوله تعالى ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ كاف في هذا الغرض .

وأما صفات الإكرام : فالمراد منها كونه تعالى قادراً عالماً حياً .

واعلم أنه ذكر في كتاب « الإيمان » : (أن من حلف بشيء غير الله تعالى فلا كفارة عليه كما إذا قال : والكعبة ورأس فلان) .

ثم قال : (من حلف بعلم الله وبقدرة الله وبحق الله فإن أراد بعلم الله معلومه وبقدرة الله : مقدوره وبحقه : ما وجب له تعالى على العباد فهذا لا يوجب الكفارة، لأن هذا حلف بغير الله تعالى وإن أراد به : الحلف بصفات الله فهذا يوجب الكفارة) .

قال الأصحاب : وهذا يدل على أن صفات الله تعالى عنده ليست أغياراً لذاته، لأنه لما زعم أن الحلف بغير الله لا يوجب الكفارة . وزعم أن الحلف بصفات الله يوجب الكفارة . كان هذا دليلاً على أنه يعتقد أن صفات الله تعالى : ليست أغياراً لذاته .

فإن قيل : فلعله كان يعتقد أن صفات الله عز وجل هي عين ذاته .

قلنا : هذا باطل في بديهة العقل، لأن وصف الشيء بعين ذاته محال في

(١) مناقب الإمام الشافعي ١٠٨ ، ١٠٩ .

العقول ووصفه تعالى بأنه عالم قادر غير ممتنع في العقول، فهذا يدل على أن هذه الأوصاف ليست غير ذاته ولا عين ذاته . أ . هـ .

وروى البيهقي في المناقب قال : حدث يونس بن عبد الأعلى قال : سمعت الشافعي رحمه الله يقول : (إذا سمعت الرجل يقول : الاسم غير المسمى فاشهد عليه بالزندقة) .

ومن صفات الله تعالى صفة الكلام ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ .

والقرآن الكريم كلام الله عز وجل القديم غير مخلوق .

روى أبو يحيى الساجي إجازة قال : سمعت أبا سعيد المصري يقول : سمعت محمد بن إدريس الشافعي يقول : القرآن - كلام الله تعالى . غير مخلوق وروى ابن خزيمة قال : سمعت الربيع يقول :

لما كلم الشافعي رحمه الله حفص الفرد . فقال حفص : القرآن مخلوق قال الشافعي : كفرت بالله العظيم .

وعن أبي محمد الزبيري قال : قال رجل للشافعي : أخبرني عن القرآن - نالق هو ؟ .

قال الشافعي : اللهم لا . قال : فمخلوق ؟ قال الشافعي : اللهم لا .

قال : فغير مخلوق . قال الشافعي : اللهم نعم . قال : فما الدليل على أنه غير مخلوق ؟ .

فرفع الشافعي رأسه ، وقال : تقر بأن القرآن كلام الله ؟ قال : نعم .

قال الشافعي : سبقت في هذه الكلمة . قال الله تعالى ذكره ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٦] وقال ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٤] .

قال الشافعي : فتقر بأن الله كان وكان كلامه ، أو كان الله ولم يكن كلامه ؟ .

فقال الرجل : بل كان الله وكان كلامه ، قال : فتبسم الشافعي وقال : يا

كوفيون : إنكم لتأتونني بتعظيم من القول إذا كنتم تقولون بأن الله كان قبل القبل .

وكان كلامه فمن أين لكم الكلام إن الكلام الله أو سوى الله أو غير الله أو دون الله؟.

قال: فسكت الرجل. وخرج.

وأخبر أبو عبد الرحمن السلمي أن محمد بن إسماعيل الأصبهاني حدث بمكة فقال: سمعت الجارودي يقول: ذكر الشافعي إبراهيم بن إسماعيل بن عليه فقال: أنا مخالف له في كل شيء وفي قوله: لا إله إلا الله لست أقول كما يقول: أنا أقول لا إله إلا الله الذي كلم موسى من وراء حجاب وذاك يقول: الذي خلق كلاما أسمعه موسى من وراء حجاب.

هذا ويقول الإمام الشافعي رضي الله عنه في الفقه الأكبر^(١):

إن كلام الباري - سبحانه - قديم أزلي موجود بذاته ليس بمخلوق ولا محدث ومن قال إنه مخلوق فهو كافر لا محالة، وهو مكتوب في مصاحفنا محفوظ في قلوبنا مقروء بالسنتنا متلو في محاربنا مسموع بأسماعنا ليس بكتابة ولا حفظ ولا قراءة ولا تلاوة ولا سمع، لأن ذلك محدث عن عدم وكلام الله قديم، كما أن الباري - سبحانه - مكتوب في كتبنا معلوم في قلوبنا مذكور بالسنتنا وليس ذات الباري - سبحانه - كتابه ولا ذكره (أ. هـ)، ثم هو يثبت الرؤيا للمؤمنين في الآخرة بقوله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ .. ويقول «لما حجب الكفار في السخط دل على أن الأولياء يرونه في الرضا».

وعن سعيد بن أسد قال: قلت للشافعي: ما تقول في حديث الرؤية؟ فقال لي: (يا ابن أسد: اقض على سواء كنت حيا أو ميتا. إن كل حديث يصح عن رسول الله ﷺ فيأتي أقول به. وإن لم يبلغني) ونص عبارة الشافعي في الفقه الأكبر في هذه المسألة: (واعلموا أن الله سبحانه وتعالى: يرى نفسه فيما لم يزل ولا يزال من غير اتصال شعاع ولا مقابلة. ويجوز للخلق أن يروه عقلا. لأنه موجود وكل موجود يصح أن نراه) أ. هـ.

(١) هامش مناقب الإمام الشافعي للرازي ص ١١٠.

(٤) قضية خلق الأعمال :

إن هذه المسألة يتفق فيها رأى الإمام الشافعى رضى الله عنه مع ما هو مقرر فى مذهب أهل السنة . وهو أيضا ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين ويدل على ذلك ما يلى :

الحجة الأولى : ما كتبه الإمام الشافعى فى خطبة كتابه (الرسالة) يقول : الحمد لله الذى لا يؤدى شكر نعمة من نعمه . إلا بنعمة منه ، توجب على مؤدى ذلك الشكر ، شكرا آخر . .) .

وتفسيره : أنه لا يمكن شكر نعم الله تعالى إلا بتوفيقه . وذلك التوفيق نعمة جديدة من الله تعالى فيفتقر إلى شكر آخر .

ومن هذا المنطلق كانت السيدة : رابعة العدوية رضى الله عنها تقول : (استغفارنا يحتاج إلى استغفار) كما كانت تقول : (أستغفر الله من قلة قولى أستغفر الله) .

ثم قال الشافعى فى هذه الخطبة : (واستهدى بهداه ، الذى لا يضل من أنعم به عليه) .

الحجة الثانية : حكى الربيع بن سليمان عن الإمام الشافعى أنه قال : قال الله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الإنسان : ٣٠] . (فأعلم الله عباده . أن المشيئة له دون خلقه وأن مشيئتهم لا تكون إلا أن يشاء) .

قال الفخر الرازى رحمه الله تعالى : (واعلم أن الشافعى أشار فى هذا الكلام إلى الدليل الذى هو الدليل الأقوى لمثبتى القضاء والقدر .

وتقديره : أن صدور الفعل من العبد . موقوف على أن يحصل فى قلبه مشيئة لذلك الفعل وحصول تلك المشيئة ليس بمشيئة أخرى من قبل العبد . وإلا لزم التسلسل فلا بد من انتهاء تلك المشيئة إلى مشيئة . تحدث بمشيئة الله تعالى وعلى هذا التقدير : يكون الكل بقضاء الله .

ثم يقول : ولقد سألنى جمع من المعتزلة فى (خوارزم) عن قوله تعالى :

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] قالوا: وهذا تصريح بأن الكل بمشيئة العبد.

فقلت: بل هذه الآية من أقوى الدلائل على القول بالقضاء والقدر.
وذلك لأن الآية: دلت على أن صدور الفعل عن العبد موقوف على كونه شائيا لذلك الفعل. وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ دليل على أن حصول المشيئة للعبد: موقوف على كون الله تعالى شائيا لتلك المشيئة والموقوف على الموقوف على الشيء موقوف على ذلك الشيء فهاتان الآيتان بمجموعهما دليل قاطع على أن الكل بقدير الله تعالى. أ. هـ.

الحجة الثالثة: روى الربيع: أن الشافعي سئل عن القدر فقال:

ما شئتَ كان وإن لم أشأ	وما شئتُ - إن لم تشأ - لم يكن
خلقت العباد على ما علمت	ففي العلم يجرى الفتى والمسن
على ذا مننت وهذا خذلت	وهذا أعنت وذا لم تعن
فمنهم شقى ومنهم سعيد	ومنهم قبيح ومنهم حسن

ويقول الرازي في ختام شرحه لهذه الأبيات: ومن تأمل في هذه الأبيات التي ذكرها الإمام الشافعي. ووقف على الشرع الذي لخصناه عرف أنه لم يتفق لأحد من عظماء المتكلمين: من الدلائل النفسية في هذه المسألة. ما ذكره هذا الإمام في هذه الأبيات. ومما يقرب من هذه الأبيات قوله رحمه الله:

الهم فضل - والقضاء غالب	وكسائن ما خط في اللوح
فانظر الروح وأسبابه	أليس ما كتب من الروح؟

فقله:

* الهم فضل والقضاء غالب *

معناه ما ذكره في قوله:

ما شئتَ كان وإن لم أشأ وما شئتُ - إن لم تشأ - لم يكن؟
فهو إشارة إلى أن الأمور المطلوبة عند اجتماع أسبابها الظاهرة قد لا تحصل

وعند اليأس من حصولها قد تحصل . وذلك يدل على أن حصولها ليس بجهد الإنسان وبجهد بل بغيره .

الحجة الرابعة : حكى الربيع عن الشافعي أنه قال :

(الناس لم يخلقوا أعمالهم ، بل هي خلق من الله تعالى ، فعل للعباد) .

يقول الرازي : هذا الكلام مأخوذ من القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ [الأنفال : ١٧] أى ما رميت خلقا إذ رميت كسبا . وقال تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ [الأنفال : ٥] ثم قال تعالى : ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [التوبة : ٤٠] فأضاف ذلك الإخراج إلى نفسه تعالى بالخلق وإلى العبد بالكسب .

الحجة الخامسة : روى البيهقي بإسناده عن الشافعي عن يحيى بن سليم عن جعفر بن محمد عن أبيه عن عبد الله بن جعفر عن علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - أنه خطب الناس فقال : أعجب ما فى الإنسان قلبه فيه مواد من الحكمة وأضدادها من خلافها فإن سنع له الرجاء أوله الطمع وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص وإن ملكه اليأس قتله الأسف . وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ وإن أسعده الرضا نسي التحفظ . وإن ناله الخوف شغله الحزن وإن أصابته المصيبة قصمه الجزع . وإن وجد مالا أطغاه الغنى وإن عضته فاقه شغله البلاء . وإن أجهدته الجوع قعد به الضعف فكل تقصير به مضر وكل إفراط له مفسد .

قال : فقام رجل ممن شهد معه الجمل فقال : يا أمير المؤمنين : أخبرنا عن القدر . فقال : « بحر عميق فلا تلجه » فقال : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن القدر . فقال : « بيت مظلم فلا تدخله » فقال : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن القدر . فقال : « سر الله فلا تبحث عنه » فقال : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن القدر . فقال : « لما أبيت . فإنه أمر بين أمرين . لا جبر ولا تفويض فقال يا أمير المؤمنين : إن فلانا يقول بالاستطاعة - وهو حاضر - فقال على - رضى الله عنه - : على به فأقاموه ، فلما رآه قال له : الاستطاعة تملكها مع الله . أو من دون الله ؟ وإياك أن تقول أحدهما فتريد . قال : « قل : أملكها بالله - الذى إن شاء ملكنيها » .

قال الإمام فخر الدين الرازى رحمه الله تعالى شارحا لكلام أمير المؤمنين رضى الله عنه : هذا الفصل الذى ذكره أمير المؤمنين : على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فصل فى غاية الجلالة ودال على صحة القول بالقضاء والقدر وبيانه : أن لا شك فى أن أفعال الجوارح مرتبطة بما يحصل فى القلوب من الدواعى والصوارف ثم إنه رضى الله عنه بين أن كل ما فى القلب من الدواعى والصوارف فإنه يحدث بسبب من الأسباب الخارجة عن قدرة الإنسان واختياره، وذلك أن الإنسان إذا رأى صورة شخص وسمع كلامه : ترتب على تلك الرؤية وذلك السماع رجاء لشيء ثم حصول ذلك الرجاء عقيب تلك الرؤية، وذلك السماع ليس باختيار الإنسان البتة بل هو حاصل سواء أراد الإنسان حصوله أو لم يرد، وإذا حصل ذلك الرجاء له، أوله الطمع شاء أم أبى، وهذا برهان قاطع على أن أفعال العباد مرتبة على ما فى القلوب من الدواعى والصوارف، وأن تلك الدواعى والصوارف يترتب بعضها على بعض ترتبا اضطراريا وذلك تحقيق القول بالقضاء والقدر فما أشرف كلام أمير المؤمنين - رضى الله عنه - فى هذه المسألة.

وأما قوله رضى الله عنه : (فإنه أمر بين أمرين . لا جبر ولا تفويض).

فتفسيره : هو أن الجبر أن يحدث الشيء على خلاف الإرادة، وههنا فعل الإنسان يحدث على وفق إرادته فلا يكون جبرا . ثم إن حدوث تلك الإرادة فى قلب الإنسان، ليس من الإنسان وإلا لافتقر إلى إرادة أخرى ولزم التسلسل وهو محال، بل من الله تعالى . وإذا كان الأمر كذلك ثبت أنه لا تفويض فثبت أن زبدة كلام العقلاء وحاصل أفكارهم ليس إلا ما أدرجه أمير المؤمنين (على بن أبى طالب رضى الله عنه) فى هذه الألفاظ الموجزة النفيسة .

ثم يقول : ونظير هذه الكلمة فى الجلالة ما نقل عنه عليه السلام أنه سئل عن التوحيد والعدل فقال : (التوحيد أن لا نتوهمه والعدل أن لا نتهمه).

وهاتان الكلمتان المختصرتان مشتملتان على جميع ما ذكره المتكلمون فى تصانيفهم الطويلة، ولو شرعنا فى شرحهما لطال الكتاب أ.هـ .

الحجة السادسة : روى البيهقى عن الشافعى - رضى الله عنه - : أن المؤذن

إذا قال : حى على الصلاة حى على الفلاح ، فالسنة أن يقول المستمع : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . والمعنى : أن الإنسان إذا دعى إلى الصلاة وإلى الفلاح فهو يقول : لا حول ولا قوة ولا طاقة فى الإتيان بهذه الطاعة إلا بإعانة الله وتوفيقه .

وروى البيهقى عن الشافعى أيضا أنه قال :

قـدر الله واقع	حيث يقضى وروده
قد مضى فيك حكمه	وانقضى ما يريده
فأرد ما يكو	ن إلم يكن ما يريده

قال المزنى قلت للشافعى : من القدرية ؟ فقال : هم الذين يزعمون أن الله تعالى لا يعلم المعاصى حتى تكون . أو قال : إلا بعد وقوعها .

وقال الرازى : واعلم أن مذهب المعتزلة . لا يستقيم إلا بهذا القول قالوا : لأنه تعالى لو علم الأشياء قبل وقوعها لكان جبرا لازما ، من حيث أن خلاف المعلوم ممتنع الوقوع . أ . هـ .

هذا : ويقول الدكتور السقا على هامش مناقب الإمام الشافعى للرازى ما نصه : الذى كتبه المؤلف - الرازى - عن الشافعى فى أفعال العباد هو مذكور بالمعنى فى الفقه الأكبر المنسوب إلى الشافعى فى ذلك الكتاب الفصول التالية :

- ١ - ما شاء الله كان .
- ٢ - ما فى الكون من إرادة الله .
- ٣ - الخلق لله والكسب للعبد .
- ٤ - الكسب اختيار العبد .
- ٥ - قدرة العبد استطاعة لا خلق .
- ٦ - استطاعة العبد جزئية لفعل واحد .
- ٧ - لا نهاية لقدرة الله . أ . هـ .

(٥) النبوة :

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : ١٥] .

روى أن النبى ﷺ قال : (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله

واليوم الآخر وما فيه وأن تؤمن بالقدر خيره وشره (زواه الشيخان عن عمر رضى الله عنه من حديث جبريل على السلام بالإيمان بالنبوة والأنبياء ركن من أركان الإيمان وعليه أجمعت الأمة، وقد نازع فى ذلك البراهمة حيث أنكروا النبوة.

حكى أبو منصور البغدادى رحمه الله تعالى : أن الإمام الشافعى - رضى الله عنه - أول من صنف فى الرد على البراهمة المنكرين للنبوات .

ونقل البيهقى رحمه الله تعالى أن الشافعى كان يقول : ما أعطى الله لنبي شيئا . إلا وأعطى محمدا ﷺ ما هو أكثر منه . ف قيل له : أعطى عيسى ابن مريم إحياء الموتى فقال الشافعى : (حنين الجذع أعظم منه لأن إحياء الخشب أعظم من إحياء الميت) .

وقيل : إذا كان لموسى عليه السلام فلق البحر عارضناه بانشقاق القمر . وهو أعجب منه لأنه آية سماوية . ولو قيل : عن انفجار الماء من الحجر قلنا : إن نبع الماء من بين أصابع محمد ﷺ أعجب . لأن خروج الماء من الحجر معتاد أما خروجه من اللحم والدم فأعجب . ولو سئلنا عن تسخير الريح لسليمان عليه السلام فإننا نقول : إن رحلة المعراج أعجب ، وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه فى كتاب الذبائح : (واجب أن نكثر الصلاة على النبي ﷺ لأن ذكر الله - عز وجل - والصلاة على النبي ﷺ إيمان بالله وعبادة له) .

(٦) مذهبه فى الخلفاء والصحابة رضى الله عنهم :

قال الإمام الشافعى رضى الله عنه فى الفقه الأكبر : (واعلموا أن الإمام الحق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر رضى الله عنه ، والدليل عليه إجماع الصحابة على إمامته .

واعلموا أن الإمام الحق بعد أبى بكر : عمر بن الخطاب رضى الله عنه . والدليل عليه أن أبا بكر نص على أنه خليفة من بعده وعهده إليه . ثم اجتمعت الصحابة عليه من غير تنازع واعلموا أن الإمام الحق بعد عمر رضى الله عنه : عثمان رضى الله عنه يجعل أهل الشورى اختيار الإمام لعبد الرحمن بن عوف فاختر عثمان واجتمعت الصحابة عليه ، واعلموا أن الإمام الحق بعد عثمان : على

ابن أبى طالب رضى الله عنه . وثبتت إمامته بمبايعة أكابر الصحابة ورضا
الباقيين (١ هـ .

وروى الربيع بن سليمان رحمه الله أن الإمام الشافعى رضى الله عنه : كان
يقول بتفضيل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى - رضى الله عنهم - وكان يحتج
على إمامة أبى بكر رضى الله عنه بعد الدلائل المشهورة بوجوه من الأدلة :

١ - روى الشافعى عن ابراهيم بن سعد عن أبيه عن محمد بن جبير بن
مطعم عن أبيه أن امرأة أتت النبى ﷺ فسألته عن شئ فأمرها أن ترجع فقالت : يا
رسول الله إن رجعت فلم أجذك - كأنها تعنى الموت - فقال عليه الصلاة
والسلام : (فأتى أبا بكر) وهذا منه ﷺ إشارة إلى أن أبا بكر، هو القائم
بعده .

٢ - روى الشافعى عن سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربيع
ابن جراش عن حذيفة : أن النبى ﷺ قال : (اقتدوا بالذين من بعدى بأبى بكر
وعمر) .

٣ - وقال بعضهم للشافعى : ما رأيت هاشميا يقدم أبا بكر وعمر على
غيرك ؟ فقال الشافعى : (على ابن خالتي وابن عمى . لأنى رجل من بنى عبد
مناف وأنت رجل من بنى عبد الدار ولو كان الأمر كما قلت . لكنت أولى بهذه
الكرامة ولكن الأمر كما تتمنى) .

قال البيهقى رحمه الله تعالى : قول ذلك الرجل للشافعى « ما رأيت هاشميا
غيرك إنما قال ذلك لما ذكرناه فى باب نسب الشافعى : أنه من جهة أمهات
أجداده : هاشمى .

٤ - ونقل أنه ذكر عنده على بن أبى طالب رضى الله عنه . فقال رجل من
القوم : ما نقر الناس من على إلا لأنه كان لا يبالى بأحد فقال الشافعى : (كان فيه
أربع خصال لا تكون واحدة منها فى إنسان إلا ويحق له أن لا يبالى بأحد :
إنه كان زاهدا . والزاهد لا يبالى بأحد . وكان عالما والعالم لا يبالى بأحد وكان
شجاعا والشجاع لا يبالى بأحد وكان شريفا والشريف : لا يبالى بأحد .

٥ - وعن الربيع بن سليمان أنه قال : سمعت الشافعي يقول :

وأشهد أن البعث حق وأخلص	شهدت بأن الله لا رب غيره
وفعل زكى قد يزيد وينقص	وأن عرى الإيمان قول مسبين
وكان أبو حفص على الحق يحرص	وأن أبا بكر خليفة أحمد
وأن عليا فضله متخصص	وأشهد ربي أن عثمان فاضل
لحسب الله من إياهم يتنقص	أئمة دين يقتدى بفعالهم
وما لسفيه لا يخاف فيخرص	فما لغواة يشتمون سفاهة

٦ - وروى ابن عبد الحكم عن الشافعي أنه قال :

(أما أرى أن الله تعالى لا يمنع الناس عن شتم أصحاب رسول الله ﷺ إلا ليزيدهم ثوابا عند انقطاع أعمالهم .

وقال رضى الله عنه فى عموم الصحابة رضى الله عنهم :

وقد أثنى الله - سبحانه وتعالى - على أصحاب رسول الله ﷺ فى القرآن والتوراة والإنجيل ، وذكرهم رسول الله ﷺ بأنواع الفضائل وهم أدوا إلينا سنن الرسول ﷺ وشاهدوا الوحي ينزل فلا جرم علموا مالا نعلمه من العام والخاص والإرشاد والإيجاب . فهم فوقنا فى كل علم واجتهاد وورع وعقل . فإن اجتمعوا كان قولهم حجة ، وإن قال أحدهم ولم يخالفه غيره ، أخذنا بقوله) ١ . هـ .

وهكذا تبين لنا فى وضوح أن الإمام الشافعي رضى الله عنه كان على دراية تامة بمسائل ومباحث «الفقه الأكبر» أو ما يسمى بعلم العقيدة أو علم الكلام أو علم التوحيد أو علم أصول الدين . وتلك كانت آراؤه التى استخلصناها ولخصناها من بعض مؤلفاته وبحوثه ومما كتبه عنه الإمامان : البيهقي والفخر الرازى . وكذا كتابات أخرى معاصرة : أشعرية أو من دعاة السلفية وقد رأينا الإمام الشافعي رضى الله عنه على عقيدة سلف الأمة من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم . ولم يكن يميل إلى فذلكات المتكلمين وفلسفاتهم كما أنه لم يكن

ينهج - فى تناوله لمسائل العقيدة - نهج دعاة السلفية المعاصرة - مدرسة ابن تيمية وأتباعه كما ادعى أحدهم فى بحثه « منهج الإمام الشافعى فى إثبات العقيدة » (١).

فالإمام الشافعى رضى الله عنه كان قرآنى العقيدة سنى النزعة سلفى المنهج (طريقة أصحاب الرسول ﷺ).

لذلك ظنه بعض المبتدعة أنه يميل إليهم. وهو الإمام الكبير القدر العالى الهمة الذى ملأ الدنيا علما فبايعته الأمة كلها بالإمامة والريادة لقد ادعى فيه ثلاث طوائف من أهل البدعة أنه يميل إليهم: المشبهة. والمعتزلة والرافضة.

(أ) أما المشبهة: فقد زعموا أن الإمام الشافعى رضى الله عنه كان منهم واحتجوا على ذلك بأمرين:

الأول: إن الإمام الشافعى كان يبغض علم الكلام ويكره الاشتغال به كما كان فى غاية المحبة لظواهر الكتاب والسنة ولم يكن يميل إلى التأويل وذلك يدل على أنه كان على ذلك المذهب حسب زعمهم.

الثانى: مما هو معلوم أن الإمام أحمد بن حنبل كان يحب الإمام الشافعى ويقدره ويعظمه، وكان فى غاية الإنكار لمذاهب المتكلمين فى التنزيه وذلك يوجب أن الشافعى كان على ذلك المذهب.

(ب) وأما المعتزلة: فقد زعموا هم أيضا أن الإمام الشافعى منهم. وذلك لأمرين:

الأول: ذكر القاضى عبد الجبار بن أحمد الهمدانى فى كتابه (طبقات المعتزلة) إن إبراهيم بن أبى يحيى المزنى، أخذ المذهب عن عمرو بن عبيد. ولا نزاع فى كون إبراهيم معتزليا ومسلم بن خالد الزنجى أخذ المذهب عن غيلان والشافعى كان تلميذا لإبراهيم بن أبى يحيى ومسلم بن خالد، فاجتمع للشافعى رجلا من أهل الحق من القائلين بالعدل والتوحيد: إبراهيم ومسلم.

(١) د. محمد بن عبد الوهاب العقيل عفا الله عنه.

الثانى : قال بعض المعتزلة إن الإمام الشافعى قد اختار فى بعض الآيات قراءات ذالة على مذهب المعتزلة . مثل :

١ - أنه قرأ فى سورة الاعراف ، قوله تعالى : ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَسَاءُ ﴾ [الاعراف : ١٥٦] فالقراءة المشهورة تفيد أن له - تعالى - أن يعذب من يشاء كما شاء .

وهذه القراءة - بالسين - تفيد - أنه تعالى - لا يعذب إلا من أتى بالفعل (السئ) .

٢ - قرأ فى سورة سبأ ﴿ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ بالنون وكسر اللام فى - كل - والفائدة فيه : إنه على هذا التقدير يصير قوله تعالى : ﴿ خَلَقْنَاهُ ﴾ صفة لـ : كل شئ والتقدير : إن كل شئ هو مخلوق لنا فهو بقدر وهذا يقتضى أن كل ما خلقه الله تعالى فإنه خلقه بقدر ولا يقتضى أن يكون خالقا لكل شئ . أما إذا قرأنا «إنا كل شئ» بنصب اللازم كان التقدير : إنا خلقنا كل شئ بقدر وهذا يقتضى أن يكون تعالى خالقا لكل الأشياء وأنه إنما خلقها بقدر .

(ج) وأما الرافضة : فزعموا أنه منهم . واستدلوا على ذلك بما يلى :

١ - رويت أشعار للشافعى مشعرة برغبته فى المذهب الشيعى .

روى أن المزنى قال : قلت للشافعى ، إنك رجل توالى أهل البيت فلو عملت فى هذا الباب أبياتا . فقال :

وما زال كتمانك حتى كائننى	برد جواب السائلين لأعجم
وأكتم ودى مع صفاء مودتى	لتسلم من قول الوشاة وأسلم

وقال :

أنا الشيعى فى دينى	وأهلى بمكة . ثم دارى عسقلية
بأطيب مولد وأعز فخر	وأحسن مذهب يسمو البرية

وقال أيضا :

يا راكبا قف بالمحصب من منى	وأهتف بقاعد جمعها والناهض
----------------------------	---------------------------

سحرا إذا فاض الحجيج إلى منى فيضا كملتطم الفرات الفائض
إذا كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافضى
ونقل عن الربيع أنه قال : حججنا مع الشافعى . فما ارتقى نجدا ولا هبط
وادي إلا وهو يبكى . وينشد هذه الأبيات الثلاثة :
وقال أيضا :

آل النبى ذريعــتى وهم إليك وســيلتى
أرجو بأن أعطى غدا بيد اليمين : صحيفتى

٢ - لقد اتهم يحيى بن معين الإمام الشافعى بأنه رافضى وقال : طالعت
كتابه فى السير فوجدته لم يذكر إلا على بن أبى طالب رضى الله عنه . وذلك
يدل على ما قلناه .

٣ - ذكر أنه حين كان باليمن انضم إلى بعض العلوية وكان ينصرهم .
ولهذا السبب أخذه هارون الرشيد حتى وقع ما وقع .

فهذا خلاصة ما قيل فى الطعن على الإمام الشافعى رضى الله عنه كما ذكر
البيهقى والرازى فهذه المزاعم من تلك الطوائف مزاعم واهية ولا تقدر فى
شخصية الإمام الشافعى رضى الله عنه . يرد هذه المزاعم الإمام فخر الدين الرازى
فيقول ^(١) : واعلم أن وجوه إحسان الله تعالى إلى الشافعى كثيرة ومن جملتها :
أن بين المعتزلة والمشبهة مضادة عظيمة لأن المعتزلة بالغوا فى التنزيه حتى قربوا من
التعطيل . والمشبهة بالغوا فى الإثبات حتى وقعوا فى التشبيه فلما ادعت كل
واحدة من هاتين الطائفتين المتنافيتين : أن الشافعى كان منهم فقد تعارضت هاتان
الدعوتان فتساقطا وبقي الإمام المطلبى مبرا عن شبهة التشبيه وريبة التعطيل .

ثم نقل : الصداقة التى كانت حاصلة بينه وبين أهل الظاهر . لا توجب كونه
على مذهبهم فإنه لا يبعد أن يقال : إنه ما خاض معهم فى علم الأصول فلهذا
السبب حصلت تلك الصداقة .

(١) مناقب الإمام الشافعى ١٣٢ - ١٣٤ .

وأما قول – قاضى القضاة . عبد الجبار – ففى غاية الضعف . لأن كون الإنسان مستفيدا علم الفقه والحديث من إنسان معتزلى لا يوجب كونه معتزليا لا سيما وقد نقلنا الأشعار الكثيرة عن الشافعى الدالة على بعده عن مذهب المعتزلة فبطل ما ذكروه .

أما تمسكهم بالقراءات التى روينها فهو دليل محتمل وقد نقلنا عنه نقلا ظاهرا أقوالا منافية لأقوال المعتزلة . فبطل ما ذكروه .

وأما دعوى الرافضة فباطلة لأنه قد اشتهر عنه . أنه كان يقول بإمامة الخلفاء الراشدين وكان كثير الطعن فى الرافض قال يونس بن عبد الأعلى سمعت الشافعى يقول : (أجزى شهادة أهل الأهواء كلهم إلا الرافضة فإنهم يشهدون بعضهم لبعض) .

وقال يونس : كان الشافعى يعيب على الروافض ويقول : (هم شر عصابة) وأما مدح على عليه السلام . وحبه والميل إليه فذاك لا يوجب القدح بل يوجب أعظم أنواع المدح .

وأما طعن يحيى بن معين فالجواب عنه : ما روى البيهقى عن أبى داود السجستانى أنه قيل لأحمد بن حنبل : إن يحيى بن معين ينسب الشافعى ابن إدريس إلى التشيع فقال أحمد ليحيى بن معين كيف عرفت ذلك ؟ فقال يحيى : إنى نظرت فى تصنيفه فى قتال أهل البغى فرأيت أنه قد احتج من أوله إلى آخره بعلى ابن أبى طالب عليه السلام فقال أحمد : يا عجباً لك . فيمن كان يحتج الشافعى فى قتال أهل البغى ؟ فإن أول من ابتلى من هذه الأمة بقتال أهل البغى هو على بن أبى طالب – عليه السلام – قال فخجل يحيى من كلامه .

وأيضاً : فإن يحيى بن معين كان شديد الحسد للشافعى . وكان يلوم أحمد ابن حنبل على تعظيمه للشافعى وكان أحمد بن حنبل يلومه على ذلك الحسد وقد طعنوا فى يحيى بن معين بسبب كثرة طعنه فى الناس . وقالوا فى حقه شعراً :

ولا بن معين فى الرجال وقية سيسأل عنها والمليك شهيد

فإن كان صدقاً يدعيه فغيبته وإن كان كاذباً فالعذاب شديد

ولما سمع الشافعي أن بعض الناس رماه بالتشيع. أنشد وقال:

إذا نحن فضّلنا علياً فإننا روافض بالتفضيل عند ذوى الجهل

وفضل أبى بكر إذا ما ذكرته رميت بنصب عند ذكرى للفضل

فلا زلت ذا رفض ونصب كليهما أدين به حتى أوسد فى الرمل. - أ. هـ

وهكذا تبين لنا أن الإمام الشافعي رضى الله عنه، كان على علم ودراية

بعلم العقيدة على طريقة الصحابة والتابعين رضى الله عنهم وليس على منهج

السلفية المعاصرة ولا منهج المتكلمين من علماء الكلام، كما أنه لم يشتغل

بعلم الكلام لاشتغاله بعلوم الفقه وأصوله والسنة وعلومها، رحمه الله رحمة

واسعة.

* * *

الفصل الرابع

الإمام الفقيه

يعد الإمام الشافعي رضي الله عنه من كبار الأئمة بلا منازع كما يعد من أبرز الفقهاء المجتهدين في معرفة الأحكام الشرعية. وامتيازته في معرفة أدواتها من علوم القرآن وعلوم الحديث واللغة وآدابها. وصنف في كتبه وأماله القيمة النافعة الغنية في مادتها والرائعة في أسلوبها ونظمها.

تكلم في القه وأصوله تدريساً وتأليفاً ومحاورة ومناقشة وقد كان في ذلك الأستاذ والعالم والفقيه، شهد له بذلك أحبابه وحاسدوه. وهو وأمثاله لا بد أن يحسدوا لتفوقهم على أقرانهم.

(أ) أصول الفقه:

لم يسبق الإمام الشافعي رضي الله عنه أحد في تدوين علم أصول الفقه فقد كانت مسأله مبعثرة في كتب الأئمة والعلماء ممن سبقه أو عاصره ولكنه هو الذي رتبها وقد قيل: إن محمداً بن الحسن الشيباني وأبا يوسف صاحباً أبي حنيفة رضي الله عنه قد كتبا في علم الأصول وكذا بعض فقهاء المالكية وهذا قول غير صحيح لأنه لم يصلنا شيء من هذا.

وعلى كل حال لم يصلنا سوى ما كتبه الإمام الشافعي رضي الله عنه في كتابه: (الرسالة البغدادية) - القديمة - و(الرسالة الجديدة) التي كتبها في مصر وترجع أهم الأسباب التي جعلت الإمام الشافعي يضع علم الأصول ويدون مسأله إلى ما يلي:

(١) كان الشافعي في زمن اشتد فيه النزاع بين العلماء في مصادر الفقه الإسلامي فمنهم من يرد خبر الواحد أو يشك في صحة ثبوته وكان المالكية يشترطون للعمل به. أن يكون مشهوراً بين أهل المدينة.

(٢) كثرة روايات الحديث وتعدد طرقه وإيهام التعارض بين ظواهر

الأحاديث فكان ضروريا للمجتهد أن يبين الطريق الصحيح في الجمع والترجيح والنسخ .. إلخ ليزول ما يدعو إلى ظهور الاختلاف حول الحديث وفهمه .

(٣) كان لاختلاط الأعاجم بالعرب أثره على الفقه في إضعاف الملكات عن إدراك ما تهدف إليه الشريعة الإسلامية .

(٤) عاش الإمام الشافعي رضي الله عنه في عصر تدوين العلوم والمناهج والأصول لذلك رأى بشاقب فكره ورجاحة عقله، أنه من الضروري جمع مسائل الأصول وتدوين هذا العلم وجعله علما قائما بذاته وجرده من مسائل الفقه المختلطة به . وعلم أصول الفقه - كما نعلم - هو العلم الذي يبحث في مصادر التشيع وأدلة الأحكام كما يلي :

(١) القرآن الكريم :

وهو المصدر الأول للتشريع (عقيدة وشريعة وأخلاقا) ولا ينازع في هذا عالم أو جاهل ، لأن القرآن الكريم هو تنزيل من رب العالمين ، قال الإمام الشافعي رحمه الله : (ومن جماع كتاب الله عز وجل العلم بأن جميع كتاب الله إنما نزل بلسان العرب . والمعرفة بناسخ كتاب الله ومنسوخه . والغرض في تنزيله والأدب والإرشاد والإباحة ، والمعرفة بالوضع الذي وضع الله نبيه صلوات الله عليه من الإبانة عنه فيما أحكم فرضه في كتابه وبينه على لسان نبيه عليه السلام . وما أراد بجميع فرائضه أراد كل خلقه أم بعضهم دون بعض ؟ وما افترض على الناس من طاعته والانتهاة إلى أمره . ثم معرفة ما ضرب فيها من الأمثال الدوال على طاعته المبينة لاجتناب معصيته وترك الغفلة عن الحظ والإزدياد من نوافل الفضل فالواجب على العالمين ألا يقولوا إلا من حيث علموا) .

ثم ساق الكلام إلى أن قال : (والقرآن يدل على أن ليس في كتاب الله شيء إلا بلسان العرب . قال الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ : [الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥] وقال الله عز وجل ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ [الرعد : ٣٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى :

[٧] فأقام حجته بأن كتابه عربى . ثم أكد ذلك بأن نفي عنه كل لسان غير لسان العرب فى آيتين من كتابه فقال تبارك وتعالى ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣] وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ [فصلت: ٤٤]

وقال : ولعل من قال : إن فى القرآن غير لسان العرب . ذهب إلى أن شيئا من القرآن خاصا بجهله بعض العرب ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبها وأكثرها ألفاظا ولا يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي ولكنه لا يذهب منه شئ على عامة أهل العلم . كالعلم بالسنة عند أهل الفقه . لا نعلم رجلا جمعها فلم يذهب منها شئ عليه . فإذا جمع علم عامة أهل العلم بها أتى على السنن والذى ينطق العجم بالشئ من لسان العرب فلا ينكر - إذا كان اللفظ قيل تعلمما أو نطق به موضوعا - أن يوافق لسان العجم أو بعضه قليل من لسان العرب (فبسط الكلام فيه ^(١) . ١ . هـ .

فالقرآن الكريم هو المصدر الأول للشرعية وليس فيه شئ من كلام الأعاجم وإنما نزل بلسان عربى مبين . إلا أن الشافعى رضى الله عنه كان يرى عدم جواز الاستدلال بالقراءة الشاذة لأنه لا يجوز الاحتجاج بها .

(٢) السنة النبوية الشريفة :

وقد تكلم الشافعى رضى الله عنه فى كتبه وخاصة (الرسالة) عن حجية السنة وبيان علاقتها بالقرآن الكريم وكونها المصدر الثانى للشرعية الإسلامية . فأفاض فى إقامة البرهان على حجية السنة وبين أنها توضح ما أبهمه القرآن الكريم وتفسر مجمله وتفصله وتكلم عن الناسخ والمنسوخ فبين أن الكتاب قد ينسخ بعض آياته رحمة للعالمين بالتوسعة عليهم . وأبان أن الكتاب لا ينسخ إلا بالكتاب وأن السنة لا تكون ناسخة له . وإنما هى تبع له بمثل ما نزل به نصا ومفسرة معنى ما أنزل الله تعالى منه مجملا . وبين أن السنة لا ينسخها إلا سنة وأنها إذا نسخت

(١) أحكام القرآن ج ١ ص ٢٢ ، ٢٣ للبيهقى .

بالقرآن فلا بد أن يكون معها سنة أخرى تبين أنها منسوخة وهو بذلك يحذر الناس من أن يأخذوا بعموميات الآيات القرآنية ويتركوا السنة المخصصة . ويستدل بالسنة على تخصيص الحكم في بعض النصوص كما في آيتي المواريث والوصية إذ روى أن النبي ﷺ قال (لا وصية لوارث) فهذا الحديث قد منع الوارث من أن يوصى له بشئ لكى لا يتميز على غيره من باقى الورثة .

وتكلم عن علل الحديث وأفاض فى بيانها وشرحها من جهة تلقيها عن رسول الله ﷺ . ثم تكلم عن ناسخ السنة ومنسوخها وضرب على ذلك الأمثلة الكثيرة وأتى بأحاديث عديدة تختلف ظواهرها فأبان وجه اختلافها وكيف يكون عمل المجتهد فى الجمع والترجيح بينها ثم بين خبر الواحد وأقام الحجة على ثبوته ودافع عنه دفاعا مستميتا .

روى الفخر الرازى فى المناقب : قال الربيع : سمعت الشافعى يقول : (إذا وجدت سنة عن رسول الله ﷺ خلاف قولى فخذوا بالسنة ودعوا قولى : فإنى أقول بها) وقال أيضا : (كل حديث صح عن رسول الله ﷺ فإنى أقول به وإن لم يبلغنى) .

(٣) الإجماع :

هو : اتفاق مجتهدى أمة محمد ﷺ بعد وفاته فى عصر من الأعصار على أمر من الأمور كما عرفه علماء الأصول .

وقد رفض حجية الإجماع : الشيعة الإمامية والنظام وبعض فرق الخوارج وابن حزم ورفض آخرون القول بحجية إجماع أهل المدينة وحدهم لأنهم بعض الأمة والاجماع الحجة هو اتفاق الجميع .

وقد قال الإمام الشافعى رضى الله عنه بحجية الاجماع وأنه أحد مصادر التشريع يقول الفخر الرازى فى المناقب (١) : رأيت فى بعض الكتب أنهم طالبوه – أى الشافعى – بأن يستخرج دليلا من كتاب الله تعالى على أن الإجماع حجة فقرأ القرآن ثلاثمائة مرة حتى وجد قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا

(١) مناقب الإمام الشافعى : ١٤٥ .

تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿[النساء: ١١٥]﴾.

وورد في كتاب «الرسالة» (١): قال الشافعي: فقال لي قائل: قد فهمت مذهبك في أحكام الله ثم أحكام رسوله وأن من قبل عن رسول الله - ﷺ - فعن الله قبل بأن الله افترض طاعة رسوله وقامت الحجة بما قلت بأن لا يحل لمسلم علم كتابا ولا سنة أن يقول بخلاف واحد منهما. وعلمت أن هذا فرض الله فما حجتك في أن تتبع ما اجتمع الناس عليه، مما ليس فيه نص حكم الله ولم يحكوه عن النبي - ﷺ -؟ أتزعم ما يقول غيرك أن إجماعهم لا يكون أبدا إلا على سنة ثابتة وإن لم يحكوها؟.

قال: فقلت له: أما ما اجتمعوا عليه فذكروا أنه حكاية عن رسول الله - ﷺ - فكما قالوا. إن شاء الله.

وأما ما لم يحكوه، فاحتمل أن يكون قالوا حكاية عن رسول الله - ﷺ - واحتمل غيره ولا يجوز أن نعهده له حكاية لأنه لا يجوز أن يحكى إلا مسموعا ولا يجوز أن يحكى شيئا يتوهم يمكن فيه غير ما قال.

فكنا نقول بما قالوا به اتباعا لهم. ونعلم أنهم إذا كانت سنن - رسول الله - ﷺ - لا تعزب عن عامتهم وقد تعزب عن بعضهم ونعلم أن عامتهم لا تجتمع على خلاف لسنة رسول الله - ﷺ - ولا على خطأ إن شاء الله.

فإن قال: فهل من شيء يدل على ذلك وتشده به؟

قيل: أخبرنا سفيان عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه: أن رسول الله - ﷺ - قال: (نضر الله عبدا سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله والنصيحة للمسلمين ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم) (٢).

(١) الرسالة ٤٧١/٢ وما بعدها.

(٢) رواه الشافعي والبيهقي في المدخل ورواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه والدارمي عن زيد بن ثابت.

أخبرنا سفيان عن عبد الله بن أبي لبيد عن ابن سليمان بن يسار عن أبيه :
أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - خطب الناس بالجابية ^(١) فقال : إن رسول
الله - ﷺ - قام فينا كمقامي فيكم . فقال : أكرموا أصحابي . ثم الذين يلونهم
ثم الذين يلونهم ثم يظهر الكذب حتى إن الرجل ليحلف ولا يستحلف ويشهد
ولا يستشهد ألا فمن سره بحبحة الجنة فليزِم الجماعة . فإن الشيطان مع الفذ .
وهو من الاثنين أبعد ولا يخلون رجل بامرأة فإن الشيطان ثالثهم ومن سرته
حسنه وسأته سيئته فهو مؤمن ^(٢) .

قال : فما معنى أمر النبي - ﷺ - بلزوم جماعتهم ؟ .

قلت : لا معنى له إلا واحد .

قال : فكيف لا يحتمل إلا واحدا ؟ .

قلت : إذا كانت جماعتهم متفرقة في البلدان لا يقدر أحد أن يلزم جماعة
أبدان قوم متفرقين وقد وجدت الأبدان تكون مجتمعة من المسلمين والكافرين
والأتقياء والفجار فلم يكن في لزوم الأبدان معنى لأنه لا يمكن ولأن اجتماع
الأبدان لا يصنع شيئا فلم يكن للزوم جماعتهم معنى . إلا ما عليهم جماعتهم
من التحليل والتحريم والطاعة فيهما .

ومن قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم ومن خالف بما
تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم التي أمر بلزومها . وإنما تكون
الغفلة في الفرقة فأما الجماعة فلا يمكن فيها كافة غفلة من معنى كتاب ولا سنة
ولا قياس إن شاء الله . ١ هـ . ما قاله الإمام في كتابه الرسالة . وفيه قرر حجية
الإجماع .

(١) قرية من أعمال دمشق .

(٢) الحديث بهذا الإسناد مرسل لأن سليمان بن يسار لم يدرك عمر رضى الله عنه ولكنه
حديث صحيح معروف عن عمر رواه أحمد في مسنده ١/ ١٨ ، ٢٦ والطيالسي والترمذي
وصححه الذهبي .

قال المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة ^(١): ولقد قسم الشافعي الأحكام المشتقة من الأدلة الشرعية إلى أحكام في الظاهر والباطن: وهى: الأحكام التى تؤخذ من النصوص المتواترة قرآنا أو سنة متواترة.

وأحكام يؤخذ بها فى الظاهر وهى: أخبار الآحاد وما كان ثابتا بالإجماع أو القياس ولذا قال رضى الله عنه «يحكم بالكتاب والسنة المجتمع عليها التى لا اختلاف فيها فنقول: حكمنا بالحق فى الظاهر والباطن ويحكم بالسنة من طريق الانفراد – أى أخبار الآحاد – ولا يجتمع عليها الناس فنقول: حكمنا بالحق فى الظاهر لأنه قد يمكن الغلط فيمن روى الحديث ونحكم بالإجماع ثم القياس. وهو أضعف من هذا لأنه لا يحل القياس والخبر موجود» ١. هـ.

والإمام الشافعي رضى الله عنه زعم أنه يقول بحجية الإجماع إلا أنه يشك فى إمكان تحقق الإجماع ولقد تساءل عنه ذلك التساؤل فقال فى كتاب جماع العلم: «من هم أهل العلم الذين إذا أجمعوا قامت بإجماعهم حجة؟ فقال: مناظره: هم من نصبه أهل بلد من البلدان فقيها رضوا قوله وقبلوا حكمه» ثم يقول ردا على ذلك بعد مجاوبة «ليس من بلد إلا وفيه من أهله الذين هم بمثل صفته من يدفعونه عن الفقه وينسبونه إلى الجهل أو إلى أنه لا يحل له أن يفتى ولا يحل لأحد أن يقبل قوله. وعلمت تفرق أهل كل بلد فيما بينهم ثم علمت تفرق كل بلد مع غيرهم» ثم يقول «فأين اجتمع هؤلاء على تفقه واحد» ثم يتساءل عن موقف علماء الكلام أيدخلون ضمن صفوف المجتهدين فيقول: «أيعدون من العلماء الذين يتألف منهم أم لا يعدون».

ويعلق على ذلك القول الشيخ أبو زهرة فيقول ^(٢): وبهذا يتبين أن الإمام الشافعي يثير الكلام حول إمكان الإجماع معترضا على إمكانه.

أولا: بالتفرق بين البلدان وعدم التقاء الفقهاء.

وثانيا: مما يرى من وقوع الاختلاف بين فقهاء كل بلد من الحواضر الإسلامية.

(١) أصول الفقه ١٨٤، ١٨٥.

(٢) المصدر السابق ص ١٨٦، ١٨٧.

وثالثا : بعدم الاتفاق على تعيين من ينعقد بهم الإجماع .

ورابعا : بعدم الاتفاق على تعريف صفة العلماء الذي يعدون ذوى رأى فى

الفقه .

وبإثارة هذا كله فى مناظراته توهم الكثيرون أنه لا يقول بإمكان الإجماع حتى لقد سأل سائل قائلا : هل من إجماع ؟ فيجيبه : نعم بحمد الله كثير فى جملة الفرائض التى لا يسع أحدا جهلها فذلك الإجماع الذى لو قلت أجمع الناس لم تجد حولك أحد يعرف شيئا بقول ليس هذا بإجماع فهذه الطريق يصدق فيها من ادعى الإجماع .

فالشافعى إذا يقرر وجود الإجماع فى أصول الفرائض وإن كنا نقول : إن الحجية فى أصول الفرائض ليست لذات الإجماع إنما هى من الأدلة القطعية المكونة من النصوص القرآنية القطعية فى سندها ودلالاتها ومن السنة النبوية العملية المتواترة التى لا مجال للطعن فى نسبتها إلى النبى ﷺ . أ. هـ .

وحاصله : أن الإمام الشافعى رضى الله عنه ، قال بحجية الإجماع وأنه قد أمكن تحقيقه فى عصر الصحابة رضى الله عنهم قبل أن يتفرقوا فى الأمصار . وإذا تيسر لمجتهدى الأمة من الفقهاء غير المبتدعة كالخوارج والشيعة فإنه حينئذ يكون ممكنا .

وأقول : إنه قد أصبح فى زمننا هذا ممكن تحقيقه وذلك لتقدم وسائل الاتصالات والمواصلات الأمر الذى يمكن معه أن يلتقى علماء الأمة بأبدانهم أو بأصواتهم فى مكان واحد فى أى بلد إسلامى .

هذا وقد استدل الإمام الشافعى رضى الله عنه على حجية الإجماع بدليلين هما :

أولهما : الآثار الواردة والصحيحة . بأن الأمة لا تجتمع على ضلالة . فما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن . كما ورد فى حديث عمر رضى الله عنه بالجابية وقد سبق .

وثانيهما : قول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾

[النساء: ١١٥]

فاتباع غير سبيل المؤمنين حرام لأن من يفعل ذلك يشاقق الله ورسوله، ويقرر الإمام الغزالي رحمه الله تعالى، أن الاستدلال بهذه الآية على حجية الإجماع من أقوى الأدلة في هذا الشأن.

والإجماع على مرتبتين هما :

أولهما : الإجماع الصريح، وهو الذي اتفق جمهور الفقهاء على حجيته. وقد فسر الشافعي بقوله : (لست تقول ولا أحد من أهل العلم هذا مجتمع عليه إلا لما تلقى عالما أبدا إلا قاله لك).

وهذا النوع من الإجماع حجة قطعية شرعية.

ثانيهما : الإجماع السكوتي، وقد أجازوه البعض، ولم يعتبره الشافعي وآخرون حجة. وهم أكثرية الفقهاء.

واقول : الإجماع حجة شرعية وممكن تحقيقه في عصرنا هذا ولم يعد الأمر مستعصيا.

(٤) القياس والاجتهاد :

عرفه علماء الأصول بقولهم : القياس هو : بيان حكم أمر غير منصوص على حكمه بالحاقه بأمر معلوم حكمه بالنص عليه في الكتاب أو السنة.

ويعرفونه أيضا : بأنه إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر آخر منصوص على حكمه للاشتراك بينهما في علة الحكم.

فعن أبي مليح الهذلي قال : كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه :

(أما بعد : فإن القضاء فريضة محكمة . وسنة متبعة فافهمه إذا أدنى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له ، لا يمنعك قضاء قضيتته راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن تراجع الحق ، فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التماذي

فى الباطل . ألفم الفهم فىما ىختلج فى صدرك مما لم ىبلغك فى الكتاب والسنة .
أعرف الأمثال والأشباه ثم قس الأمور عندك . فاعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهاها
بالحق فىما ترى .. إلخ) .

ىقول الإمام جلال الدين السىوطى معلقا على هذه القطعة من رسالة سيدنا
عمر رضى الله عنه :

هذه قطعة من كتابه وهى صريحة فى الأمر بتتبع النظائر وحفظها لىقاس
عليها ما لىس بمنقول وفى قوله (فاعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهاها بالحق) إشارة
إلى أن من النظائر ما ىخالف نظائره فى الحكم لمدرک خاص به وهى الفن المسمى
بالفروق الذى تذكر فيه الفرق بين النظائر المتحدة تصويرها المختلفة حكما وعلة .
وفىما نرى إشارة إلى أن المجتهد إنما ىكلف بما ظنه صوابا ولىس عليه أن ىدرك الحق
فى نفس الأمر ولا أن ىصل إلى الیقین وإلى أن المجتهد لا ىقلد غيره) (١) .

وإمامنا الشافعى رضى الله عنه ىقول بالقیاس والاجتهاد فى المسائل والقضايا
التى لم ىرد فىها نص من الكتاب أو من السنة أو الإجماع وقد أكد على هذا
كثیرا فى سائر كتبه ومصنفاته وخاصة كتابه « الرسالة » قال فىه :

(قال : فمن أين قلت . ىقال بالقیاس فىما لا كتاب فىه ولا سنة ولا إجماع ؟
فالقیاس نص خبر لازم ؟ .

قلت : لو كان القیاس نص كتاب أو سنة . قیل فى كل ما كان نص كتاب
: هذا حكم الله » وفى كل ما كان نص السنة « هذا حكم رسول الله ﷺ ، ولم نقل
ه قیاس .

قال : فما القیاس ؟ أهو الاجتهاد ؟ أم هما مفترقان ؟

قلت : هما : اسمان لمعنى واحد .

قال : فما جماعهما ؟ .

قلت : كل ما نزل بمسلم ففىه حكم لازم أو على سبیل الحق فىه دلالة

(١) (الأشباه والنظائر فى الفروع ص ٥ .

موجودة وعليه إذا كان فيه بعينه حكم اتباعه وإذا لم يكن فيه بعينه طلب الدلالة على سبيل الحق فيه بالاجتهاد والاجتهاد القياس .

قال : أفرايت العالمين إذا قاسوا على إحاطتهم من أنهم أصابوا الحق عند الله؟ وهل يسعهم أن يختلفوا في القياس؟ وهل كلفوا كل أمر من سبيل واحد أو سبيل متفرقة؟ وما الحجة في أن لهم أن يقيسوا على الظاهر دون الباطن؟ وأنه يسعهم أن يتفرقوا؟ وهل يختلف ما كلفوا في أنفسهم وما كلفوا في غيرهم؟ ومن الذى له أن يجتهد فيقيس في نفسه دون غيره؟ والذى له أن يقيس في نفسه وغيره؟ .

فقلت له : العلم من وجوه : منه إحاطة في الظاهر والباطن ومنه حق في الظاهر .

فالإحاطة منه ما كان نص حكم لله أو سنة لرسول الله - ﷺ - نقلها العامة عن العامة فهذان السبيلان اللذان يشهد بهما فيما أحل أنه حلال وفيما حرم أنه حرام وهذا الذى لا يسع أحداً عندنا جهله ولا الشك فيه (١) .

وعلم الخاصة سنة من خبر الخاصة يعرفها العلماء ولم يكلفها غيرهم . وهى موجودة فيهم أو فى بعضهم بصدق الخاص المخبر عن رسول الله بها . وهذا اللازم لأهل العلم أن يصيروا إليه ، وهو الحق فى الظاهر كما نقتل بشاهدين ، وذلك حق فى الظاهر ، وقد يمكن فى الشاهدين الغلط وعلم إجماع ، وعلم اجتهاد بقياس على طلب إصابة الحق فذلك حق فى الظاهر عند قايسه لا عند العامة من العلماء ولا يعلم الغيب فيه إلا الله .

وإذا طلب العلم فيه بالقياس فقيس بصحة : أيتفق المقايسون فى أكثره وقد نجدهم يختلفون والقياس من وجهين : أحدهما أن يكون الشئ فى معنى الأصل فلا يختلف القياس فيه . وأن يكون الشئ له فى الأصول أشباه . فذلك يلحق بأولاهها به وأكثرها شبهاً فيه ، وقد يختلف القايسون فى هذا ... إلى آخر ما قاله رضى الله عنه مما أورده من أمثلة يستدل بها على ما ذهب إليه .

ثم استدل على جواز الاجتهاد بحديث عمرو بن العاص رضى الله عنه : أنه

(١) الرسالة ص ٤٧٦ - ٤٨٠ ثم ما بعدها .

سمع رسول الله - ﷺ - يقول: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر» (١).

وورد في مختصر المزني (٢) «الفقهاء من عصر رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا استعملوا المقاييس في جميع الأحكام في أمر دينهم وأجمعوا على أن نظير الحق حق ونظير الباطل باطل فلا يجوز لأحد إنكار القياس لأنه تشبيه الأمور والتمثيل عليها».

وقد أخذ بالقياس والاجتهاد الجمهور ونفاه نفيا مطلقا وهم الظاهرية والشيعة الإمامية والجمهور يستدل بالقياس بالتسوية بين المتماثلين وشذ بعض تباع المذاهب الفقهية فتوسعوا في الأقيسة وحاولوا الجمع بين أشياء لا اشتراك بينها في علة الحكم ثم زادوا في قوة القياس أحيانا فجعلوه مخصصا لبعض عمومات الكتاب والسنة. وهو ما يرفضه الإمام الشافعي رضي الله عنه هذا والقياس مكون من أربعة أركان هي:

(١) الأصل: وهو المصدر من النصوص الذي بين الحكم وقيل: هو موضوع هذا المصدر والمعنيان متلاقيان.

(٢) الفرع: وهو الموضوع الذي لم ينص على حكمه.

(٣) الحكم: الذي أئجه القياس إلى تعديه من الأصل إلى الفرع.

(٤) العلة المشتركة بينهما.

ولا شك أن القياس والاجتهاد ضرورة ملحة إذ بمقتضاه يمكن للعلماء لتعامل مع القضايا والمسائل التي لم يرد بشأنها نص في الكتاب أو في السنة أو لإجماع ولا يكون القياس إلا في أمرين متماثلين في علة الحكم أحدهما أصل يرد فيه النص بالحكم والثاني فرع لم ينص عليه وكانت العلة بينهما مشتركة.

(٥) الاستحسان:

معناه عند من يجوز الأخذ به: أنه استعمال مصلحة جزئية في موضع هارضة فيها قياس عام، وبه يأخذ الأحناف والمالكية.

(١) حديث رواه الترمذي أيضا.

(٢) أصول الفقه أبو زهرة: ٢٠٥، ٢٠٦.

عرفه أبو الحسن الكرخي من الحنفية بقوله : هو أن يعدل المجتهد عن أن يحكم في المسألة بمثل ما حكم به في نظائرها لوجه أقوى يقتضي العبدول عن الأول .

وعرفه ابن العربي من المالكية بتعريف قريب من هذا التعريف فقال :
« الاستحسان : إيثار ترك الدليل والترخيص بمالفته لمعارضته دليل آخر في بعض مقتضياته .

وقسمه إلى أربعة أقسام : وهى : ترك الدليل للعرف ، وتركه للإجماع ، وتركه للمصلحة ، وتركه للتيسير ودفع المشقة .

وروى عن الإمام مالك رضى الله عنه أنه قال : « الاستحسان تسعة أعشار العلم » .

ولم يأخذ به إمامنا الشافعى رضى الله عنه ونفى القول به فى مواضع عديدة فى كتبه .

قال فى كتابه الرسالة : قال هذا كما قلت والاجتهاد لا يكون إلا على مطلوب . والمطلوب لا يكون أبدا إلا على عين قائمة تطلب بدلالة يقصد بها اليها . أو تشبيهه على عين قائمة . وهذا يبين أن حراما على أحد أن يقول بالاستحسان . إذا خالف الاستحسان الخبر . والخبر من الكتاب والسنة عين يتأخي معناها المجتهد ليصيبه كما البيت يتأخاه من غاب عنه ليصيبه أو قصده بالقياس وأن ليس لأحد أن يقول إلا من جهة الاجتهاد . والاجتهاد ما وصفت من طلب الحق فهل تجيز أنت أن يقول الرجل : أستحسن بغير قياس ؟

فقلت : لا يجوز هذا عندى - والله أعلم - لأحد . وإنما كان لأهل العلم أن يقولوا دون غيرهم لأن يقولوا فى الخبر باتباعه فيما ليس فيه الخبر بالقياس على الخبر ولو جاز تعطيل القياس جاز لأهل العقول من غير أهل العلم أن يقولوا فيما ليس فيه خبر بما يحضرهم من الاستحسان .

وإن القول بغير خبر ولا قياس لغير جائز بما ذكرت من كتاب الله وسنة
سوله - ﷺ - ولا فى القياس).

ويعلق الشيخ أحمد شاكر على ما قاله الإمام الشافعى رضى الله عنه بقوله
بلى هامش الرسالة (١):

(قد كان ما خشى الشافعى أن يكون بل خرج الأمر فى هذه العصور عن
حده فصرنا نرى كل من عرف شيئا من المعارف زعم لنفسه أنه يفتى فى الدين
العلم وأنه أعلم به من أهله وخاصة من أشربوا فى قلوبهم علوم أوروبا
عقائدها. يزعمون أن عقولهم تهديهم إلى إصلاح الدين. وإلى الحق فى التشريع
خرجوا عن الخبر وعن القياس إلى رأى والهوى حتى لنكاد نخشى أن تخرج
لاد المسلمين عن الإسلام جملة والعلماء ساهون لاهون أو مستضعفون يخافون
ناس ويخافون كلمة الحق فإننا لله وإنا إليه راجعون وانظر الأم ج ٧ ص ٢٧٣)
هـ.

وأقول: جزاك الله يا أستاذنا عن الإسلام خيرا. وجزى الله إمامنا الشافعى
خير الجزاء وأعظم له المثوبة فإن ما خاف الشافعى رضى الله عنه من وقوعه قد وقع
لقد دس أناس من المتعالمين أنوفهم فى الشريعة الإسلامية وباركهم فى ذلك بعض
علماء من طلاب الدنيا فقالوا على الله بغير علم ونحوا النصوص جاتيا باسم
تنوير والحداثة. والمعاصرة والتحضّر فازداد خوف المتدينين على دينهم
عقيدتهم ولعب الشيطان بعقول البعض وزين لهم أعمالهم. أرجو الله تعالى أن
يهديهم إلى معرفة طريق الصواب ثم يقول الإمام الشافعى رضى الله عنه (٢):

(وإذا كان هذا هكذا كان على العالم أن لا يقول إلا من جهة العلم وجهة
يلم: الخبر اللازم بالقياس بالدلائل على الصواب حتى يكون صاحب العلم أبدا
نبعا خيرا وطالب الخبر بالقياس كما يكون متبع البيت بالعيان وطالب قصده
لاستدلال بالأعلام مجتهدا.

ولو قال بلا خبر لازم ولا قياس كان أقرب من الإثم من الذى قال وهو غير
لم وكان القول لغير أهل العلم جائزا.

(٢) الرسالة ص ٥٠٧ - ٥١١.

(١) ص ٥٠٥.

ولم يجعل الله لأحد بعد رسول الله - ﷺ - أن يقول إلا من جهة علم مضى قبله . وجهة العلم بعد الكتاب والسنة والإجماع والآثار وما وصفت من القياس عليها .

ولا يقيس إلا من جمع الآلة التي يكون له القياس بها وهى العلم بأحكام كتاب الله، فرضه . وأدبه . وناسخه ومنسوخه وعامه وخاصه وإرشاده .

ويستدل على ما احتمل التأويل منه بسنن رسول الله - ﷺ - فإذا لم يجد سنة في إجماع المسلمين . فإن لم يكن إجماع فبالقياس .

ولا يكون لأحد أن يقيس حتى يكون عالما بما مضى قبله من السنن وأقاويل السلف وإجماع الناس واختلافهم ولسان العرب .

ولا يكون له أن يقيس حتى يكون صحيح العقل وحتى يفرق بين المشتبه ولا يعجل بالقول به دون التثبت ولا يمتنع من الاستماع ممن خالفه لأنه قد يتنبه بالاستماع لترك الغفلة ويزداد به تثبيتا فيما اعتقد من الصواب وعليه فى ذلك بلوغ غاية جهده والإنصاف من نفسه حتى يعرف من أين قال ما يقول وترك ما يترك . ويكون بما قال أغنى منه بما خالفه حتى يعرف فضل ما يصير إليه على ما يترك إن شاء الله فأما من ثم عقله ولم يكن عالما بما وصفنا فلا يحل له أن يقول بقياس وذلك أنه لا يعرف ما يقيس عليه كما لا يحل لفقيه عاقل أن يقول فى ثمن درهم ولا خبرة له بسوقه .

ومن كان عالما بما وصفنا بالحفظ لا بحقيقة المعرفة فليس له أن يقول أيضا بقياس لأنه قد يذهب عليه عقل المعانى .

وكذلك لو كان حافظا مقصر العقل أو مقصرا عن علم لسان العرب . لم يكن له أن يقيس من قبل نقص عقله عن الآلة التي يجوز بها القياس .

ولا نقول يسع هذا - والله أعلم - أن يقول أبدا إلا اتباعا لا قياسا . أ . هـ .

وهكذا يرفض الشافعى التقليد وينفيه ولذلك يقول لمن حفظ وكان مقصر العقل أو غير متمكن من لسان العرب أنه يتبع ما عرف من العلم ويمتنعه من أن

يقيس ولكنه لم يجز له أن يكون مقلدا ثم هو يقول في كتابه (اختلاف الحديث) (١).

(العلم من وجهين: اتباع واستنباط، والاتباع اتباع كتاب. فإن لم يكن فسنة فإن لم يكن فقول عامة من سلفنا لا نعلم له مخالفا فإن لم يكن فقياس على كتاب الله عز وجل. فإن لم يكن فقياس على سنة رسول الله ﷺ. فإن لم يكن فقياس على قول عامة سلفنا لا مخالف له ولا يجوز القول إلا بالقياس وإذا قاس من له القياس فاختلفوا وسع كلا أن يقول بمبلغ اجتهاده ولم يسعه اتباع غيره فيما أدى إليه اجتهاده بخلافه).

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه في كتابه (إبطال الاستحسان) (٢) ما يلي:

(وليس للحاكم أن يقبل ولا للوالي أن يدع أحدا. ولا ينبغي للمفتي أن يفتي أحدا. إلا متى يجمع أن يكون عالما علم الكتاب وعلم ناسخه ومنسوخه وخاصه وعامه. وأدبه. وعالما بسنن رسول الله ﷺ وأقاويل أهل العلم قديما وحديثا وعالما بلسان العرب عاقلا يميز بين المشتبه ويعقل القياس فإن عدم واحد من هذه الخصال لم يحل له أن يقول قياسا وكذلك لو كان عالما بالأصول غير عاقل للقياس الذي هو الفرع لم يجز أن يقال لرجل: قس وهو لا يعقل القياس. وإن كان عاقلا للقياس وهو مضيع لعلم الأصول أو شيء منها لم يجز أن يقال له: قس على ما لا تعلم. كما لا يجوز أن يقال: قس لأعمى وصفت له. اجعل كذا عن يمينك وكذا عن يسارك. فإذا بلغت كذا فانتقل متيامنا وهو لا يبصر ما قيل به يجعله يميننا ويسارا. أو يقال: سر بلادا ولم يسرها قط ولم يأتها قط، وليس له سبيلها علم يعرفه ولا يثبت له فيها قصد سمت يضبطه لأنه يسير فيها على غير مثال قويم كما لا يجوز لعالم بسوق سلعة منذ زمان ثم خفيت عنه سنة أن يقال: قوم عبدا من صفة كذا وكذا لأن السوق تختلف. ولا لرجل أبصر بعض سنن من التجارات وجهل غير صنفه والغير الذي جهل لا دلالة له عليه ببعض

(١) ص ١٤٨، ١٤٩.

(٢) الأم ج ٧ ص ٢٧٤.

علم الذى علم قوم كذا كما لا يقال لبناء انظر قيمة الخياطة ولا لخياط انظر قيمة البناء) وقد أبطل الإمام الشافعى الاستحسان وذكر ذلك فى كتابيه الأم (كتاب إبطال الاستحسان) والرسالة وبنى ذلك على ستة أدلة ساقها فيهما فتلخصها فيما يلى :

(١) الاستحسان ليس نصا ولا قياسا وليس إعمالا لآى منهما فهو يناقض الآية (أبحسب الإنسان أن يترك سدى) .

(٢) الاستحسان ليس كتابا ولا سنة ولا ردا للكتاب والسنة . يقول تعالى ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [النساء : ٥٩] والاستحسان تزيد على الكتاب والسنة .

(٣) لم يفت النبى ﷺ بالاستحسان أبدا وإنما كان ينتظر الوحى كما وقع فى آية الظهار وكفارته .

(٤) النبى - ﷺ - قد استنكر على الصحابة الذين أفتوا باستحسانهم عندما أحرقوا مشركا لاذ بشجرة . وعند ما قتل أسامة بن زيد رجلا نطق بالشهادتين .

(٥) الاستحسان لا ضابط له كالقياس إذ يضبط القياس الاعتماد على الأصل الوارد فيه النص أما الاستحسان فلا .

(٦) الاستحسان يعتمد على العقل وحده ولو كان جائزا لجاز ممن ليس عنده علم بالكتاب والسنة ومن لا علم عنده بالكتاب والسنة لا يجوز له أن يكون مجتهدا .

لذا يقول إمامنا رضى الله عنه (من استحسَن فقد شرع) أى قال فى الدين برأيه وهواه وهو غير جائز وحرام كما نص عليه فى الرسالة .

وواضح أن الإمام الشافعى رضى الله عنه يرد الاستحسان الذى يشمل المصلحة المرسلة إذا لم يكن دليل سواها كما يشمل المصلحة التى تعارض الأقيسة والله تعالى أعلم .

قال الشيخ أبو زهرة رحمه الله تعالى (١):

سلك علم أصول الفقه بعد الشافعي مسالك ذات شعب مختلفة كان فيها تنمية له . ذلك أن الشافعي قد لاحظ في منهاجه الذي وضعه عن علم الأصول في الرسالة وفي كتاب جماع العلم وكتاب إبطال الاستحسان أن يكون علم الأصول ميزانا ضابطا لمعرفة الصحيح من الآراء من غير الصحيح وأن يكون قانونا كليا تجب معرفته . ومراعاته عند استنباط الأحكام في عصر من العصور ولقد استخدم هذا المنهاج في مناقشة آراء الفقهاء التي وجدها بين يديه شائعة فاشية فناقش به آراء الإمام مالك في كتاب اختلاف مالك وناقش آراء العراقيين ووزن الأوزاعى والرد عليه الذي كتبه أبو يوسف وبذلك أخضع الآراء الفقهية لمحكمة هذا القياس .

ولقد قيد نفسه في الاستنباط بهذا المنهاج فلم يخرج عنه قيد أثملة وبذلك كانت أصوله هذه هي أصول مذهبه أيضا لا على أنها دفاع عن مذهبه . بل لأنه قبل أن يخرج على الناس بهذا المذهب في العراق ومصر وقد وضع تلك الضوابط المحكمة وسار على منهاجها .

ولهذا كانت أصول الفقه عند الشافعي لا تتجه اتجاهها نظريا فقط بل كانت تسير في اتجاهات نظرية وعملية . أ. هـ .

* * *

(١) أصول الفقه ص ١٣ ، ١٤ .

الفقه الشافعى

الفقه لغة : هو الفهم العميق النافذ الذى يتعرف غايات الأقوال والأفعال .
ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾

[النساء: ٧٨]

وقوله ﷺ : (من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] .

وفى اصطلاح الفقهاء : هو العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية وعلى ذلك يكون موضوع علم الفقه يتكون من جزئين :

أحدهما : العلم بالأحكام الشرعية العملية فالأحكام الاعتقادية كالوحدانية ورسالة الرسل وتبليغهم رسائل ربهم والعلم باليوم الآخر وما يكون فيه كل هذا لا يدخل فى مضمون كلمة الفقه بالمعنى الاصطلاحي وإنما هو موضوعات علم العقيدة .

والجزء الثانى : من موضوع علم الفقه . العلم بالأدلة التفصيلية لكل قضية من القضايا فإذا ذكر مثلا أن بيع السلم لا بد فيه من تسليم رأس المال وقت العقد أقام الدليل على ذلك من الكتاب أو من السنة أو من فتاوى الصحابة (١) ... وهكذا . هـ .

إن لكل مذهب فقهى قواعده وأسسها التى تميزه عما عداه من المذاهب الأخرى ، والمذهب الشافعى له قواعده التى يركز عليها - يقول الإمام جلال الدين السيوطى فى الأشباه والنظائر (٢) :

(حكى القاضى أبو سعيد الهروى أن بعض أئمة حنفية بهراة (مكان) بلغه

(٢) ص ٦٥ .

(١) أصول الفقه : أبو زهرة ص ٤ بتصرف .

أن الإمام أبا طاهر الدباس إمام الحنفية بما وراء النهر رد جميع مذهب أبي حنيفة إلى سبع عشرة قاعدة فسافر إليه وكان أبو طاهر ضريرا وكان يكرر كل ليلة تلك القواعد بمسجده بعد أن يخرج الناس منه . فالتف الهروى بحصير وخرج الناس وأغلق أبو طاهر باب المسجد وسرد من تلك القواعد سبعا فحصلت للهروى سعة فأحس به أبو طاهر فضربه وأخرجه من المسجد ثم لم يكررها فيه بعد ذلك فرجع الهروى إلى أصحابه وتلا عليهم تلك السبع .

قال القاضي أبو سعيد : فلما بلغ القاضي حسين ذلك رد جميع مذهب الشافعى إلى أربع قواعد :

الأولى : اليقين لا يزال بالشك . وأصل ذلك قوله ﷺ : « إن الشيطان ليأتى أحدكم فى صلاته فيقول له أحدثت فلا ينصرف حتى يسمع صوتا أو يجد ريحا » .

الثانية : المشقة تجلب التيسير قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨] .

وقال ﷺ : « بعثت بالحنيفية السمحة » .

الثالثة : الضرر يزال ، وأصلها قوله ﷺ : « لا ضرر ولا ضرار » .

الرابعة : العادة محكمة : لقوله ﷺ « ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن » انتهى قال بعض المتأخرين فى كون هذه الأربع دعائم الفقه كله نظر . فإن غالبه لا يرجع إليها إلا بواسطة وتكلف وضم بعض الفضلاء إلى هذه قاعدة خامسة وهى : الأمور بمقاصدها لقوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات .. » وقال : « بنى الإسلام على خمس والفقه على خمس » قا العلأى وهو حسن جدا فقد قال الإمام الشافعى يدخل فى هذا الحديث : ثلث العلم . وقال الشيخ تاج الدين السبكى : التحقيق عندى أنه إن أريد رجوع الفقه إلى خمس بتعسف وتكلف وقول حملى ، فالخامسة داخلة فى الأولى .

بل رجع الشيخ عز الدين بن عبد السلام الفقه كله إلى اعتبار المصالح ودرء لمفاسد بل قد يرجع الكل إلى اعتبار المصالح فدرء المفاسد من جملتها ، ويقال

على هذا واحدة من الخمس كافية والأشبه أنها الثالثة. وإن أريد الرجوع بوضوح فإنها تربو على الخمسين بل على المائتين (أ. هـ).

ومصادر الفقه عند الإمام الشافعى رضى الله عنه - كما بينا أصول الفقه عنده - هي :

١ - القرآن الكريم.

٢ - السنة النبوية الشريفة وقضاء الصحابة رضى الله عنهم.

٣ - الإجماع .

٤ - القياس والاجتهاد .

ويرفض الإمام الشافعى رضى الله عنه الأخذ بما يلى :

١ - الاستحسان .

٢ - المصالح المرسلة .

٣ - العرف وسد الذرائع .

(لم يقبل الإمام الشافعى مذهب المتكلمين - علماء العقيدة - لتعارضه مع منهج السلف الصالح فى فهم مسائل الشريعة . والسبب : أن المتكلمين حكموا العقل فى كل أمر نظرى أو عملى . وجعلوه هاديا فى فهم الشرع مع ما للعقل من هفوات وضيق أفق وما توصل إليه المتكلمون من تناقض فى المسألة الواحدة وهذا شأن جميع الأئمة ، فالإمام مالك لا يقبل شهادتهم ومحمد بن الحسن - تلميذ أبى حنيفة - ينصح المصلى خلف المعتزلى أن يعيد صلاته . وعدهم أبو يوسف من الزنادقة .

لم يقبل الشافعى منهمجهم المعرفى لاختلاف الطرق وتباين المناهج فى فهم الدين عند الشافعى وعند المعتزلة فهم يرفضون التقليد والسمع أما الشافعى فينصرف إلى الكتاب والسنة يأخذ منهما قواعد فقهه وأصول حججه يؤثر الاتباع والتقليد على الابتداع ولا يؤمن بقدرة العقل المعزول عن أنوار الشريعة فى الوصول إلى الغايات والفهم .

قال الشافعى: « كل متكلم من الكتاب والسنة فهو الحق، وما سواهما هذيان ».

وقال الإمام أحمد: « كان الشافعى إذا ثبت عنده الحديث قال به وخير خصاله أنه لم يكن يشتبهى الكلام وإنما همته الفقه » وقال الشافعى: « ما من شئ أبغض إلى من الكلام وأهله » وقال المزنى « كان مذهب الشافعى كراهية الخوض فى الكلام وكان ينهانا عن الخوض فى الكلام ».

ويقسو - الشافعى - عليهم إلى درجة « أن يضربوا بالجريد ويحملوا على الإبل منكسين ويطاف بهم فى العشائر والقبائل . ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ فى الكلام » (١).

وقد سبق لنا أن بينا رأيه فى علم العقيدة والمتكلمين فيه الذين كان يرفض طريقتهم ومناهجهم الى استخدموها فى هذا العلم الخطير رغم علمه بمسائل العقيدة وقضاياها إلا أنه كان لا يحب الخوض فيها كثيرا.

لقد كان الإمام الشافعى رضى الله عنه عالما يقتدى به وعابدا يتأسى به وفقائها واعيا يندر مثله إلا ما كان من نظرائه (أبو حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل) رضى الله عنهم على اختلاف مناهجهم وآرائهم لقد كان الأربعة سادة العلماء وأئمتهم . وكان إمامنا الشافعى رضى الله عنه أكثرهم تمسكا بالكتاب والسنة ولم يكن يجتهد فى أمر من الأمور إلا إذا كان له ما يؤيده من النصوص (قرآن أو سنة) ولذلك كان القياس عنده قائما على هذا الأساس حدسه دينى إيمانى حديثى لا عقلى ، إذا أعوزه النص لجأ إلى القياس المحدود بقواعد دينية لا فلسفية .

كان - وما يزال - للشافعى رضى الله عنه تراث ضخم بالعراق وله هناك تلاميذ وأتباع، وقد أطلق على تراثه بالعراق (المذهب القديم) .

ولما سافر إلى مصر والتف علماؤها حوله كان له بها تراث وتلاميذ أطلق عليه (المذهب الجديد) .

(١) سيرة الإمام محمد بن إدريس الشافعى وعصره (مقدمة كتاب الام) ص ١٣ ، ١٤ .

عاد الشافعي إلى مكة بعد رحلته الأولى للعراق وكان يحمل معه ما سمعه من علم أهل الرأي الذي أخذه عن محمد بن الحسن تلميذ أبي حنيفة رضي الله عنه ومن فقهاء العراق .

وفي مكة المكرمة شرع في إعادة النظر في أصول المذاهب وفروعها واتخذ له حلقة في المسجد الحرام وكان يقصده ذور المكانة والمنزلة العليا في العلم يستمعون إلى فقهه الجديد الذي ينتصر فيه لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وقد كان مبدعا في استخدام القياس والاجتهاد مما جعل خلق كثير من العلماء ومن غيرهم يلتفون حوله إعجاباً بمنهجه وحسن منطقته حتى بلغت شهرته الآفاق فطلب منه الحافظ الإمام عبد الرحمن بن مهدي أن يضع له كتابا يجمع مقبول الأخبار فيه وحجة الإجماع وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة وحجية السنة فألف كتاب « الرسالة » فأعجب به ابن مهدي كثيرا وقال قولته المشهورة عن الشافعي « لا أعرف له نظيرا في الدنيا » .

وقد وفد الإمام أحمد بن حنبل إلى مكة حاجاً فسمع من الشافعي وتلمذ على يديه فقال : ما رأيت أحداً أفقه في كتاب الله من هذا الفتى أي محمد بن إدريس، وقال إسحاق بن راهويه « كنت مع أحمد بمكة فقال لي « تعال حتى أريك رجلاً لم تر عينك مثله فأراني الشافعي » وقال بشر المريسي بعد اجتماعه بالشافعي « معه نصف عقل الدنيا » .

(أ) المذهب القديم (العراقي) :

انتشر فقه أهل الرأي بالعراق لاعتمادهم على مناهج وأصول لم تعهد عند الصحابة والتابعين وقد سمع من ذلك الشافعي آراء مختلفة أقلقته فسافر إلى العراق لينصر مذهب السنة والحديث كما كان معهودا عند السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين .

قصد الجامع الغربي حيث كانت تعقد حلقات العلم وبدأ يشرح أصول فقهه وقواعده واجتهاده المطلق . وقام العلماء بالعراق بامتحانه ومناظرته عليهم يوقعون به بإبطال قوله أو بإضعافه ولكنه قد أسرهم بحججه وعذوبة منطقته وغلبهم بوافر علمه وحسن أدبه . فأنقلبوا إليه صاغرين وتسابقوا على أخذ

أماكنهم في حلقة درسه وكان منهم: الحسين بن علي الكرابيسي الذي قال: (سألته عن مسألة فلم يزل يقول: قال الله: قال رسول الله ﷺ حتى أظلم علينا البيت فتركنا ما كنا فيه واتبعناه) (١).

وقال إسحاق بن راهويه والكرابيسي وجماعة من الفقهاء «ما تركنا بدعتنا حتى رأينا الشافعي» (٢).

لقد ظهر أمر الإمام في بغداد وتنافل الناس أقواله. وتحدث الناس في أمره وكان يأتيهم كل يوم بأمر جديد وعلم وفهم صحيح لكلام الله عز وجل وحديث نبيه ﷺ حتى قال إبراهيم الحربي رحمه الله تعالى: «قدم الشافعي بغداد وفي الجامع الغربي عشرون حلقة لأصحاب الرأي فلما كان يوم الجمعة لم يثبت منها إلا ثلاث حلق أو أربع» (٣).

أقبل على حلقاته الفقهاء والمحدثون وأهل الرأي. ينهلون من علمه وينتفعون باستنباطاته ويثنون عليه الثناء الجميل. بل ترك الكثيرون منهم مذهبه الذي كان عليه وترك منهجه في الفقه وتمسكوا بطريقته والتزموا منهاجه كأبي ثور «فوجدوا عنده ما لم يجدوه عند غيره» (٤).

لقد ألف الإمام الشافعي رضي الله عنه كتابه «الحجة» في مذهبه العراقي «القديم» فأعجب العلماء بطريقته في التصنيف مثل ما أعجبوا بطريقته في التدريس والفتوى حتى قال الإمام أحمد بن محمد بن حنبل رحمه الله تعالى: (ما من أحد مس محبرة وقلما إلا وللشافعي في عنقه منة). وقال أيضا: (كان الشافعي أفقه الناس في كتاب الله وفي سنة رسوله).

وهؤلاء هم أشهر تلاميذه بالعراق الذي قرأوا وسمعوا وحفظوا فقهه حتى كان لهم جميعا أثرا هاما في تاريخ الحركة العلمية في العراق وغيره وهم:

أحمد بن حنبل، إسحاق بن راهويه، الحارث بن سريح القفال، أحمد بن سنان القطان، أحمد بن خالد الخلال، أحمد بن سريح النهشلي، أحمد بن يحيى بن عبد العزيز البغدادي، الحسين بن علي الكرابيسي والحسن بن محمد الزعفراني، الحسين الفلاس، سليمان بن داود، إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان،

(١) توالي التأسيس ص ٥٨.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٦١.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٦٣.

(٤) المصد السابق ١/ ٤٨.

أبو ثور، لقد ترك الشافعي بغداد وقفل راجعا إلى مكة المكرمة ينشر بها مذهبه بعد أن قضى بالعراق سنتين فالتف حوله بمكة الكثيرون من طلاب العلم والعلماء والفقهاء ينهلون من علمه ويستمدوه منه أصول مذهبه ويتعلمون منه طريقته في الدفاع عن السنة والحديث وفي مكة وضع بعض كتبه ثم عاد إلى العراق مرة ثالثة فوصلها في سنة ١٩٨ هـ وأقام فيها أشهرا ثم تركها قاصدا مصر.

(ب) (المذهب الجديد) المصري:

دخل الشافعي رضي الله عنه مصر سنة تسع وتسعين ومائة وقالوا: سنة مائتين وقيل إحدى ومائتين^(١) وقد صحبه والي مصر متعهدا رعايته والاهتمام به في الفسطاط جامع عمرو بن العاص رضي الله عنه - وعند تركه العراق ودعه أهل بغداد بالحزن والأسى لفراقه يتقدمهم الإمام أحمد بن محمد بن حنبل رضي الله عنه فأمسك الشافعي بيده وقد أحس بأنه لن يراه بعد الآن ثم قال:

لقد أصبحت نفسي تتوق إلى مصر ومن دونها أرض المهامة والفقير

ووالله لا أدرى ألعز والغنى أساق إليها أم أساق إلى القبر؟

وصل الإمام الشافعي إلى الفسطاط ودعاه عبد الله بن عبد الحكم لى النزول عنده فاستجاب له فأعطاه من ماله ألف دينار واستمر الشافعي في دار ابن عبد الحكم إلى وفاته.

كان أتباع أبي حنيفة ومالك رضي الله عنهما في مصر كثيرين ولما سمعوا بقدوم الشافعي رضي الله عنه توافدوا عليه واستمعوا له وفتنوا به فالتفوا من حوله حتى خاف أشهب بن عبد العزيز بن داود القيسي العامري فقيه مصر وصاحب مالك فقد كان يدعو على الشافعي في سجوده ويقول: «اللهم أمت الشافعي وإلا مات علم مالك» ويقول الشافعي «ما أخرجت مصر أفتقه من أشهب لولا طيش فيه» قال هارون بن سعيد بن الهيثم الأيلي «ما رأيت مثل الشافعي قدم علينا مصر فجئناه وهو يصلي فما رأينا أحسن صلاة منه. ولا أحسن وجها فلما تكلم ما رأينا أحسن منه كلاما»^(٢).

(١) المصدر السابق ٤٨/١، ووفيات الأعيان ٥٦٦/١. (٢) توالى التأسيس ٥٩.

وقام يستنبط الأحكام وينشر مذهبه الجديد فشهد له المخالفون بالبراعة وتحول كثير من الفقهاء إلى فقهه حتى أن عبد الله بن الحكم المالكى قال «لولا الشافعى ما عرفت كيف أرد على أحد وبه عرفت ما عرفت رحمه الله».

وفى مصر أعاد الشافعى النظر فى كتابه «الرسالة» فجددها كما أعاد النظر فى كتاب «الحجة» ووضع فى مصر كتباً كثيرة أهمها وأعظمها موسوعته الفقهية الكبرى «كتاب الأم» وفيه قيد مذهبه الجديد وقد أملى على تلاميذه بمصر الكتب والرسائل العديدة.

قال صاحب معجم الأدباء^(١) «أن الشافعى كان يجلس فى حلقة بالمسجد بعد صلاة الصبح فيتخلق أهل القرآن فإذا طلعت الشمس جاء أهل الحديث فإذا ارتفعت الشمس قاموا وجاء أهل العربية والنحو والشعر فلا يزالون إلى قرب انتصاف النهار وعندها ينصرف الشافعى».

وقال الكرابيىسى (ما رأيت مجلساً قط أنبل من مجلس الشافعى كان يحضره أهل الحديث وأهل الفقه وأهل الشعر).

لقد لا زمه بمصر أربعة من علمائها «أبو يعقوب: يوسف بن يحيى البويطى، أبو إبراهيم اسماعيل ابن يحيى المزنى، محمد الربيع بن سليمان المرادى، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الحكم».

لم يكتف الإمام الشافعى رضى الله عنه بإملاء مذهبه على الشيوخ، والمريدين وإنما رابط فى الثغور امتثالاً للحديث الصحيح «عينان لا تمسهما النار: عين بكت فى خشية الله وعين باتت تحرس فى سبيل الله» نراه يصلى الصلوات الخمس فى المسجد الجامع - بالأسكندرية - ثم يصير إلى المحرس فيستقبل البحر بوجهه يحرس الشواطئ وهو جالس يقرأ القرآن الكريم كما ذكره ابن حجر العسقلانى فى توالى التأسيس، لقد ألف الإمام أكثر كتبه فى مصر فى مدة أربع

سنوات مع مرضه الخطير فهذا شئ يثير العجب قال محمد بن إسحاق بن راهويه :
سئل أبى كيف وضع الشافعى هذه الكتب كلها ولم يكن كبير السن ؟ فسمعتة
يقول (عجل الله له عقله لقصر عمره) (١) .

وقال الربيع بن سليمان : (أقام الشافعى - فى مصر - أربع سنوات فأملئ
ألفا وخمسمائة ورقة وخرج كتاب الأم ألفى ورقة وكتاب السنن وأشياء كثيرة فى
مدة أربع سنين وكان عليلا شديد العلة وربما خرج الدم وهو راكب حتى تمتلئ
سراويله وخفه) (٢) .

رحم الله الإمام أحمد بن حنبل الذى قال : (لقد كان الفقه قفلا ففتحه
الشافعى) (٣) .

كان الشافعى يملأ ليله ونهاره بالتأليف لا يعرف طعم الراحة ولا لذة
الكرى . ومن هنا كان السبب فى ذلك العدد الكبير من أسماء الكتب إلى حد أن
يونس بن عبد الأعلى قال : كان الشافعى يضع الكتاب من غدوة إلى الظهر أى لا
يستغرق وضع الكتاب أكثر من نصف النهار .

ثم إن بعض الكتب المذكورة للشافعى لم توضع فى مصر . فكتابه الشهير
« الرسالة » قيل : إنه وضعه بمكة استجابة لطلب الإمام عبد الرحمن بن مهدي .
ويرى الفخر الرازى أنه ألفه بالعراق وكذلك وضع بالعراق كتابه « الحجة » وهو
يشكل مذهبه القديم . وكان الدافع إلى تأليفه الرد على أهل الرأى وطلب
أصحاب الحديث منه أن يضع كتابه « الحجة » وقد رد فى الكتاب على مذاهب
أهل الرأى وعرض لأهم مسائل الفقه الشافعى .

يقول الحافظ الذهبى فى تاريخه الكبير (سئل أحمد - بن حنبل - : ما
ترى فى كتب الشافعى التى عند العراقيين أهى أحب إليك أم التى بمصر ؟ .
قال : عليك بالكتب التى وضعها بمصر فإنه وضع هذه الكتب بالعراق ولم
يحكمها ثم رجع إلى مصر فأحكم تلك) .

(١ ، ٢) المصدر السابق ٧٩ ، ٨٣ .

(٣) مقدمة معرفة السنن والآثار ص ٢٧ .

ومذهب الشافعى الجديد وصل إلينا فيما ألفه بمصر من الكتب وقد سرد الإمام البيهقى فى المناقب كتب الشافعى ما ملخصه كما يلى :

(الرسالة القديمة - الرسالة الجديدة - اختلاف الحديث - جماع العلم - إبطال الاستحسان - أحكام القرآن - بياض الفرض - صفة الأمر والنهى - اختلاف مالك - اختلاف العراقيين اختلافه مع محمد بن الحسن - كتاب على عبد الله - فضائل قریش - كتاب الأم (مائة ونيف وأربعون كتابا) كتاب السنن - والمبسوط قال البيهقى : وبعض كتبه الجديدة لم يعد تصنيفها وهى : الصيام - والصداق - والحدود - والرهن الصغير - والإجارة - والجناز فإنه أمر بقراءة هذه الكتب عليه فى الجديد وأمر بتحريق ما يغير اجتهاده .

هذا ولم يذكر البيهقى كتاب الحجة الذى وضع فيه مذهبه القديم ولعله سقط سهوا من الناسخ .

● رد افتراء :

أجمع المؤرخون على أن كتاب « الأم » أملاه الإمام الشافعى فى مصر وهو رواية الربيع بن سليمان المرادى وسماعه وهو عالم جليل صدوق . وثقه . قال يحيى بن معين : وقد سئل عمن يكتب كتب الشافعى فقال : عن الربيع . ولهذا كان العلماء يرتحلون إليه ليسمعوا منه . قال محمد الطرائقى : حضرت الربيع بن سليمان يوما وقد حط على باب داره تسعمائة راحلة لسماع كتب الشافعى (١) .

وقال فيه الشافعى : (وأما أنت يا ربيع فأنت أنفعهم لى فى نشر الكتب) .

ولقد صدقت فيه نبوءة الشافعى وفراسته فكان الربيع مثالا للصدق والأمانة فى السماع والنقل والتدوين .

أخرج له ابن خزيمة فى صحيحه ، وابن حبان فى صحيحه . والحاكم

(١) تهذيب الأسماء واللغات ٤٨ / ١ .

النيسابورى فى المستدرک وقال ابن أبى حاتم (سمعت منه وهو صدوق . وسئل أبى عنه . فقال : صدوق) .

ولقد أنكر أناس أن يكون كتاب « الأم » من تأليف وإملاء الإمام الشافعى رضى الله عنه وقالوا إنه من تأليف البويطى ثم أعطاه للربيع الذى أضاف إليه ما رآه قال بهذا صاحب قوت القلوب وللأسف الشديد نرى الإمام أبو حامد الغزالى رحمه الله وهو شافعى المذهب يعتنق هذا الرأى وينقل فى كتابه أحياء علوم الدين المجلد الثانى (الحق السابع : الوفاء والإخلاص) هذا الرأى دون أن يبنى حكمه على تحقيق علمى كى تظهر له الحقيقة . ولكنه سرى فى كتابه قصة العلاقة بين الإمام الشافعى ومحمد بن عبد الله بن الحكم الذى كان صديقا حميما للشافعى وكان يطمع فى أن يوليه الشافعى كرسى الأستاذية من بعده ولكنه اختار أبا يعقوب البويطى فسقط فى أيدي محمد ولكن الشافعى فعل ذلك طلبا لرضا الله وليس رضا المخلوقين مما أغضب ابن الحكم الذى ترك مذهب الشافعى وعاد إلى مذهب مالك رحمه الله ثم ألف كتابا سماه « الرد على الشافعى فيما خالف فيه الكتاب والسنة » .

ويقول الغزالى : وآثر البويطى الزهد والخمول ولم يعجبه الجمع والجلوس فى الحلقة واشتغل بالعبادة وصنف كتاب الأم الذى ينسب الآن إلى الربيع بن سليمان ويعرف به وإنما صنفه البويطى ولكن لم يذكر نفسه فيه ولم ينسبه إلى نفسه فزاد الربيع فيه وتصرف وأظهره ^(١) .

ولم يذكر الغزالى مصدر هذا الكلام الذى نقله منه . وهذا خطأ كبير وقع فيه الإمام الغزالى وهو من علماء المذهب الشافعى وكلهم يقرر قديما وحديثا . أن كتاب الأم من تأليف الشافعى تصنيفا وإملاء وقد أملاه على الربيع بن سليمان المرادى . ولم يناع فى هذا أحد إلا ما ذكر . فتلك سقطة كبيرة وقع فيها الغزالى ولا عجب فهذه القصة التى ذكرها دون سند شأنها شأن نقول كثيرة ذكرها فى الإحياء لا سند لها ولا مصدر لها يعتمد عليه .

(١) الإحياء ٢ / ١٠٠ .

فهذه الرواية - إن صحت - فإن مصدرها إثنان :

الأول : إنسان قد أعماه الحقد والطمع والبغض للشافعي كهذا الذي - من علماء الأحناف - قال : إن الشافعي ليس قرشياً إنما هو من الموالي ، وأظنه هو الذي ادعى أن كتاب الأم من تأليف البويطى وقد زاد فيه الربيع وأنقص منه . وليس من تأليف الشافعي رضي الله عنه .

الثاني : موقف مذهبي متعصب من أتباع مذهبي أبي حنيفة ومالك رضي الله عنهما .

وليس أدل على ذلك من سعى بعض علماء المالكية بمصر عند الحاكم لكي يطرد الشافعي من مصر وقد كاد أن يفعل إذ مات الحاكم بعد ثلاثة أيام من موافقته على طلبهم . وهذا هو أشهب بن عبد العزيز المالكي يدعو على الشافعي في صلاته لكي يميتة الله تعالى حتى لا يقضى على مذهب مالك .

وقد دفعهم هذا لما رأوا الناس قد التفوا حول الشافعي وجلسوا في حلقة درسه بجامع عمرو وتركوا حلقات تدريس علماء المذهب الحنفي والمذهب المالكي .

ولقد صدق الإمام الغزالي رحمه الله في قوله (إذا كثر أعداء الرجل فاعلم أنه يقول الحق) .

ورحم الله سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (رحم الله الحق ثم يدع لي صديقا) .

والحق الذي لامرأ فيه ولا جدل حوله أن كتاب الأم قد وضعه الشافعي في مصر إملاء وهو يمثل خلاصة أفكاره التي نضجت واستقرت وأثمرت فكان - بحق - قراءة جديدة وضرورية لجملة من الآراء التي اعتنقها في مكة والمدينة والعراق واليمن كما أنه خلاصة ما اكتسبه من رحلاته العديدة وتجاربه المثمرة ولقاءاته بالعلماء المتكررة فكان - كما أجمع العلماء - موسوعة إسلامية فقهية تمثل مذهب الشافعي وأحكامه وآراءه النهائية التي تركها ذخيرة من بعده للأمة الإسلامية . ولقد أملى ذلك كله على تلميذه الواعي الربيع بن سليمان المرادي

الذى حقق ظن الشافعى فيه وصدقت فيه فراسته رحمه الله تعالى وأجزل له فى العطاء.

ورحم الله الإمام الغزالى عما رواه فى هذا الشأن دون بحث أو تمحيص وتلك آفة الرواية أرجو الله سبحانه وتعالى أن يعفو عنا وعنه إنه سميع مجيب.

مذهبان أم مذهب واحد؟

قالوا إن للإمام الشافعى رضى الله عنه مذهبين فى الفقه الإسلامى (قديم وحديث أو عراقى ومصرى) ولست ممن يقول ذلك ولا أومن به للأسباب التالية:

أولاً: لا أتصور أبداً أن يكون لى إمام مذهبان أو رأيان متغايران فى مسألة واحدة كون أحدهما مضادا ومعارضاً للآخر.

ثانياً: الثابت أن الإمام الشافعى رضى الله عنه كان قد وضع كتابه «الحجة» فى الأساس للرد على أصحاب رأى فى العراق ولم يكن بذلك يؤسس مذهباً وإنما هو يدفع قول أهل رأى الذى لا يستند على نص من القرآن أو من السنة الشريفة.

ثالثاً: إن مذهب الإمام الشافعى الحقيقى هو ما أسسه فى مصر. يدل على ذلك ما صنفه من الكتب الجديدة ككتاب «الأم» وكتاب «اختلاف مالك» وكتاب «جماع العلم» وغيرها.

وكذا ما أعاد النظر فيه وأعاد تأليفه من الكتب التى كتبها بمكة أو بالعراق ككتاب «السالة» الذى أعاد تصنيفه فى مصر ومعروف أن موضوعه هو «أصول الفقه».

رابعاً: إن كل ما ألفه الإمام الشافعى من كتب فى مكة أو فى العراق أو فى مصر هى كلها تمثل مذهبه ولا تدل على أنه كان له مذهبان. فتعديل بعض الآراء والرجوع عن بعضها فيما كتبه بمصر لا يسوغ لنا أن نعتقد أن له مذهبين. لأن هذا التعديل فى الآراء والرجوع عن بعض الأقوال منشؤها سعة الخبرة الناتجة عن كثرة التحصيل للعلم وكثرة المقابلة والتحدث مع العلماء الموافقين والمخالفين.

ومذهب العالم - دائما - يكون فى آخر ما كتب من المصنفات وهو ما مات عليه .

خامسا : لو صح النقل عن العالم رأيين فى مسألة واحدة فالرأى الأخير ناسخ للرأى الأول ومبطل له وإلا وصف هذا العالم بالتردد وعدم الجزم بالقول . وتلك نقطة ضعف تشين علم العالم وتقلل من شأنه ، والإمام الشافعى لم يكن كذلك بشهادة فحول العلماء من الأئمة والمحققين له بحسن الفهم وسعة العلم والخبرة مما جعل الكثير من العلماء يتركون مذاهبهم وينضمون تحت لواءه .

لذا فنحن نؤمن ونقر فى ثبات أن الإمام الشافعى رضى الله عنه له مذهب فقهى واحد بينه وأكد عليه فى كتابه « الرسالة الجديدة » وكتاب « الأم » الذى صنفهما فى مصر وأملاهما عل تلاميذه وخاصة الربيع بن سليمان المرادى رحمه الله تعالى .

وهذا رأى فى هذه القضية فأنا لا أقول قديم أو حديث ولكنى أقول « مذهب الإمام الشافعى » وأقول . إن مذهب الشافعى هو أوسع المذاهب فى موضوعه وأدقها فى تصنيفه وأكثرها التزاما بنص الكتاب ونصوص السنة الشريفة وأحسنها توظيفا للعقل واستخدامه فى التأكد من صحة النص ومعرفة دلالة وتقرير حكمه ومرونة تطبيقه وسعته وتوسعه فى الأخذ بما صح روايته من سنة رسول الله ﷺ متواترا أو آحادا فكان الإمام الشافعى جديرا بهذه الصفة « ناصر السنة » رضى الله عنه وأرضاه .

* * *

مواقف ومحن للشافعي رضي الله عنه

لقد واجه العلماء الأعلام الكثير من المحن والمواقف فتغلبوا عليها وقهروها مكنهم من ذلك إخلاصهم وعلمهم فتفضل عليهم ربنا عز وجل بالنصر والتأييد والهدى والثبات ولقد حظى الإمام الشافعي رضي الله عنه في مسيرة حياته بمواقف ومحن لو ووجه بها غيره لقضى عليه . ولكنه كان يواجه ذلك كله بالثبات والصبر فكان - دائما - هو المنتصر لذلك شاع أمره وذاع صيته .

(١) الشافعي في قيد من حديد

كان الشافعي رضي الله عنه في بلاد اليمن فاتهمه أميرها بالتشيع لأبناء على كرم الله وجهه فحمل إلى بلاد العراق ليلا وكان في رجليه حديد لأنه كان من أصحاب عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - وكان ذلك ليلة الاثنين لعشر خلون من شعبان سنة أربع وثمانين ومائة . وفي ذلك الوقت كان أبو يوسف على قضاء القضاة ومحمد بن الحسن على المظالم . فدخلوا على الرشيد .

فقال محمد بن الحسن « الحمد لله الذي مكنك في البلاد وملكك رقاب العباد من كل باغ وعاد إلى يوم المعاد ولا زلت مسموعا ومطاعا فقد علت الدعوة ﴿ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ [التوبة: ٤٨] » إن شر ذمة من أصحاب عبد الله بن الحسن اجتمعوا وفيهم واحد ينوب عن الكل يقال له : محمد بن إدريس الشافعي يزعم أنه بهذا الأمر أحق منك ويدعي من العلم ما لم تبلغه سنه ولا يشهد له بذلك قوله وله لسان ورواء ويستجليك بلسانه وأنا خائف على هذه الدولة منه كفاك الله مهماتك وأقال عثراتك » .

ثم أمسك فقال الرشيد لأبي يوسف : يا يعقوب كيف الأمر؟ فقال أبو يوسف : محمد صادق فيما قال . ثم أمر بالشافعي فأدخل على الرشيد مقيدا ورمى القوم بأبصارهم إليه . فقال الشافعي : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فقال الرشيد : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته بدأت بسنة لم

تؤمر بإقامتها ورددنا بفريضة قامت بذاتها ومن العجب أنك تتكلم فى مجلس بغير إذننى وأمرى .

فقال الشافعى : إن الله تعالى قال : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي ﴾ [النور: ٥٥] .
وهو الذى إذا وعد وفى فقد مكنتنى فى أرضه وأمننى بعد خوفى .

يا أمير المؤمنين : فقد حدثت أنك لا تقتل قومك صبرا ولا تمكر بهم إذا أقاموا لديك عذرا قال الرشيد : هو كذلك فما عذرك بعد ما ظهر أن صاحبك لما بغى علينا واتبعه الأردلون كنت رئيسا لهم ؟ فقال الشافعى : لما استنطقتنى فسأتكلم عن العدل والإنصاف لكن الكلام مع ثقل الحديد صعب .
فإن جدت على بفكه من قدمى بركت على ركبتى كسيرة آبائى عند آبائك وأفصحت عن نفسى وإن كانت الأخرى فيدك العليا ويدي السفلى والله غنى حميد .

فقال الرشيد لغلامه : يا سراج خل عنه فأخذ ما فى قدميه من الحديد . فجثا الشافعى على ركبتيه وقال : يا أمير المؤمنين : والله لئن يحشرتنى الله تحت راية عبد الله بن الحسن - وهو كما علمت وشيخ قرابة لأبيك لا تنكر عند اختلاف الآراء - أحب إلى وإلى كل مسلم من أن يحشرتنى الله تحت راية « قطرى بن الفجاءة » المازنى الخارجى .

وكان الرشيد متكئا فاستوى جالسا . وقال : صدقت وبررت لأن تكون تحت راية رجل من أهل بيت رسول الله ﷺ خير من أن تكون تحت راية رجل خارجى طغى وبغى لكن ما حجتك على أن قريشا كلهم أئمة وأنت منهم ؟ .

فقال الشافعى : قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦] حاشى لله أن أقول ذلك (لقد أفك المبلغ وفسق وأثم) إن لى يا أمير المؤمنين حرمة

الإسلام وذمة النسب وكفى بهما وسيلة وأحق من أخذ بأدب الله : ابن عم رسول الله ﷺ (الذاب عن دينه المحامي عن أمته) .

قال : فتهلل وجه هارون . ثم قال : ليفرج روعك . فإننا نراعى حق قرابتك وعلمك وأمره بالقعود . ثم قال : كيف علمك بكتاب الله تعالى ؟ فإنه أولى الأشياء أن يبتدأ به ؟ فقال الشافعي : (عن أى كتاب الله تسألنى فإن الله تعالى أنزل كتباً كثيرة على الأنبياء إن الله تعالى أنزل مائة وأربعة من الكتب أنزل على آدم خمسين صحيفة وعلى شيث عشرين وعلى إدريس عشرين وعلى إبراهيم عشرة وأنزل التوراة على موسى والزبور على داود والإنجيل على عيسى والقرآن على محمد ﷺ .

وجمع الله فى القرآن كل ما فى سائر الكتب ، قال الله تعالى : ﴿ تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهْدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرًى لِّلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] وقال : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ [هود : ١] .

فقال الرشيد : أحسنت فى تفصيلك ولكنى ما سألت إلا عن كتاب الله المنزل على ابن عمى وعمك رسول الله ﷺ فقال الشافعي : إن علوم القرآن كثيرة تسألنى عن محكمه أو متشابهه ؟ وعن تقديمه أو تأخيريه ؟ وعن ناسخه أو منسوخه ؟ وعما ثبت حكمه وارتفعت تلاوته أو عما ثبت تلاوته وارتفع حكمه ؟ أو عما ضربه الله مثلاً ؟ أو عما جعله الله اعتباراً ؟ أو عن أخباره ؟ أو عن أحكامه ؟ أو عن مكيه أو مدنيه ؟ أو ليليه أو نهاريه ؟ أو سفره أو حضره ؟ أو تنسيق وضعه أو تسوية سوره ؟ أو نظائره ؟ أو إعرابه أو وجوه قراءته ؟ أو عدد حروفه ؟ أو معانى لغاته ؟ أو عدد آياته ؟ .

قال : وما زال الشافعي يعدد هذه العلوم حتى عد ثلاثة وسبعين نوعاً من أنواع علوم القرآن .

فقال هارون : لقد أوعيت من القرآن علماً عظيماً .

فقال الشافعي : المحنة على الرجل العالم كالنار على الذهب الإبريز .

ثم قال الرشيد : فكيف بصرك بسنة رسول الله ﷺ ؟

فقال الشافعي : إني لأعرف منها ما خرج على وجه الإيجاب فلا يجوز تركه . وما خرج على وجه الحظر فلا يجوز فعله . وما خرج على وجه الخاص فلا يشاركه فيه غيره وما خرج على وجه العموم فيدخل فيه غيره وما خرج جواباً عن سؤال سائل فليس لغيره استعماله . وما خرج من النبي ﷺ ابتداء لا زدحام العلوم في صدره وما فعله النبي ﷺ فيقتدى به غيره وما خص به الرسول ﷺ فلا يقتدى به غيره .

فقال الرشيد : أجدت الترتيب يا شافعي لسنة رسول الله ﷺ ووضعت كل قسم في مكانه الخاص به .

فقال الشافعي : ﴿ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ۖ ﴾ [يوسف : ٣٨] وإنما شرفنا برسول الله ﷺ وبك .

فقال الرشيد : فكيف بصرك بالعربية ؟

فقال الشافعي : هي ميداننا طباعنا بها تقدمت وألستنا بها جرت . ولقد ولدت ما أعرف اللحن فكنت كمن سليم من الداء فلم يَحْتَجْ إِلَى الدَّوَاءِ . والقرآن شهد لي بذلك قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ﴾ [إبراهيم : ٤] وأنت وأنا منهم فالعنصر رصيف والجرثومة منيفة أنت أصل ونحن فرع .

فقال الرشيد : صدقت - بارك الله فيك - فكيف معرفتك بالشعر ؟

قال الشافعي : إني لأعرف الجاهلي والمخضرم والمحدث . وأعرف طويله وكامله وسريعه ومجتنه ومنسرحه وخفيفه وهزجه ورجزه وحكمته وغزله وما ذكره في الأمثال والمراثي . والمدايح والنسيب وأروى المشهور والشاذ وما نبه المكارم وما شحذ بصيرة الصارم فقال الرشيد : فكيف علمك بالأحكام ؟

قال الشافعي : في العبادات أم في المعاملات ؟ أم في العتاق والمناكحات ؟ أم في السير والمحاربات ؟ أم في العقول والديات ؟ أم في الأشربة والبياعات ؟ أم في الأشربة والمطعومات ؟

قال الرشيد : فكيف علمك بالنجوم ؟

قال الشافعي : أعرف الفلك الدائر والنجم السائر، والقطب الثابت . والمائي والترابي والهوائي والناري . وما كانت العرب تسميه الأنواء ومنازل النبرين والرجوع والاستقامة والسعود والنحوس وهيئاتها وطبعائها وما اهتدى به في بر وبحر وما يستدل به على أوقات الصلوات وأحوال الفصول والأوقات .

قال الرشيد : فكيف علمك بالطب ؟ .

قال الشافعي : أعرف ما قالت الروم مثل (أرسطاطاليس) و (أبقرط) و (جالينوس) و (وفريريوس) و (انبذ قليس) بلغاتها . وما نقله أطباء العرب وفتقته فلاسفة الهند ونمقته علماء الفرس مثل : (جاماشب) و (شاهمر دو) و (بزرجمهر) .

قال الرشيد : فكيف علمك بالأنساب ؟ قال الشافعي : يا أمير المؤمنين : ذلك علم لم يسعنا جهله في الجاهلية . مع تمحض الكفر وتغمض الحق ليكون عوناً على التعارف ومعرفة الأكفاء وإنني لأعرف جماهير الأقسام . وأنساب الكرام ومآثر الأيام وفيها نسبة أمير المؤمنين ونسبتي ومآثر آبائه وآبائي .

قال : وكان هارون الرشيد متكئاً . فلما سمع من الشافعي هذه الكلمات استوى جالساً وقال : يا ابن إدريس لقد ملأت صدري . وعظمت في عيني فعظني موعظة أعرف بها مقدار علمك وكنه فهمك .

فقال الشافعي : على شريطة يا أمير المؤمنين قال : هي لك فما هي ؟ .

قال : طرح الحشمة . ورفع الهبة . وإلقاء رداء الكبرياء عن منكبيك . وقبول النصيحة وإعظام حق الموعظة والإصاخة لها وبشرط أن تقيس نفسك وتنشر شرك وتجعل نفسك بين يدي ربك مسكيناً .

فقال الرشيد : قد فعلت مثل ما قلت ، فعظ وأوجز .

فجلس الشافعي ، وحسر عن ذراعيه وجثا على ركبتيه ثم أشار إليه وقال : إنه من أطال عنان الأمن في الغرة طوى عنان الحذر في المهلة ومن لم يعول على طرق النجاة كان بمنزلة قلة الاكتراث من الله مقيماً وصار في أمنه مثل نسيج العنكبوت لا يأمن على نفسه ولا يضيئ له ما أظلم عليه من أمسه ، أما لو اعتبرت

بما سلف واستقبلت بالحسنى المؤتلف ونظرت ليومك وقدمت لغدك وقصرت
أملك وصورت بين عينيك عملك واستقصرت مدة الدنيا وتوجهت إلى ما يصلح
حالك فى العقبى لما امتدت إليك يد الندامة ولا ابتدرتك الحسرات غدا فى
القيامة ولكن ضرب عليك رواق الحيرة فإذا بدت لك يد موعظة لم تكد ترها
﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

قال : فبكى هارون الرشيد كثيرا وارتفع صوته فقال بعض الحاضرين : يا هذا
أسكت فقد أبكيت أمير المؤمنين . فنظر الشافعى إليهم مغضبا . وقال : يا عبيد
الرجعة وأعوان الظلمة . الذين باعوا أنفسهم بمحسوب الدنيا الفانية واشتروا عذاب
الآخرة الباقية أما رأيتم من كان قبلكم كيف استدرجوا بالإملاء ورفهوا بتواتر
النعماء ثم أخذوا ﴿أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ﴾ [القمر: ٤٢] أما رأيتم كيف فضح
مستورهم وأمطروا بواكد الهوان عليهم فأصبحوا بعد سكنى القصور والنعمة
الحبور بين الجنادل والصخور وأفناء القبور عرضا للدثور . ومن وراء ذلك وقوف
بين يدي الله تعالى ومساءلته عن الخطرة وما هو أخف من الذرة : حصائد النقم
ومدارج المثالات ونهبة الخوف والروعات فكن لله فى اليوم كما تحب أن يكون الله
لك فى الغد فإنه ما ولى أحد أمر عشرة إلا جاء يوم القيامة ويده مغلولتان إلى
عنقه لا يفكهما إلا عدله . وأنت أعرف بنفسك فعظم بكاء الرشيد ههنا ثم قال :
فذاك يا ابن إدريس . فقد سللت علينا لسانك وهو أمضى من سيفك .

فقال الشافعى : هو لك يا أمير المؤمنين إن قبلت لك لا عليك .

فقال الرشيد : كيف السبيل إلى الخلاص ؟ .

فقال الشافعى : أن تتفقد حرم الله وحرم رسوله بالعمارة وتؤمن السبيل
وتنظر فى أمر الأمة وتعطى أولاد المهاجرين والأنصار حقهم من الفئ لئلا تزعجهم
الحاجة عن أوطانهم وتنظر فى العامة والشغور وتبذل العدل والنصفة وتتخذ أهل
العلم والورع شعارا وتشاورهم فيما ينوب وتعصى أهل الريب . ومن يزين لك
قطع ما أمر الله به أن يوصل .

قال الراوى : فنظرت إلى محمد بن الحسن وقد تغير لونه . قال الرشيد : ومن

يطبق ذلك ؟

قال : من تسمى باسمك وقعد مثل مقعدك .

قال الرشيد : قد أمرت بصلة فاقبلها .

فقال الشافعي : كلا والله لا يراني الله وقد سودت وجه موعظتي بقبول الجزاء عليها ولقد عاهدت الله عهدا أن لا أخلى ملكا من الملوك يكون في غفلة إلا ذكرته الله .

ثم نهض الشافعي : فلما خرج أقبل الرشيد على أبي يوسف ومحمد . وقال : ما رأيت كالיום قط أبهذا تغرياني ؟ لقد يؤتما اليوم بإثم عظيم .

ثم إن الشافعي دخل بعد ذلك على الرشيد فأمر له بألف دينار فقبلها فضحك الرشيد وقال : ما أفطنك قاتل الله عدوك .

فلما خرج الشافعي أمر الرشيد غلامه (سراجا) باتباعه حتى يرى ما يفعل الشافعي قال : فجعل الشافعي يفرق ذلك الذهب قبضة قبضة حتى انتهى إلى خارج الدار وما معه إلا قبضة واحدة فدفعها إلى ذلك الغلام وقال : انتفع بها .

فرجع الغلام إلى الرشيد وأخبره بما رأى . أ. هـ هذه الرواية أصح الروايات وأدقها وروى الشيخ اسماعيل البوشنجي قال : (إن الشافعي دخل في بعض الأيام على الرشيد فامتنحنه أبو يوسف ومحمد بن الحسن - صاحب أبي حنيفة - بمسائل أثبتاها في درج ودفعها ذلك إليه في ذلك المجلس فأجاب عنها بأسرها في الحال وسألها عن مسألتين فعجزا عن الجواب) .

لقد سألاه الجواب عن ستة عشر سؤالا فأجاب عليها وسألها سؤالاين فعجزا عن الجواب وكان ذلك في مجلس هارون الرشيد نذكر منها على سبيل المثال وليس للحصر ما يلي :

(٢) الإمام الشافعي يجيب

سأل محمد بن الحسن وأبو يوسف : يعقوب بن ابراهيم فقالا :

ما تقول في رجلين خطبا امرأة فحلت لأحدهما . ولم تحل للآخر وليست بمحرم له ؟

فقال الشافعى : إن أحد الرجلين كان له أربع نسوة فحرمت عليه الخامسة .

فقالا : ما تقول فى رجلين شربا خمرا فوجب على أحدهما الحد ولم يجب على الآخر وكانا مسلمين ؟

فقال الشافعى : إن أحدهما كان حرا بالغا فوجب عليه الحد . والآخر كان صبيا لم يبلغ الحلم .

قالا : فما تقول فى خمسة زنوا فوجب على أحدهم القتل . وعلى الآخر الرجم وعلى الثالث الحد . وعلى الرابع نصف الحد . والخامس لم يجب عليه شئ .

فقال الشافعى : أما الأول : فمشارك زنى بمسلمة . فوجب عليه القتل . وأما الثانى : فمحض زنى فوجب عليه الرجم . وأما الثالث . فبكر زنى فوجب عليه الحد . وأما الرابع : فمملوك زنى فوجب عليه نصف الحد . وأما الخامس : فصبى أو مجنون .

قالا : فما تقول فى جماعة صلحاء سجدوا لغير الله تعالى وهم فى فعلهم مطيعون ؟

قال الشافعى : إنهم الملائكة سجدوا لآدم عليه السلام .

قالا : رجل ذبح شاة فى منزله . ثم خرج لحاجة وعاد . فقال لأهله كلوا أنتم الشاة فقد حرمت على ، فقال أهله ونحن أيضا حرمت علينا .

فقال الشافعى : هذا الرجل كان مشركا فذبح الشاة على اسم الأنصاب وخرج من منزلة لبعض المهمات فهداه الله تعالى وأسلم ثم عاد وقال لأهله : إن الله قد رزقنى الإسلام وإن هذه الذبيحة حرمت على فكلوها أنتم فلما سمع قومه ذلك فرحوا بإسلامه وأسلموا فحرمت الذبيحة عليهم أيضا .

وسألاه عن رجل قال لولده : إن مت فلك ألفا درهم ولو كنت ابن ابنى كان لك عشرة آلاف درهم .

أجاب : إن الرجل كان يملك ثلاثين ألف درهم وكانت له ثمانية وعشرون بنتا فحصة كل بنت ألف دهم . وحصة الابن ألفان .

ولو كان ابن ابن كان للبنات الثلاثان والباقي له . وهو : عشرة آلاف درهم وسألاه عن امرأة ادعت : أن زوجها ما قاربها منذ تزوج بها وأنها بكر كما خلقت أجاب : يدعى يقابله فتؤمر أن تحمل بيضة فإن غابت البيضة فقد كذبت وإن لم تغب فقد صدقت .

وسألاه : عن رجل دفع إلى امرأته كيسا ملأنا مربوطا مختوما وقال لها : أنت طالق إن فتحتيه أو فتقتيه أو كسرت ختمه أو خرقتيه وأنت طالق إن لم تفرغيه وتعطيني الكيس مربوطا مختوما فأجاب : إن الكيس كان مملوءا من السكر أو الملح فوضعت المرأة في الماء حتى يذوب ثم دفعت الكيس إليه فارغا ولما أجاب الإمام الشافعي رضي الله عنه على هذه المسائل وغيرها عجب الرشيد من علم الشافعي ومن قوة خاطره ومن جودة فهمه وقال : لله رب بنى عبد مناف لقد بينت وفسرت وأحسننت وأبلغت وما تلعثمت .

(٣) الإمام الشافعي ليسأل :

قال الشافعي للرشيد . إني لسألكما عن مسألتين موجزتين لا أطيل عليهما فإن أجابا فله الحمد - وذلك ظني بهما - وإن لم يجيبا فإني أسأل أمير المؤمنين أن يكف عني شرهما ثم قال لأبي يوسف : ما يقول القاضى فى رجل مات وخلف ستمائة درهم . وفى جملة ورثته أخت لم يكن نصيبها إلا درهم واحد . فكيف تفرض هذه المسألة ؟ .

ثم قال لمحمد بن الحسن ما يقول الشيخ فى رجل تزوج بامرأة وتزوج ابنه بأمها فجاءت كل واحدة منهما بابن ما يكون هذا من ذاك وذاك من هذا ؟ .

قال : فأطرقا وطلال فكرهما وما أجابا . . . فقال الرشيد : فسرهما فمالهما غيرك قال الشافعي : أما المسألة الأولى فقد بلغنى أن امرأة جاءت إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب - رضى الله عنه - وقد وضع رجله فى ركاب البغلة فقالت : يا

أمير المؤمنين قد توفي أخى وخلف ستمائة درهم فدفعت إلى منهما درهما واحدا فكيف فرضت هذه الفريضة . وأنت أنت ؟

فقال على : فرضتها بحكم الله تعالى : مات أخوك وخلف ستمائة درهم وخلف بنتين ولهما الثلثان أربعمائة درهم . وأما ولها السدس مائة درهم . وزوجة ولها الثمن خمسة وسبعون درهما . وخلف من الإخوة إثنا عشر أخذوا أربعة وعشرين درهما درهمين فلم يبق لك من الستمائة إلا درهم واحد فهذا حكم الله فى هذه المسألة .

فتبسم الرشيد . وقال : صدق أبو الحسن ووفق ولم يزل موقفا .

قال الشافعى : وأما المسألة الثانية . فجوابها : أن ابن الأم خال ابن البنت وابن البنت عم ابن الأم .

فأقبل الرشيد على أبى يوسف ومحمد وقال : اتركاه فإنكما لن توازيا ولن تعادلاه والله تعالى قد أثبت له حق القرابة من رسول الله ﷺ وحق الشرف وحق القرآن وحق العلم فاتركاه وإلا فأنا خصمكما .

فقالا : نعوذ بالله من ذلك . فإن أمير المؤمنين هو المطاع فى جميع أحكامه .

ثم أمر للشافعى بألف دينار فخرج وفرق الكل على الحاشية والخدم فأخبر الرشيد بذلك فقال : ألا إن بنى المطلب ما فارقوا رسول الله ﷺ فى شرف ولا فى سخاوة . والله الموفق .

(٤) الإمام الشافعى يناظر ابن الحسن :

ذكروا : أن الشافعى لما أحضر مع العلويين من اليمن وأحضر باب الرشيد . اتفق أن كان ذلك فى وهن الليل وكانوا يدخلون عشرة عشرة منهم إلى الرشيد فجعل يقيم واحدا واحدا منهم ويتكلم معه من داخل الستر ويأمر بضرب عنقه .

قال الشافعى : فلما انتهى الأمر إلى قلت : يا أمير المؤمنين عبدك وخادمك محمد بن إدريس فقال : يا غلام اضرب عنقه فقلت : يا أمير المؤمنين كأنك

اتهمتنى بالإنحراف عنك والميل إلى العلويين وسأضرب لك مثلاً في هذا المعنى :
ما تقول يا أمير المؤمنين في رجل له ابنا عم . أحدهما خلطه بنفسه وأشركه في
نسبه وزعم أنه ماله حرام عليه إلا بإذنه . وأن ابنته حرام عليه إلا بتزويجه والآخر
زعم أنه دونه بل كالعبد له فهذا الرجل إلى أيهما يميل ؟ فهذا مثلك يا أمير
المؤمنين ومثل هؤلاء العلويين .

قال : فاستعاد الرشيد هذا القول ثلاث مرات وكنت أعبر عن هذا المعنى
بألفاظ مختلفة فقال الرشيد : احبسوه فحبسوني في دار العامة فضاقت قلبي في
الحبس فنظرت فما رأيت أحداً أستأنس به إلا محمد بن الحسن صاحب أبي
حنيفة رضي الله عنه - وكنت أميل إليه للفقهِ وأؤمل أن يشفع لي عند السلطان
فحضر يوماً وأقبل يذم المدينة ويضع من أهلها ويعظم من أصحاب نفسه ويرفع
من أقدارهم وذكر أنه وضع على أهل المدينة كتاباً وزعم أنه لو عرف أن أحداً من
أهل الدنيا ممن بمكة يمكنه أن ينقض منها حرفاً لذهب إليه وناظره .

قال الشافعي : فرأيت وجوه أولاد المهاجرين والأنصار اسودت مما سمعوه من
ذم المدينة وأهلها . ورأيت وجوه أصحاب محمد بن الحسن أشرقت عند سماع
تلك الكلمات .

قال : فبقيت أتردد أن أجيبه عن كلامه وأبيض وجوه أولاد المهاجرين
والأنصار ويزداد غضب السلطان عليّ وبين أن أسكت رجاء أن يصير محمد بن
الحسن شفيعاً لي عند السلطان .

ثم اخترت رضي الله تعالى في ذلك وقلت : يا أبا عبد الله أراك تهجو المدينة
وتذم أهلها . فإن كنت أردتها فإنها حرم رسول الله ﷺ ودار هجرته بها نزل
الوحي وفيها دفن رسول الله ﷺ وبها قبره سماها رسول الله ﷺ « طابة » وذكر أن
فيها روضة من رياض الجنة .

وإن كنت أردت أهلها فهم أصحاب رسول الله ﷺ وأحبابه وأنصاره
وأصهاره الذين مهدوا للإيمان وحفظوا الوحي وجمعوا السنن .

وإن كنت أردت من بعدهم فهم التابعون والعلماء في هذه الأمة .

وإن كنت أردت من القوم رجلاً واحداً وهو «مالك بن أنس» فما عليك لو سميت من أردت ولم تذكر المدينة وأهلها.

قال: ما أردت إلا «مالك بن أنس» وأردت فساد قوله في القضاء بالشاهد واليمين فإن ذلك على خلاف قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]

قال الشافعي: فقلت: قد قرأت كتابك الذي وضعتهم فوجدت ما بين قولك «بسم الله الرحمن الرحيم» وقولك «وصلّى الله على محمد وآله الطيبين» كله خطأ وذلك لأنك قلت في رجلين تداعيا جداراً ولا بينة لهما. إن الجدار لمن يليه أنصاف اللين وقلت في متاع البيت يدعيه الزوجان ما كان يصلح للرجال فهو للرجل وما كان يصلح للنساء فهو للمرأة. وقلت في رجل يجحد ولداً جاءت به امرأته ويقول: لم تلديه ولكن استعرتيه إنه تقبل شهادة القابلة وقلت في الرفوف إذا ادعاها صاحب الحانوت وساكنه إن كانت منفصلة غير مسمرة فهي للساكن وإن كانت متصلة مسمرة فهي لرب الحانوت. فقضيت للمدعي في هذه الصورة بغير بينة ولا يمين ثم أنكرت علينا الشاهد واليمين. وهو سنة رسول الله ﷺ وقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

فلما سمع محمد بن الحسن هذه الكلمات من الشافعي اصفر وجهه وسكت.

قال الشافعي: فعارضني رجل من أصحابه في ذلك المجلس. فقال: ما تقول في رجل دخل منزل رجل فرأى بطة فرماها. ففقأ عينها ماذا يجب عليه؟.

قلت: ينظر إلى قيمتها وهي صحيحة وإلى قيمتها وقد ذهبت عينها فيغرم ما بين القيمتين لكن ما تقول أنت وصاحبك في مُحْرَمٍ نظر إلى فرج امرأة فأنزل ولم يكن لمحمد بن الحسن حذاقة بالمناسك. قال: فصاح به محمد بن الحسن. وقال: ألم أقل لك لا تسأله.

وروى أن لما وصل خبر هذه المناظرة إلى الرشيد. قال: أما علم محمد بن الحسن أن رسول الله ﷺ قال: «إن عقل الرجل من قريش عقل الرجلين من غير قريش» ثم أرسل إليه بأنه قد رضي عنه.

وسأله أن يوليه على قضاء اليمين.

فقال الشافعي: لا حاجة له فيه ولكن حاجتي أن أعطي من سهم ذوى القربى بمصر.

فقبل الرشيد ذلك. وقال «أكثر الله فى أهلى مثلك».

(٥) دعاء:

روى أن الشافعي رضى الله عنه لما دخل على هارون الرشيد، وكان خائفا منه.

قرأ أولا: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.

ثم قال: وأنا أشهد بما شهد الله به واستودع الله هذه الشهادة. وهذه الشهادة وديعة لى عند الله تعالى يردّها إلى يوم القيامة.

اللهم إني أعوذ بنور قدسك. وعظمة طهارتك وبركة جلالك عن كل سوء وآفة وعاهة. ومن طوارق الليل والنهار. ومن طوارق الجن والإنس إلا طارقا يطرق بخير اللهم أنت غياثي فبك أستغيث، وأنت عياذى فبك أعوذ وأنت ملاذى فبك ألوذ يا من ذلت له رقاب الجبابرة. وخشعت له أعناق الفراعنة. أعوذ بك من خزيك وعن كشف سترك. ومن نسيان ذكرك والانصراف عن شكرك أنا فى حرزك وكنفك وكلئلك فى ليلى ونهارى ونومى وقرارى. وظعننى وأسفارى وحياتى ومماتى ذكرك شعارى وثناؤك دثارى لا إله إلا أنت سبحانك ونحمدك. تشريعا لعظمتك وتكريما وتنزيها لسبحات وجهك أجرنى من خزيك ومن عقابك ومن شر عبادك واضرب على سرادقات حفظك وقنى سيئات عذابك. وأدخلنى فى حفظ عنايتك. وجد على بخير يا أرحم الراحمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم والصلاة على النبى المصطفى محمد وآله وصحبه وسلم كثيرا.

يقول الفخر الرازى: (ومن الناس من روى هذا الدعاء عن رسول الله ﷺ ولكن الإسناد ضعيف والله تعالى أعلم).

استنباطات الشافعى

كان الإمام الشافعى رضى الله عنه على درجة كبيرة فى تحصيل العلم وحسن الفهم وقوة الإدراك كما كان ذا مقدرة عالية فى الاستنباط من كتاب الله تعالى وسنة الرسول ﷺ وتلك ميزة تميز بها الفقه الشافعى عن غيره . مما أكسبه ذيوفا وانتشارا فى العالم الإسلامى وسنورد بعضا من لطائف استنباطاته كنماذج تبين لنا عن عبقرية الإمام وخصوبة ما حصله من العلوم والمعارف ومقدرته الفائقة فى الاستنتاج والاستدلال لرجاحة عقله وقوة ذكائه وفطنته وتلك هى النماذج :

١ - فى مجلس الإمام مالك رضى الله عنه .

روى محمد بن جرير الطبرى - صاحب التفسير - عن الربيع قال :

كان الشافعى جالسا يوما من الأيام بين يدى مالك بن أنس فجاء رجل إلى مالك : فقال : يا أبا عبد الله : إننى رجل أبيع القمرى . وإنى بعت يومى هذا قمريا - طائر - فبعد زمان أتانى صاحب القمرى . فقال : إن قمريك لا يصيح فتشاجرنا إلى أن حلفت بالطلاق على أن قمرى ما يهدأ من الصياح . قال مالك : طلقت امرأتك فانصرف الرجل حزينا .

فقام الشافعى إليه . وهو يومئذ ابن أربع عشرة سنة . وقال للسائل : أصياح قمريك أكثر أم سكوته ؟ قال السائل : بل صياحه أكثر .

فقال الشافعى : امض فإن زوجتك ما طلقت .. ثم رجع الشافعى إلى الحلقة فعاد السائل إلى مالك وقال : يا أبا عبد الله تفكر فى واقعتى لتستحق ثواب الجواب .

فقال مالك : الجواب ما تقدم . قال : فإن عندك من قال لى : إن الطلاق غير واقع .

فقال مالك . من هو ؟ فقال السائل : هو هذا الغلام .. وأوما إلى الشافعى . فغضب عليه مالك . وقال : من أين لك هذا الجواب ؟ .

فقال الشافعي : لأنى سألته . أصياحه أكثر أم سكوته ؟ فقال : إن صياحه أكثر .

فقال مالك : وهذا الدليل أقبح . وأى تأثير لكثرة صياحه وقلة سكوته فى هذا الباب ؟ .

فقال الشافعي : لأنك حدثتني عن عبد الله بن يزيد عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن فاطمة بنت قيس : أنها أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله . إن أباجهم ومعاوية خطباني فأيهما أتزوج ؟ فقال النبي ﷺ : (أما معاوية فصعلوك وأما أبو جهم فرجل لا يضع عصاه عن عاتقه)^(١) وقد علم رسول الله ﷺ أن أباجهم كان يأكل وينام ويستريح فعلمنا أن النبي ﷺ عني بقوله (لا يضع عصاه عن عاتقه) على تفسير : أن الأغلب من أحواله ذلك . قلت : فكذا ههنا . حملت قوله : هذا القمري لا يهدأ عن الصياح على أن الأغلب من أحواله ذلك .. قال : فلما سمع مالك ذلك . تعجب من الشافعي ولم يقدح فى قوله البتة^(٢) . وفى رواية نور الأبصار بزيادة وقال له : (يا شافعي أفت فقد آن لك أن تفتي) .

٢ - وروى البيهقي فى مناقب الشافعي^(٣) : قال : حضر الشافعي فى مجلس ابن عيينة فروى ابن عيينة عن الزهرى عن على بن الحسين رضى الله عنهما : أن النبي ﷺ مر به رجل فى بعض الليل . وهو مع امرأته « صفية » فدعا الرجل وقال له : « هذه امرأتى صفية » فقال الرجل « سبحان الله يا رسول الله » فقال النبي ﷺ : (إن الشيطان يجرى فى الإنسان مجرى الدم)^(٤) .

ثم قال ابن عيينة للشافعي : ما فقه هذا الحديث ؟ .

فقال الشافعي : إن كان القوم اتهموا النبي ﷺ فقد كفروا لكنه عليه السلام أدب من بعده وقال : إذا كنتم هكذا فافعلوا هكذا حتى لا يظن بكم ظن السوء .

(١) رواه مالك فى الموطأ ٢ / ٥٨٠ رواه الشافعي فى كتاب الرسالة ٣٠٩ .

(٢) مناقب الإمام الشافعي للرازي : ٣٠٢ ، ٣٣ ومناقب الشافعي للبيهقي : ٢ / ٢٣٩ .

(٣) المناقب ١ / ٣٠٩ ، ٣١٠ . (٤) صحيح مسلم ٤ / ١٧١٢ .

فقال ابن عيينة: جراك الله خيرا يا أبا عبد الله ما نرى منك إلا ما نحب.

وروى الفخر الرازي رحمه الله تعالى: كان الشافعي يقول بمكة سلونى عما شئتم أخبركم عنه من كتاب الله تعالى. ف قيل له: ما تقول فى المحرم يقتل الزنبور؟.

فقال: بسم الله الرحمن الرحيم. قال الله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ وحدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعى بن حراش عن حذيفة بن اليمان عن النبى ﷺ أنه قال: (اقتدوا باللذين من بعدى: أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما -) وحدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر بن كرام عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) أنه أمر المحرم بقتل الزنبور.

٣ - وروى البيهقي والرازي (١) قالا: دخل أحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه ويحيى بن معين مكة وأرادوا عبد الرزاق فدخلوا المسجد الحرام فرأوا رجلا شابا على كراسى وحوله الناس وهو يقول: يا أهل الشام ويا أهل العراق. سلونى عن سنن رسول الله ﷺ قال إسحاق بن راهويه. فقلت لبعض الناس، من هذا الجالس؟.

قالوا: إنه الشافعي المطلبى. قال إسحاق فقلت لأحمد بن حنبل: تعال حتى نذهب إليه فلما ذهبنا إليه قلت لأحمد بن حنبل يا أبا عبد الله سله عن قوله ﷺ (أمكنوا الطيور فى أوكارها) (٢).

قال أحمد: تفسير هذا معلوم. ومعناه: دعوا الطيور فى ظلمة الليل فى أوكارها فقال إسحاق لأحمد والله لأسأله: يا مطلبى ما تفسير هذا الحديث؟.

فقال الشافعي: كان أهل مكة فى الجاهلية إذا أرادوا سفرا عمدوا إلى طير فسرحوها فإن أخذت يميناً استحسنا ذلك الفأل. وإن أخذت شمالاً أوجعت

(٢) سنن أبى داد ٣ / ١٣٨.

(١) البيهقي ١ / ٣٦٢ والرازي ٣٠٣، ٣٠٤.

إلى الخلف تطيروا ورجعوا فلما بعث النبي ﷺ نهى عن ذلك فقال: (أمكنوا الطيور في أوكارها وبكروا على اسم الله تعالى).

فقال إسحاق لأحمد: يا أبا عبد الله. لو لم نرحل من العراق إلى الحجاز إلا لطلب تفسير هذا الحديث لكانت لنا غنيمة. فقال أحمد: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَالِمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

٤ - روى البيهقي^(١) قال: كان حفص الفرد ينكر أخبار الآحاد. فقال للشافعي: يا أبا عبد الله. تقولون: لم يرو عن النبي ﷺ حديث إلا وفيه فائدة فأى فائدة فيما روى عنه ﷺ أنه أتى سباطة قوم فبال قائما (رواه في السنن الكبرى ١/ ١٠١).

فقال الشافعي: بل فيه أعظم الفوائد، أما تعلم أن العرب تقول: إذا كان بالرجل وجع الظهر كان البول قائما شفاء منه. وإنما فعل النبي ﷺ هذا لهذا السبب.

٥ - وروى الرازي^(٢) قال: سألوا الشافعي: هل الصبر على المحنة أفضل. أم الشكر على النعمة؟ فقال: إنه إذا امتحن فصبر. ثم مكن من النعمة. كان ذلك أفضل لأن التمكين درجة الأنبياء ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة. ألا ترى أنه تعالى امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مكنه. وامتحن موسى عليه السلام صغيراً ثم مكنه وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكنه. قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا﴾ [ص: ٤٣].

وامتحن سليمان عليه السلام. ثم مكنه وأعطاه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده.

* * *

(١) مناقب الشافعي ١/ ٣٢٤.

(٢) مناقب الإمام الشافعي ٣٠٥، ٣٠٦.

توثيق الشافعى

إن الإمام الشافعى رضى الله عنه لم ينازع أحد من أئمة وعلماء أهل السنة فى إمامته ولم يكن أحدهم مجاملا له . أو يتملقه لغرض فقد أجمع على إمامته الموافقون والمخالفون وقد تناوله النقاد جرحا وتعديلا كغيره من الرواة فكل من تناوله من النقاد وثقه ، نقل الحافظ ابن حجر عن الحاكم قوله : (تتبعنا التواريخ وسواد الحاكيات عن يحيى بن معين فلم نجد فى واية واحد منهم طعنا على الشافعى . ولعل من حكى عنه غير ذلك قليل المبالة بالوضع على يحيى . والله أعلم) (١) . . . إن يحيى بن معين رحمه الله تعالى وثق الشافعى رضى الله عنه ، لقد بهر الشافعى الناس بسعة علمه ورجاحة عقله وقوة حجته . وحسن منطقته وطلاقة لسانه ، يناظر مخالفه فى أدب جم . ويناقش فى سرعة بديهة . وكان قبل ذلك وبعد ذلك أعلاهم نسبا وأشرفهم حسبا فهو المطلبى القرشى من أبناء عمومة الرسول ﷺ فهو من علماء بيت النبوة سخي فى كرم ومتواضع فى حياء وعالم معلم فى أدب لقد سبق عقله عمره .

شهد له الأئمة والعلماء : مسلم بن خالد الزنجى وسفيان بن عيينة واسماعيل ابن قسطنطين ومالك بن أنس ومحمد بن الحسن ووكيع بن الجراح وأشهب بن عبد العزيز وأحمد بن حنبل ووثقه يحيى بن معين والنسائى والبخارى ومسلم وأبو حاتم وأبى زرعة وقتيبة بن سعيد والحاكم والطبرى وابن راهويه .

قال النسائى : (كان الشافعى عندنا أحد العلماء ثقة مأمونا) .

ودافع الإمام مسلم فى كتابه « الانتفاع بأهـب السباع » عن الشافعى دفاعا لا مثيل له وبين مكانته وعلو منزلته بين المحدثين كما ذكر الحافظ ابن حجر فى تهذيب التهذيب .

وقال ابن حجر فى توالى التأسيس : (قال الإمام أحمد : ما من أحد وضع الكتب منذ ظهرت أتبع للسنة من الشافعى) .

(١) تهذيب التهذيب ٣٠ / ٩ .

وروى البيهقي في المناقب قال : قال يونس بن عبد الأعلى في وصفه : كان من أعقل الناس . وكان لا يأخذ في شيء إلا نقول : هذه صناعته إذا أخذ في الشعر والعربية نقول هذه صناعته .

وروى أيضا : أن أبا يوسف أرسل إليه يقول : (صنف الكتب فإنك أولى من صنف في زمانك) .

وروى أيضا : ذهب جماعة إلى أن الشافعي : اشتغل بعلم الطب مستدلين بقوله : (علم الفقه للأديان . وعلم الطب للأبدان وما سوى ذلك فبلغه مجلس وقوله الوراق إنما يأكل من دية عينه) .

وقال الجاحظ : (لم أر أحسن تأليفا من المطلبي ، كان فوه ينظم درأ إلى در وقال إسحاق بن راهويه : (عجل الله له عقله لقله عمره) .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : (ما رأيت أحدا أفقه في كتاب الله من هذا الفتى القرشي) وسأله ابنه أي شخص كان الشافعي يا أبت ؟ .

فقال : (كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للناس) .

وقال محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة : (كان أصحاب الحديث رقودا حتى أيقظهم الشافعي رضي الله عنه) .

وقال قتيبة بن سعيد : (مات الشافعي وماتت السنن) .

وقال أبو زرعة : صدق أحمد بن حنبل . ما أعلم أحدا أعظم منة على الإسلام في زمن الشافعي من الشافعي . ولا أحدا ذب عن سنن رسول الله ﷺ مثل ما ذب الشافعي) وقال الحميدي : (حدثنا سيد الفقهاء . الشافعي) .

وقال الإمام أحمد : (كان الفقه قفلا على أهله حتى فتحه الله بالشافعي) .

وقال الحميدي : (صحبت الشافعي من مكة إلى مصر فكنت أستفيد منه المسائل وكان يستفيد مني الحديث) . . فقد كان يأخذ ما عنده من الحديث لا لجهله به ولكن لزيادة تحصيله ، روى البيهقي قال : قال الربيع

المرادى (فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه عن تفسيره ومعانيه) .

وقال داود بن علي الظاهري تلميذ الشافعي : (وجمع للشافعي رحمه الله من الفضائل معرفته بصحة الحديث وسقمه) .

وروى ابن عساكر في تاريخه بسنده إلى هلال بن العلاء قوله : (الشافعي أصحاب الحديث عيال عليه فتح لهم الأقفال) .

وروى البيهقي في المناقب عن يحيى بن معين قال : سمعت يحيى بن سعيد يقول : (أنا أدعو الله للشافعي في صلاتي منذ أربعين سنة) .

وروى أيضا : أن الشافعي لما ألف كتاب « الرسالة » وبعث به إلى الإمام عبد الرحمن بن مهدي قال عبد الرحمن : ما أصلي صلاة إلا وأدعو للشافعي فيها .

وعلق عبد الرحمن بن مهدي على كتاب الرسالة بقوله (هذا كلام رجل فهم) .

وروى البيهقي أيضا : عن عمرو بن العباس قال : قلت لعبد الرحمن بن مهدي : إن الشافعي لا يورث من المرتد . فقال عبد الرحمن : إن الشافعي شاب مفهم . لأن النبي ﷺ قال : « لا يتوارث أهل ملتين » أخرجه ابن ماجه في سننه وقال الربيع بن سليمان : سمعت أيوب بن سويد يقول : (ما ظننت أني أعيش حتى أرى مثل الشافعي) .

وقال علي بن المديني - من علماء الجرح والتعديل - : (الشافعي أحد أئمة أهل العلم بالحديث) .

وقال ابنه محمد قال لي أبي : (لا تترك للشافعي حرفا واحدا إلا كتبتة فإن فيه معرفة) .

وقال قتيبة بن سعيد : (مات الثوري ومات الورع ومات الشافعي ومات السنن ويموت أحمد بن حنبل وتظهر البدع) .

وروى البيهقي أن الزعفراني قال :

(ما حمل أحد محبرة إلا وللشافعي عليه منة) .

وقال أيضا : (ما رأيت الشافعي لحن قط . وكان يُقرأ عليه من كل الشعر فيعرفه) .

وقال علي بن معبد المصري : (ما عرفنا الحديث حقا حتى جاءنا الشافعي رضي الله عنه) .

وبعد : فهذا قليل من كثير من شهادات الأئمة والعلماء للإمام الشافعي وتوثيقهم له واعترافهم بفضله وسعة علمه وأثره الكبير في العلوم الشرعية وفنون الأدب واللغة والطب والفلك . فجزاه الله عما قدم للأمة من جهد خير الجزاء (١) .

* * *

(١) أنظر مناقب الشافعي للبيهقي والرازي ونور الأبصار ومقدمة بيان خطأ من أخطأ على الشافعي .

الفصل الخامس

علم الشافعي باللغة وآدابها

اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم . ولقد حافظ عليها المتكلمون بها قديما وحديثا وهي لغة ثرية تجدد نفسها بنفسها ولقد أثراها القرآن الكريم وأضاف إليها ما جردها وما خلصها من بعض اللكنات الشاذة وجدد في ألفاظها فمحا منها ما كان غريبا على اللسان العربي وعلى العرف والتقاليد والآداب . وهذا هو سر خلودها وبقائها .

ولقد أبرز الله من بين علماء الأمة من قاموا بتدوينها ووضع أصولها وقواعدها وبيان علومها وآدابها ولكل فرع من فروعها علماءه وطلابه بعد أن كانت تؤخذ بالسمع في جاهليتها وبعد ظهور الإسلام ونزول القرآن تكونت اللغة مما يلي :

– النحو .

– الصرف .

– البلاغة .

– الأدب والنقد .

– فقه اللغة .

– متن اللغة .

وقد أنشئت المدارس والمعاهد على مدى تاريخ الإسلام التي تقوم بتعليم اللغة وآدابها . وصنفت الكتب المتعددة في علوم اللغة وآدابها .

وما زالت اللغة العربية في حيويتها وعظمتها بتراتها الضخم في بلاد المسلمين . مما جعل الغرب والشرق يوافقون على اعتبارها لغة تخاطب عالمية في الأمم المتحدة أعلم : أن المتقدمين من أئمة اللغة والمتأخرين منهم . أعترفوا للشافعي بالتقدم في علم اللغة وأقروا له بكمال الفصاحة .

نقل عن الأصمعي أنه قال : قرأت ديوان الهذليين على شاب من شباب قريش يقال له : محمد بن إدريس الشافعي - رضي الله عنه - .

وحكى ابن دريد عن أبي حاتم السجستاني عن الأصمعي أنه قال : قرأت شعر الشنفرى على محمد بن إدريس الشافعي - رضي الله عنه - .

وحكى المبرد عن المازني أنه كان يقول : قول محمد بن إدريس الشافعي - رضي الله عنه - حجة في اللغة .

وكان الجاحظ يقول : نظرت في كتب هؤلاء النابغة . الذين نبغوا في العلم فلم أر أحسن تأليفا من المطلبي - الشافعي - كأن لسانه ينظم الدر .

وروى غلام ثعلب قال : سمعت أبا العباس : ثعلبا يقول : العجب أن بعض الناس يأخذون اللغة على الشافعي وهو من بيت اللغة فالشافعي يجب أن تؤخذ منه اللغة لا أن تؤخذ عليه اللغة (١) .

قال الفخر الرازي رحمه الله تعالى : مما يدل على قوة الشافعي في علم اللغة : أن الإمام أبا منصور الأزهري - ولا شك أنه كان من عظماء العلماء في علوم العربية - قد اعترف للشافعي رضي الله عنه بالكمال والتمام في هذا العلم . وصنف كتابا في شرح مشكلات ألفاظه وذكر في صدر ذلك الكتاب ثناء عظيما ومدحا عاليا للشافعي .

وأما الإمام أبو سليمان الخطابي . فإنه كان في النهاية القصورى في علم اللغة وفي الحديث . وهو كان من أصحاب الشافعي ومن المعترفين بتقدمه في علم العربية .

وأجمع أهل خراسان على أنه ما كان بخراسان أبرع في اللغة والنحو من أبي الحسن علي بن القاسم الخوافي صاحب كتاب « مختصر العين في اللغة والنحو » وهو كان قد افتخر في أشعاره بالشافعي فقال :

تلقيت ديني عن قريش وهاشم ومن بيته كان الخطيم وزمما

(١) مناقب الشافعي للبيهقي والرازي .

ففزت بدين الهاشمي محمد وبالعروة الوثقى التى لن تفصما
أدين بدين الشافعى وهديه وأبرأ إلى الرحمن ممن تهجما
وأما أبو عبد الله : ابراهيم بن محمد بن عرفة النحوى الأزدي : نطويه فله
كتاب معروف فى مناقب الشافعى يذكر فيه ألفاظه الفصيحة .

وأما أبو القاسم : محمود بن عمر الزمخشري (صاحب الكشف فى
التفسير) ولا نزاع أنه كان فى درجة عالية وأبهة عظيمة فى علم العربية – ولا
نزاع أنه كان فى درجة عالية وأبهة عظيمة فى علم العربية – فإنه اعترف فى
« الكشف » للشافعى بالتقدم فى علم العربية .

ثم قال : وكان محمد ابن بنت الشافعى يقول :

أقام الشافعى على تعلم العربية وأيام الناس عشرين سنة . وقال : ما به إلا
الاستعانة على الفقه .

وكان الشافعى يقول : أصحاب العربية جن الإنس . يبصرون مالا يبصره
غيرهم .

وكان أحمد بن حنبل يقول : « الشافعى فيلسوف فى أربعة أشياء : فى اللغة
وأيام الناس والمعانى والفقه » .

وقال أيضا الرازى : واعلم أنه نقل عن الشافعى أنهم سألوه عن بعض
المسائل بألفاظ غريبة فأجاب عنها فى الحال (١) . ١ . هـ .

لقد شهد له علماء اللغة والدين بعلمه بعلوم العربية وتفوقه فيها على أقرانه
ويرجع ذلك إلى سببين رئيسيين هما :

أولاً : كونه مطلبى قرشى وبلغه قومه نزل القرآن الكريم .

وثانياً : لقد دفعت به أمه رحمها الله تعالى إلى البادية ليحفظ اللغة
ويحافظ عليها فيقوى لسانه ويجمع أشعار البادية ويحفظها . وقد كان له ما
أرادت أمه رضى الله عنها . فحفظ شعر هذيل وغيرها .

(١) مناقب الإمام الشافعى للرازى بتصريف ص ٢١٥ – ٢٣٩ .

يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه:

ولولا أن الشعر بالعلماء يزرى
وأشجع في الوغى من كل ليث
ولولا خشية الرحمن ربى
لكنت اليوم أشعر من لبيد
وآل مهلب وآل يزيد
جعلت الناس كلهم عبيدى

● نماذج من شعره ونثره :

روى البخارى عن أبى بن كعب رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة) .

إِنْ نَظُمَ الشَّعْرَ وَإِنْشَاءَهُ لَا بَأْسَ بِهِ شَرِيطَةٌ أَنْ لَا يَتَعَاضَرُضَ مَعَ مَبَادِئِ الدِّينِ وَقِيمِهِ وَأَنْ لَا يَكُونَ قَبِيحًا فَحَسَنُهُ حَسَنٌ وَقَبِيحُهُ قَبِيحٌ لِذَا رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَنْشَدَ مِنْ شَعْرٍ أُمِيَّةٍ بَنَ أَبِي الصَّلْتِ مِائَةَ بَيْتٍ . وَقَالَ (إِنْ كَادَ لِي سَلَمٌ) .

وَاسْتَنْشَدَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شَعْرَ قَسِّ بْنِ سَاعِدَةَ :

في الذاهبين الأولي—
لما رأيت موارد الموت

من من القرون لنا بصائر
ليس لها مصادر

وذكر الإمام الشافعي رضي الله عنه من أن (الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح) وكان من معجزات النبي ﷺ أنه لم ينظم الشعر ولم يخط بيمينه ﷺ قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: لا يكاد يجود شعر القرشي وذلك لأن الله تعالى قال لنبيه ﷺ ﴿وَمَا عَلَّمَاهُ الشَّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩].

ولا يكاد يجود خط القرشي لأن النبي ﷺ ما كان يكتب بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

لقد كان الإمام الشافعي رضي الله عنه شاعرا فحلا ولكنه لم يسترسل في الشعر لانشغاله الدائم بالكتاب والسنة والفقه والتشريع والمساجلات والمناظرات مع العلماء من هنا أو من هناك كما أنه كان يرى في قرض الشعر للعالم مضیعة

لوقته ونقيصة في حقه ولم يؤثر عنه من الشعر إلا ما نظمه في الدين والفضائل
والنطق بالحكمة وقول الحق ولم يكن للشعر أغراض أخرى - كسائر الشعراء -
عند الإمام الشافعي رضي الله عنه وإليك نماذج من شعره تدل على شاعريته
وصدق أحاسيسه رضي الله عنه قال :

ومنزلة السفيه من الفقيه	كمنزلة الفقيه من السفيه
فهذا زاهد في علم هذا	وهذا أزهد منه فييه
إذا غلب الشقاء على سفيه	تنطع في مخالفة الفقيه

وقال أيضا :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل	خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة	ولا أن ما يخفى عليه يغيب
غفلنا لعمر الله حتى تداركت	علينا ذنوب بعدهن ذنوب
فياليت أن الله يغفر ما مضى	ويأذن في توباتنا فنتوب

وقال أيضا :

ليت الكلاب لنا كانت مجاورة	وليتنا لا نرى ممن نرى أحدا
إن الكلاب لتهدى في مواطنها	والناس ليس بهاد شرهم أبدا
ففر بنفسك وأستأنس بوحدها	تبق سعيدا إذا ما كنت منفردا

وقال الربيع بن سليمان رحمه الله تعالى : رأيت أشهب بن عبد العزيز
ساجدا . وهو يقول في سجوده :

(اللهم أمت الشافعي ، وإلا لذهب علم مالك بن أنس) .

فسمع الشافعي ذلك فتبسم ، وأنشأ يقول :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت
فقل للذى يبغى خلاف الذى مضى
وقد علموا لو ينفع العلم عندهم
كل العداوات قد ترجى إِمَاتَتِهَا
وقال رحمه الله تعالى :

وذو حسد يغتابنى حيث لا يرى
تورعت أن أغتابه من ورائه
وقال رضى الله عنه :

نعيب زماننا والعيب فينا
وقد نهجو الزمان بغير جرم
ديانتنا التصنع والتسراى
وليس الذئب يأكل لحم ذئب
لبسنا للتخادع مسك ضأن
وقال أيضا :

سأضرب فى طول البلاد وعرضها
فإن تلفت نفسى فله درها
وقال أيضا :

احفظ لسانك أيها الإنسان
كم فى المقابر من قتيل لسانه
لا يلدغتك إنه ثعبان
قد كان هاب لقاءه الأقران

وكما كتب الشافعى رضى الله عنه الشعر فإنه كتب النثر أيضا فى إجادة
وفصاحة نذكر منه هذه النماذج التى تدل على علو قدره فى اللغة وحسن بلاغته
وفصاحته .

قال محمد بن عيسى الزاهد : بلغنى أن عبد الرحمن بن مهدي مات له ابن
فجزع عليه جزعا شديدا حتى امتنع عن الطعام والشراب فبلغ ذلك الشافعي
فكتب إليه : (بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد : فعز نفسك بما تعزى به غيرك .
واستقبح من فعلك ما تستقبحه من فعل غيرك واعلم بأن أمعن المصائب فقدان
سرور مع حرمان أجر فكيف إذا اجتمعا على اكتساب وزور وأقول :

إنى معزىك لا أنى على ثقة من الخلود ولكن سنة الدين
فما المعزى بباق بعد صاحبه ولا المعزى وإن عاشا إلى حين
وروى عنه أيضا قال :

العلم حر . وطالبه عبد فإن خدم العلم قبله العلم ، وإن تجبر عليه العبد
فالعلم أولى أن يتجبر عليه . ثم قال :

ما تم حلم ولا علم بلا أدب ولا التجاهل فى قوم حليمان
وما التجاهل إلا ثوب ذى دنس وليس يلبسه إلا سفيهان

وقال الربيع : كتب الشافعي إلى رجل :

(إن الأفعدة مزارع الألسن فازرع الكلمة الكريمة . فإنها إن لم تنبت كلها
نبت بعضها وإن من المنطق ما هو أشد من الصخر وأنفذ من الإبر وأمر من الصبر
وأدور من الرحى . وأحد من الأسنة - السيوف - وربما اغتفرت كثيرا على
جوائب - حرارة - مخافة أن يكون أحر وأمر وأنكر) .

ومن أقواله أيضا :

(الكلام يقظة العقل والسكون نومه ، فانظر كيف مراعاتك له فى يقظته
ونومه) .

(العاقل من عقله . عقله عن كل مذموم) .

(لا يكمل المرء فى الدنيا إلا بخصال أربع : الديانة والصيانة والرزانة
والأمانة) .

(للمروءة أربعة أركان : حسن الخلق والتواضع والسخاء والنسك) وهكذا

كان الإمام الشافعي رضي الله عنه من علماء العربية وآدابها وقد بذل أقرانه في هذا الأمر وتلك فضيلة تضاف إلى فضائله الكثيرة والمتعددة والمتنوعة، واللغة العربية أداة أصلية من أدوات ومفاتيح كتاب الله وسنة نبيه ﷺ أي أن تعلم العربية أمر لازم لعلماء الأمة وعلى رأسهم الأئمة الأعلام.

فائدة :

لقد كان الإمام الشافعي رضي الله عنه على دراية وعلم واسع بعلوم وفنون :
الطب والفلك والرمي والفراسة فقد كان له بهذه العلوم وتلك الفنون دراية تامة
ومعرفة كاملة مما جعلنا نجزم في يقين أن الإمام الشافعي رضي الله عنه كان
موسوعة علمية متنوعة .

* * *

مسائل وألفاظ غريبة أجاب عنها الشافعي

لقد نقل عن الإمام الشافعي رضي الله عنه، أنهم سألوه عن بعض المسائل بالفاظ غريبة فأجاب عنها في الحال، مما يدل على سعة علمه وقدرة تمكنه من اللغة العربية.

وقد ذكر بعضها الإمامان البيهقي والرازي في المناقب ونقلها عنهما كثير من الذين كتبوا عنه. ونحن نذكر بعض هذه المسائل كما ذكرها الرازي^(١) رحمه الله تعالى وهي:

فأحدها: قيل له: كم قرو أم فلاح؟ فأجاب على البديهة: من ابن ذكاء إلى أم شملة والمراد بالقرو: الوقت - وأم الفلاح: الفجر: وهو كنية الصلاة. والسؤال واقع عن مدة صلاة الفجر. وقول الشافعي: من ابن ذكاء: أي من وقت صلاة الصبح وهو كنيته. إلى أم شملة. وهي: كنية الشمس. أي إلى طلوع الشمس وهذا التفسير: منسوب إلى الخطابي.

(وهذا معناه: أن وقت صلاة الصبح: ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس).

وثانيها: سئل: إذا نسي أبو دارس درسه قبل غيبة الغزاة بلحظة. ماذا يجب على أمة؟

فقال: عليها قضاء وظيفة العصرين.

قال السائل: بجنابة جناها أبو دارس؟ قال الشافعي: لا بل كرامة استحقتها أمه.

وتفسيره: أن نقول: أبو دارس: كنية فرج النساء... والدرس: الحيض.

يقال: نسي درسه (الرحم) أي ترك حيضه والغزاة: الشمس والمراد بأم دارس المرأة. إذ أم الشيء أصله.

(١) مناقب الإمام الشافعي ٢٢٠ - ٢٢٢.

وحاصل السؤال : أنه إذا كان قد انقطع حيض المرأة قبل غروب الشمس .
ماذا يجب عليها من الصلوات ؟ أجاب : بالعصرين . وهو : أنه يجب عليها الظهر
والعصر .

فإن قيل : كيف سمي الظهر عصرا ؟ .

قلنا : العرب قد يسمون أحد الشيئين باسم الآخر تغليباً كقولهم : سيرة
العمرين .

والمراد : أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - وقال تعالى : ﴿ وَلَأَبَوَيْهِ لِكُلِّ
وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ﴾ [النساء : ١١] .

والمراد : الأب والأم . وقال تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ﴾
[الأعراف : ٢٧] وقال تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [يوسف : ١٠٠] والمراد :
أبوه وخالته .

وفي الحديث : « البيعان كل واحد منهما بالخيار »^(١) .

وقال سلمان الفارسي - رضي الله عنه - (أحيوا ما بين العشاءين) أي
المغرب والعشاء وقالت عائشة - رضي الله عنها - (لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ
وما لنا طعام إلا الأسودان) أي التمر والماء .

وثالثها : سئل رضي الله عنه : فارس المعركة إذا قضى عليه أبو مضاء قبل أن
يحمي الوطيس هل يستحق السهم ؟ قال : نعم إذا أدرك الواقعة .
والوطيس : التنور . وقوله : حمى الوطيس . أي اشتد الحرب وأبو مضاء :
كنية الفرس وقضى عليه . قتل .

وجواب الشافعي : معناه : إذا قتل على الفرس بعد قيام الحرب وحضور
الواقعة .

ورابعها : سئل رضي الله عنه . هل تسمع شهادة الخالق ؟ .

قال : لا . ولا روايته ، والخالق : الكاذب . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ
الْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٣٧] .

(١) روى بمعناه أبو داود وروى الخمسة إلا ابن منجّة (البائع والمبتاع بالخيار حتى يتفرقا) .

وخامسها : سئل : هل من وضوء على من خنقه الحتق . فاستشاط ؟ .
قال : لا يجب عليه الوضوء . والحتق : شدة الحقد . والاستشاط : شدة
الغضب .

وسادسها : سئل : إذا حضر ابن الذكاء والزوجان فى الحركة هل يضر
صومهما ؟

فقال : إن نزع من غير مكث لم يضر وقوله : حضر ابن الذكاء يعنى : طلوع
الفجر من هذا الذى أوردناه قد بان لنا كيف كانت مقدرة الإمام الشافعى رضى
الله عنه فى تحصيل العلم وقدرته على الاستنتاج وتمكنه من اللغة العربية . يقول
أبو منصور الأزهري (ولا شك أنه - الشافعى - كان من عظماء العلماء فى علوم
العربية .

وهذا أبو الحسن : على بن القاسم الخوافى صاحب كتاب « مختصر العين فى
اللغة والنحو » يفتخر فى أشعاره بالشافعى فيقول :

تلقيت دينى عن قريش وهاشم	ومن بيته كان الخطيم وزمزما
ففزت بدين الهاشمى محمد	وبالعروة الوثقى التى لن تفصما
أدين بدين الشافعى وهديه	وأبرأ إلى الرحمن ممن تهجما

ولقد انتصر الإمام الزمخشري صاحب الكشاف فى التفسير . للإمام
الشافعى رضى الله عنه بالتقدم فى علم العربية . وعرض رأيه فى موضعين صحح
فيها رأى الشافعى على رأى غيره وهما :

أولا : تفسير الشافعى لقوله تعالى : ﴿ ذَلِكْ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ .
وثانيهما : قوله تعالى : ﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ وقوله تعالى ﴿ فامسحوا
بِأُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ﴾ فليراجع ذلك فى تفسير الكشاف فى سورتى النساء
والمائدة .

وكان محمدا بن بنت الشافعى يقول :

أقام الشافعي على تعلم العربية وأيام الناس عشرين سنة . وقال : ما به إلا الاستعانة على الفقه .

وكان الشافعي يقول : أصحاب العربية . جن وإنس . يبصرون ما لا يبصره غيرهم وكان أحمد بن حنبل يقول : الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء : (في اللغة . وأيام الناس والمعاني . والفقه) .

وروى ابن حجر العسقلاني : ^(١) : عن الربيع بن سليمان أنه كان يقول مرارا : لو رأيت الشافعي وحسن بيانه وفصاحته منه . ولو أنه ألف هذه الكتب على عربيته التي كان يتكلم بها معنا في المناظرة لم يقدر على قراءة كتبه لفصاحته وغرائب لفظه غير أنه كان في تأليفه يجتهد في أن يوضح للعوام رضي الله عنه ورحمه رحمة واسعة .

* * *

(١) توالى التأسيس ١٧٦ .

الفصل السادس

الشافعي العابد الزاهد المتصوف

إن لله رجالا أحرارا عقلاء . نظروا إلى الدنيا نظرة فاحصة متأنية واعية فوقفوا على حقيقتها وعلموا أنها مصدر المتاعب والمشاق والقلق والحيرة فأعرضوا عنها ولم تغريهم بلذاتها وشهواتها فأعلنوا براءتهم منها ، إنهم تركوا الدنيا وأقبلوا على ربهم معلنين خشوعهم وخضوعهم لله .

ووقفوا على بابه ملحين في صبر وعزيمة ففتح الله لهم أبواب رضاه ومنحهم نعمه وضوانه ولسان الحال يقول : أهلا بكم يا عبادي لقد أخلصتم العبادة وأحسنتم العبادة فأنتم أهل محبتي ومعرفتي إني أعددت لكم في الجنان ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ورحم الله تعالى إمامنا الشافعي رضي الله عنه لقد كان ضمن قافلة التوحيد والإيمان فعبد ربه في إحسان وزهد في الدنيا في صدق . وقال قوله المشهور « من ادعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها في قلبه فقد كذب » وصدق الله العظيم ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] .

لقد أحب الله تعالى وأحب نبيه المصطفى ﷺ ونذر نفسه لخدمة الإسلام والدعوة . حتى صار فارسا في ميدان العلم والعلماء صادقا في ميدان العبادة والزهد والتصوف .

روى أنه كان يقسم الليل أثلاثا ثلثا للعلم وثلثا للعبادة وثلثا للنوم وأما يومه فكان يقضيه بين العبادة ومدارسة العلم وتدريسه وكتابته أو ملائته على تلاميذه وأتباعه فأحبه الله تعالى وزع محبته في قلوب العباد .

ولقد بلغ من تعظيمه لله تعالى أنه كان كما قال : (ما حلفت بالله تعالى لا صادقا ولا كاذبا) .

وسئل عن مسألة فسكت ، ف قيل له : ألا تجيب رحمك الله ؟

فقال : حتى أرى الفضل في جوابي أم في سكوتي !!..

وكان من إجلاله لربه عز وجل أنه كان يعظم القرآن الكريم وروى عنه أنه كان يختمه مرة في اليوم واللييلة ولقد بلغ من إجلاله لمولاه أنه كان يؤخذ بالقرآن أخذاً شديداً وسحر ببيانه وفصاحته وعظمته وعجيب نظمه وشرائعه . يقول رحمه الله تعالى في سورة العصر « لو لم ينزل من القرآن سوى هذه السورة لكفت » .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى : (التوحيد أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته إلى الأسباب والوسائل فلا يرى الخير والشر إلا منه . ومن ثمرة ذلك التوصل وترك شكاية الخلق وترك الغضب عليهم والرضا والتسليم لحكم الله تعالى) (١) .

تلك كانت رؤية الشافعي رضي الله عنه . فكان إيمانه بالله عز وجل إيماناً يقينا خالصاً بعيداً عن الشك والشك . راضياً قانعاً بما قسمه الله له :
روى عبد الله بن مروان قال : كان الشافعي يدعو بهذا الدعاء .

(اللهم امنن علينا بصفاء المعرفة وهب لنا تصحيح المعاملة فيما بيننا وبينك على السنة ، وارزقنا صدق التوكل عليك وحسن الظن بك وامن علينا بكل ما يقربنا إليك مقرونا بعوافي الدارين برحمتك يا أرحم الراحمين) وكان الشافعي رضي الله عنه يخاف ربه ويرهبه .

سمع الحارث بن لبيد يوماً يقرأ قول الله تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦] فتغير وجهه واقشعر جلده واضطرب اضطراباً شديداً وخر مغشياً عليه . فلما أفاق جعل يقول : (أعوذ بك من مقام الكاذبين وإعراض الغافلين اللهم خضعت لك قلوب العارفين وذلت لك رقاب المشتاقين إلهي هب لي جودك وجللني بسترِكَ واعف عني تقصيري بكرم وجهك) (٢) .

وكان رضي الله عنه على علم بأسرار القلوب وتقلباتها، سئل عن الرياء

(١) مفتاح الفلاح ص ١٣٩ .

(٢) الروض الفائق ١٤٨ .

فقال : (الرياء فتنة عقدها الهوى خيال أبصار قلوب العلماء فنظروا إليها بسوء اختيار النفوس فأحبطت أعمالهم) .

وقال أيضا : (إذا أنت خفت على عملك العجب فانظر من تطلب ؟ وفي أى ثواب ترغب ومن أى عقاب ترهب وأى عافية تشكر وأى بلاء تذكر فإنك إن تذكرت فى واحدة من هذه الخصال صغر فى عينيك عملك) فانظر كيف ذكر حقيقة الرياء وكيف بينها وكيف بين علاج العجب وهما من كبار آفات القلوب .

ولما كان خوفه من الله تعالى شديدا كان كذلك رجاءه فى الله تعالى بنفس القدر .

جاءه رجل وقال له : إني خائف من ذنوبى أن أقدم على ربى وليس لى من عمل غير التوحيد . فقال الإمام رضى الله عنه : يا مؤمن لو أراد الله تعالى أن يؤتيك من المسامحة لديه لما أحالك فى مغفرة الذنوب عليه حيث يقول ﴿ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] ولو أراد عقوبتك فى جهنم لما ألهمك معرفتك به وتوحيده له . ثم قال :

إن كنت تغدو فى الذنوب جليدا	وتخاف يوم الميعاد وعيدا
فلقد أتاح من المهيمن عفوه	وأباح من نعم عليك فريدا
لا تياس من لطف ربك فى الحشى	وبطن أمك مضغة ووليدا
لو شاء الله أن تصلى جهنم خالدا	ما كان ألهم قلبك التوحيدا

فبكى الرجل وأقبل على العبادة وفرح بكلامه رضى الله عنه (١) .

وروى عنه فى الإخلاص والصدق قوله :

— وددت أن الخلق تعلموا هذا على أن لا ينسب إلى حرف منه .

— ما ناظرت أحدا قط على الغلبة وودت إذا ناظرت أحدا أن يظهر الحق

على يديه .

(١) الروض الفائق ١٤٨ .

— من أراد أن يقضى الله تعالى له بالخير فليحسن الظن بالناس .

— ليس العلم ما حفظ . العلم ما نفع .

— وقال لابن عبد الأعلى يا أبا موسى : لو اجتهدت كل الجهد على أن ترضى الناس كلهم فلا سبيل إليه فإن كان كذلك فأخلص عملك ونيتك لله عز وجل .
ويقول داعيا لطلب العلم والفقه : (تفقه قبل أن ترأس فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه) .

أى أطلب العلم والفقه قبل أن يتقدم بك العمر ويذهب الشباب فإنه يفوتك الخير الكثير إن لم تفعل هذا فى شبابك . ولا تطلب الرئاسة قبل أن تحصل العلم والفقه حتى تحقق العدل والإنصاف .

كما قال فى الزهد وترك زينة الحياة الدنيا :

عليك بالزهد ، الزهد على الزاهد أحسن من الحلوى على الناهد .

وقال يوصى تلميذه الربيع بن سليمان : يا ربيع لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها .

وقال المزنى — تلميذه — سمعت الشافعى رضى الله عنه يقول :

ليس لأحد إلا له محب ومبغض فإذا كان من ذلك فليكن المرء مع أهل طاعة الله عز وجل .

وروى أنه قال أيضا فى الزهد :

— خير الدنيا والآخرة فى خمس خصال : غنى النفس وكف الأذى وكسب الحلال ولبس التقوى والثقة بالله عز وجل على كل حال .

— من أحب أن يفتح الله قلبه ويرزقه العلم فغليه بالخلوة وقلة الأكل وترك مخالطة السفهاء وبعض أهل العلم الذين ليس معهم إنصاف ولا أدب وقال : أنفع الذخائر التقوى وأخذها العدوان .

وقال : أفضل الأعمال ثلاثة : ذكر الله ومواساة الإخوان وإنصاف الناس على نفسك ولقد أیده ربنا عز وجل بالكرامة لولايته وحسن عبادته .

دخل عليه بعض أصحابه عند احتضاره فقال : أما أنت يا أبا يعقوب
فتموت في قيودك وأما أنت يا مزني فيكون لك بمصر هنات وهنات . وأما أنت يا
ابن عبد الحكم فترجع إلى مذهب أبيك - المذهب المالكي - وأنت يا ربيع
أنفعهم في نشر الكتب فكان كما قال رضى الله عنه .

وصدق رضى الله عنه في قوله : (لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز
النفس فيفلح ولكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة العلماء أفلح
يقول رحمه الله تعالى :

لقد شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدي لعاصي

لقد كان الشافعي رضى الله عنه يعيش في عصر كانت الحركة الصوفية فيه
على أشدها ولم يرد عليهم الإمام مقولتهم ولم يعترض على مناهجهم بل إنه كان
يقول بأقوالهم ويتعبد بمثل مناهجهم وهذا معناه أنه كان رضى الله عنه راضيا
عنهم ومقرا لهم على أفعالهم ومجاهداتهم وأذكارهم وروى عنه رضى الله عنه أنه
قال : (إذا لم يكن العلماء هم الأولياء فمن يكونون إذا) لقد وقعت محبته في
قلوب الناس على مر العصور وفي شتى البلدان الإسلامية لأنه أحب الله ورسوله
ﷺ فأحبه الله ورسوله لذلك زرع الله محبته في قلوب عباده .

وكان من دعائه رضى الله عنه : اللهم إني أعوذ بنور قدسك وعظمة
طهارتك وبركة جلالك من كل آفة وعاهة وطارق من الإنس والجن إلا طارقا يطرق
بخير اللهم أنت عيادي فبك أعوذ وأنت ملاذي فبك ألوذ يا من ذلت له رقاب
الجبابرة وخضعت له أعناق الفراعنة أعوذ بجلالك وكرمك من خزيك وكشف
سترك ونسيان ذكرك والإنصراف عن شكرك أنا في كنفك ليلي ونهارى ونومى
وقرارى وظعننى وأسفارى ذكرك شعارى وثناؤك دثارى لا إله إلا أنت تنزيها
لأسمائك وتكرىما لسبحات وجهك أجرنى من خزيك ومن شر عبادك وقنى
سيئات مكرك واضرب على سرادقات حفظك وأدخلنى في حفظ عنايتك يا
أرحم الراحمين وسمع الشافعي يوما رجلا يقرأ قوله تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ

* وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿ [الرسلات: ٣٦] فتغير لونه واقشعر جلده واضطربت مفاصله وخر مغشياً عليه. فلما أفاق قال: أعوذ بك من مقام الكذابين وإعراض الغافلين اللهم خضعت لك قلوب العارفين. وذلت لهيبتك نفوس المشتاقين إلهي هب لي جودك وجللني بسترِكَ واعف عني في تقصيري بكرمك. ١. هـ.

قال محمد بن عبد الله البكري: كنت مع الإمام الشافعي رضي الله عنه بشط بغداد فرأى شاباً يتوضأ ولا يحسن الوضوء فقال له: يا غلام أحسن وضوءك أحسن الله إليك في الدنيا والآخرة ثم مضى فأسرع الشاب في وضوئه ثم لحق الإمام الشافعي ولم يعرفه فالتفت إليه الإمام وقال: هل لك من حاجة؟ قال: نعم علمني مما علمك الله فقال له: اعلم أن من عرف الله نجا ومن أشفق على دينه سلم من الردى ومن زهد في الدنيا قرت عيناه بما يرى من ثواب الله غداً أفلا أزيدك؟ قال: بلى قال: من كان فيه ثلاث خصال فقد استكمل الإيمان من أمر بالمعروف وائتمره ونهى عن المنكر وانتهى عنه وحافظ على حدود الله تعالى. قال: أفلا أزيدك قال: بلى. قال: كن في الدنيا زاهداً وفي الآخرة راغباً وصدق الله تعالى في جميع أمورك تنج مع الناجين. ثم مضى فسأل عنه الشاب. ف قيل له: هذا الإمام الشافعي رضي الله عنه ١. هـ.

روى أن النبي ﷺ قال: (حبب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة) - رواه النسائي والحاكم -.

وقال أبو بكر رضي الله عنه: وأنا حبب إلي من دنياكم ثلاث: الجلوس بين يديك؛ وإنفاق مالي عليك. والصلاة عليك.

وقال في (الرياض النضرة) قالت عائشة رضي الله عنها: أنفق أبو بكر على النبي ﷺ أربعين ألفاً.

وقال عمر رضي الله عنه: وأنا حبب إلي من دنياكم ثلاث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود.

وقال عثمان رضي الله عنه وأنا حبب إلي من دنياكم ثلاث: إطعام الطعام وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام.

وقال على رضى الله عنه : وأنا حبيب إلى من دنياكم ثلاث : الضرب بالسيف وإقراء الضيف والصوم فى الصيف .

فنزل جبريل - عليه السلام - وقال : يا نبى الله وأنا حبيب إلى من دنياكم ثلاث : النزول على النبیین وتبليغ الرسالة للمرسلين والحمد لله رب العالمين .

ثم قال : إن الله تعالى يقول : وأنا حبيب إلى من دنياكم ثلاث :

لسان ذاكر . وقلب شاكر . وجسد على البلاء صابر .

فالعامل بهذا كله من علامات المحبة لمن أراد الدخول فى قوله ﷺ : « من أحببنى كان معى فى الجنة » .

ثم قال : ولما وصل هذا الحديث إلى الأئمة الأربعة قال الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه وأنا حبيب إلى من دنياكم ثلاث : تحصيل العلم فى طول الليالى وترك الترفع والتعالى وقلب من حب الدنيا خالى .

وقال الإمام مالك رضى الله عنه وأنا حبيب إلى من دنياكم ثلاث : مجاورة روضته ﷺ وملازمة تربيته وتعظيم أهل بيته .

وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه وأنا حبيب إلى من دنياكم ثلاث : الخلق بالتلطف وترك ما يؤدى إلى التكلف والاقتداء بطريق التصوف .

وقال الإمام أحمد رضى الله عنه وأنا حبيب إلى من دنياكم ثلاث : متابعة النبى ﷺ فى أخباره والتبرك بأنواره وسلوك طريق آثاره (١) . أ. هـ .

وقد كان الإمام الشافعى رضى الله عنه زاهدا ورعا تقيا مجتهدا فى طاعة ربه عز وجل ، قال حسين الكرابيسى : بت مع الشافعى نحو ثمانين ليلة فكان يصلى نحو ثلث الليل وما رأيته يزيد على خمسين آية . وإذا أكثر فمائة . وكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل الله تعالى لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات ولا يمر بآية عذاب إلا تعوذ بالله منها وسأل النجاة لنفسه ولجميع المؤمنين والمؤمنات أجمعين فكأنه جمع فيه الخوف والرجاء معا وهو بهذا كان مقتديا برسول الله ﷺ فقد روى أنه

(١) نزهة المجالس ص ٧٧ ، ٨٨ .

كان يقوم بذلك وقال الربيع بن سليمان رحمه الله تعالى : كان الشافعى قد جعل الليل أثلاثا : فى الأول يكتب وفى الثانى : ينام وفى الثالث : يصلى .

وقال الحميدى : كان الشافعى يختم فى شهر ثلاثين ختمة وفى شهر رمضان ستين ختمة سوى ما يقرأ فى الصلاة ولما اشتد مرضه ثقبوا السرير ووضعوا تحته طشتا فقال يوما : اللهم إن كان لك فى ضرى قزد فبعث إليه إدريس بن يحيى المعافى وكان من الزهاد فقال : لست من رجال البلاء . فاسأل الله العافية .

وعن الحارث بن مسكين أنه قال : ما زال فى نفسى شئ من الشافعى حتى بلغنى أنه سئل عن الكفاءة ؟ فقال : الكفاءة فى الدين لا فى الحسب فعلمت أنه لم يصل إلى تلك الدرجة إلا ببركة الدين .

وقال البيهقى رحمه الله تعالى : وإنما أراد به الكفاءة التى يفسخ بسبب عدمها النكاح . وهى إسلام الزوج أما عدم الكفاءة فى النسب : فإن المرأة والولى إذا رضيا به . صح النكاح .

قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : ما كذبت . ولا حلفت بالله لا صادقا ولا كاذبا .

وقال أيضا : ما شبت منذ عشرين سنة .

قال البيهقى : لأن الشبع يورث القسوة . ويقلل الفهم وكان لا يتطيب فى موضع النكحة بماء الورد لأنه يشبه المسكر .

وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم : جلسنا يوما نتذاكر أمر الزهاد والعباد حتى ذكرنا ذا النون - المصرى - فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا عمر بن نباتة فسألنا عما كنا فيه . فقلنا : كنا فى أمر الزهاد حتى ذكرنا ذا النون . فقال :

والله ما رأيت رجلا أفصح ولا أروع من الشافعى : محمد بن إدريس . خرجت أنا وهو والحارث بن لبيد إلى الصفا فافتتح الحارث وكان غلاما لصالح المرى . فقرأ :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴾

[المرسلات : ٣٨]

فرايت الشافعي . قد اضطرب وبكى بكاء شديدا ثم قال : إلهي أعوذ بك من مقام الكذابين وإعراض الغافلين إلهي خضعت لك قلوب العارفين وولهمت بك قلوب المشتاقين إلهي هب لي ودك وجللني بسترِكَ واعف عني بكرم وجهك يا أرحم الراحمين .

قال : ثم خرجت إليه وهو بالعراق لأسمع منه شيئا فبينما أنا قاعد على الشط أتهيا للوضوء إذ مر بي رجل فقال : يا غلام أحسن وضوءك أحسن الله إليك فقفزت أثره فقال : يا غلام : إن من صدق الله نجا ومن أشفق على دينه سلم من الردى . ومن زهد في الدنيا قرت عيناه فيما يرى من ثواب الله غدا .

ثم قال : كن في الدنيا صادقا وفي الآخرة راغبا . واصدق الله في جميع أمورك تنج بها مع الناجين غدا . . فسألت عنه فقالوا : هذا محمد بن إدريس الشافعي .

ومات واحد . فقال الشافعي داعيا ربه عز وجل : اللهم بغناك عنه وبفقره إليك فارحمه ، ولقد كان الإمام الشافعي رضي الله عنه كريما في سخاء جوادا في رضي وكان يقول : (الكرم يغطي عيوب الدنيا والآخرة) .

وحكى الربيع بن سليمان عن الشافعي قال : جاء العبد وما عندي نفقة فقال لي : أهلي : عودت قومك أن تصلهم فلو استسلفت شيئا فاستسلفت سبيعين دينارا فتركت عشرين دينارا وفرقت الباقي فبينما أنا كذلك إذا أتاني رجل من رجال قريش يشكو الحاجة فأخبرته بخبري وقدمت إليه العشرين وقلت له : خذ ما تحب قال : ما ينفعني إلا أكثر من ذلك فقلت له : خذها فأخذها وبت وما معي دينار ولا درهم فبينما أنا في منزلي . إذا أتاني رجل من قريش وهو رسول من جعفر بن يحيى البرمكي ، وقال : أجب . فأجبته . فقال : ما شأنك في هذه الليلة ؟ فإني كلما نمت هتف بي هاتف يقول : الشافعي الشافعي فأخبرني عن حالك . فأخبرته . فأعطاني : خمسمائة دينار . ثم قال : أزيدك وأعطاني خمسمائة دينار أخرى ثم لم يزل يزيدني حتى أعطاني ألفي دينار .

وقال : رحمه الله تعالى : (من لا يحب العلم فلا خير له . ولا ينبغي أن تكون بينك وبينه معرفة) وكان رضى الله عنه شديد الرغبة فى محبة رسول الله ﷺ والافتداء بسنته عليه الصلاة والسلام فكان يقول : (كل حديث صح عن رسول الله ﷺ فإننى أقول به وإن لم يبلغنى) .

ويقول أيضا : (إذا وجدتم سنة عن رسول الله ﷺ خلاف قولى فخذوا بالسنة ودعوا قولى . فإننى أقول بها) .

وكان الربيع يقول : لو رأيت الشافعى لا ستحييت أن تنظر إليه من هيبتة وجلاله ووقاره .

قال الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [يونس : ٦٢ - ٦٤] الله سبحانه وتعالى يكرم أوليائه فى الدنيا وفى الآخرة يبشرهم بالكرامة فى الدنيا وبالنعيم المقيم فى الدار الآخرة ولقد أظهر الله تعالى الكرامة على يد الإمام الشافعى رضى الله عنه مما يدل على ولايته وصدقه فى عبادة ربه عز وجل .

قال الربيع بن سليمان : لما خرج الشافعى إلى مصر وأنا معه كتب كتابا وقال : يا ربيع خذ كتابى هذا وامض به إلى أبى عبد الله : أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى - وائتنى بالجواب .

قال الربيع : فدخلت بغداد ومعى الكتاب فلقيت أحمد بن حنبل فى صلاة الصبح فصليت معه الفجر فلما انتقل من المحراب : سلمت عليه وناولته الكتاب وقلت : هذا كتاب أخيك الشافعى من مصر فقال أحمد : نظرت فيه ؟ .

فقلت : لا . ففك أحمد الختم وقرأ الكتاب فتغرغرت عيناه بالدموع .. فقلت له : أى شئ فيه ؟ فقال : يذكر فيه : أنه رأى النبى ﷺ فى النوم فقال له : اكتب إلى أبى عبد الله : أحمد بن حنبل ، وقرأ عليه منى السلام وقل له : إنك ستمتحن وتدعى إلى القول : بخلق القرآن فلا تجبههم فسيرفع الله لك علما إلى يوم القيامة .

قال الربيع : فقلت : البشارة . فخلع قميصه الذى كان على جلده ودفعه إلى
فأخذته وأخذت جواب الكتاب وخرجت إلى مصر وسلمت الكتاب إلى
الشافعى . فقال : يا ربيع أى شئ هذا الذى دفعه إليك ؟ .

قلت : القميص الذى على جلده . فقال الشافعى : لا نفجعك به ولكن بالله
وادفع إلى الماء حتى أكون شريكا لك فيه .

فهذه رؤيا حق لأن رؤيا الرسول ﷺ فى النوم رؤيا حق : (من رآنى فى المنام
فقد رآنى حقا فإن الشيطان لا يتمثل بى) .

كما أنها كرامة صادقة وبشرى للشافعى وأحمد كليهما من الله سبحانه
وتعالى مما يدل على صحة ولايتهما وحسن تقواهما جزاهما الله عن الإسلام خير
الجزاء .

* * *

خاتمة

فقيه مصر وعالمها

إن مصر بتاريخها الطويل العظيم أحبت العلم والعلماء وظل أهل مصر فى شتى العصور يكرمون العلماء ويشيدون بالعظماء منهم مهما اختلفت اتجاهاتهم وتباينت توجهاتهم. لأن أهل مصر - خاصة - ما عرفوا يوما لغة التعصب لدين أو لعرق فهم يتصفون دائما بالطيبة واللين والتسامح. وترجع أسباب ذلك إلى تاريخها الدينى الطويل وإلى حضارتها العظيمة الضاربة جذورها فى أعماق التاريخ وإلى انتشار أبنائها حول نيلها العظيم الذى تعلموا منه لغة الهدوء والسكينة وشربوا من مياهه شراب الحب والطهر والود والتعاون والتآخى والكرم.

إن مصر برصيدها الهائل ومداخراتها القيمة قد حرمت على أبنائها الاشتراك فى أى صراعات قد يقوم بها نفر قليل فى الداخل أو يشتغل بها بعض سكان جارتها.

وفى ظل الدولة الإسلامية لم تشترك مصر فى الصراعات والخلافات التى دارت على أرض شبه الجزيرة العربية منذ عصر الصحابة رضى الله عنهم إلى يومنا هذا ولكنها كانت الصدر الحنون لمهاجرى المسلمين إليها خاصة أهل بيت النبوة من الرجال والسيدات علماء وغير علماء فاستقبلهم أهل مصر بالترحيب والإجلال والإكرام فعاشوا على أرضها تحوطهم عناية الله ورعايته وهم مشمولون بحب أهل مصر وحنانهم ثم ضم أجسادهم الطاهرة ثرى مصر التى تطيبت بأجسادهم ورفاتهم رضى الله عنهم وأرضاهم. وهى مساجدهم بمآذنها التى تعلو فى سماء مصر يؤمها الزائرون من كل فج عميق يتبركون بالعترة الطاهرة ويتوسلون بهم إلى الله تعالى ليستجيب منهم الدعاء ويتولاهم برحمته إنه سميع مجيب. ولقد طاف الإمام الشافعى بكبريات البلاد الإسلامية حتى انتهى به المطاف إلى مصر فوجد فى مصر أتباع الإمامين أبى حنيفة ومالك رضى الله

عنهما . وأخذ الشافعي رضي الله عنه يلقي دروسه في مسجد عمرو بن العاص رضي الله عنه والتف حوله التلاميذ والأتباع حتى أن بعض أتباع المذاهب الأخرى تركوا ما هم عليه وجلسوا إلى الشافعي يستمعون ويكتبون حتى انتشر أمره وذاع صيته واستحسن الناس طريقته . ثم أخذ يعيد النظر فيما كتبه بالعراق . وفي مصر غير بعض أرائه التي كان قد بثها بالعراق . فأملى كتبه الجديدة وأعاد صياغة بعض كتبه القديمة وذاع خبره في أرجاء مصر وكثر التلاميذ والأعوان مما أثار عليه حقد البعض حتى أن بعض علماء المالكية كان يدعو عليه أن يميتته الله عز وجل منهم أشهب بن عبد العزيز المالكي وعيسى بن المنكدر ووشى به البعض عند حاكم مصر « السري بن الحكم » وطلبوا منه أن يطرده من مصر وقد كاد أن يحدث ذلك لولا أن الله تعالى قد أمات الحاكم بعد ثلاثة أيام .

وفي مصر الكريمة النقي سيدنا الإمام بكرمة الدارين نفيسة العلوم والمعارف رضي الله عنها وهي من أبناء عمومته فاستمع منها وأخذت عنه وقالوا إنه كان يؤمها في صلاة التراويح في شهر رمضان حتى لقي ربه عز وجل وهي عنه راضية وجئ بجثمانه إليها فصلت عليه صلاة الجنازة خلف أبي يعقوب البويطي . ثم قالت : رحم الله الشافعي قد كان رجلا يحسن الوضوء .

ومعلوم أن الوضوء هو مدخل العبادة وهو فعل ما تستباح به الصلاة والطواف ومس المصحف وحمله وهكذا يقترب اسم الإمام الشافعي رضي الله عنه في مصر بتدريس فقه الكتاب والسنة خصوصا وبتدريس العلم عموما وبالمدرسة المتخصصة للتعليم لأول مرة في تاريخ الإسلام بمصر .

لقد ناصر الشافعي السنة في مصر كما رفع شأنها من قبل في بلاد الحجاز واليمن والعراق وقد بين للناس أن السنة موضحة للقرآن ومبينة له ولولاها ما استطعنا أن نتعرف على أحكام الله عز وجل . قال الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى : « ولو أن امرءا قال : لا نأخذ إلا ما وجدنا في القرآن لكان كافرا بإجماع الأمة ولكان . لا يلزمه إلا ركعة ما بين دلوك الشمس إلى غسق الليل وأخرى عند الفجر لأن ذلك أقل ما يقع عليه اسم صلاة ولا حد للأكثر في ذلك .

ويقول: ولو أن امرءاً لا يأخذ إلا بما اجتمعت عليه الأمة فقط أو يترك كل ما اختلفوا فيه مما جاءت فيه النصوص لكان فاسقاً بإجماع الأمة.

فالعمل بالسنة أمر حتمى وضرورة شرعية كما قرر الإمام الشافعى فى كتابه «الرسالة» كما ذكرنا سلفاً والسنة عند الشافعى لا تأتى بحكم ليس له أصل فى القرآن فهو مصدر الشريعة وهى مبينة لها. وكما يقول الشافعى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ: (فما أحل وحرم فإنما بين عن الله كما بين الصلاة).

ورأى الشافعى: أن النسخ يكون فى الكتاب ويكون فى السنة. وأن القرآن ينسخه القرآن ولا يمكن أن تنسخ السنة حكم القرآن لأنه لا ينسخ كتاب الله إلا كتابه كما كان المبتدئ لفرضه فهو المزيل المثبت لما شاء منه. جل ثناؤه ولا يكون ذلك لأحد من خلقه).

ورأى أن السنة تبين نسخ القرآن كما تبين القرآن ويرى أن السنة تنسخها السنة حتى أن القرآن لا ينسخها إلا ببيان من السنة ذاتها لأنها مبينة للقرآن دائماً وأولى أن يظهر ما ينسخ من السنن بسنن أخرى. ولو خالف نص القرآن سنة. دون أن تجاريه سنة جديدة لعمل بنص القرآن.

ولقد بينت السنة دائماً النسخ الذى وقع فى الكتاب أو فى السنن. يقول الإمام الشافعى: ولو نسخ الله حكماً مما قال. لسن رسول الله - ﷺ - فيما نسخه سنة ولو جاز أن يقال قد سن رسول الله - ﷺ - سنة ثم نسخ سنته بالقرآن ولا يؤثر عن رسول الله السنة الناسخة جاز أن يقال فيما حرم رسول الله من البيوع كلها قد يحتمل أن يكون حرمها قبل أن ينزل عليه ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ وفيمن رجم من الزناة قد يحتمل أن يكون الرجم منسوخاً لقول الله ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾.

وجاز أن يقال «ولجاز رد كل حديث عن رسول الله ﷺ بأن يقال إذا لم يجده مثل التنزيل...» ولو لا وضوح البيان فى النسخ لوقع شر مستطير^(١). ١. هـ.

لقد عاب أمير المؤمنين: على بن أبى طالب رضى الله عنه على رجل رآه

(١) الإمام الشافعى الجندى بتصرف ٣٣٥، ٣٣٦.

بالمسجد الجامع بالكوفة وهو يحدث الناس ويخلط الأمر بالنهي والإباحة بالحظر فقال له: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا. قال هلك وأهلك. وتقول بعض الروايات: إنه طرده من المسجد.

ولقد نقض الشافعي القول بوجوب تواتر السنة لتكون حجة وبين أن الحديث إذا ما ثبت صحة وروده عن رسول الله ﷺ متواترا أو أحادا - فإنه يجب العمل به.

لذلك أحبه المصريون أيضا ولقبوه بناصر السنة مثل ما قال اليمينيون والحجازيون والعراقيون هذا: وقد انتسب إلى المذهب الشافعي الكثير من العلماء الأعلام والوجهاء الأفاضل من المحققين ومن بلغ حد الاجتهاد. وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على سلامة منهج الإمام الشافعي رضي الله عنه والرضا بطريقته الأصولية القائمة على الكتاب والسنة وهو يعد عند المصريين من كبار أئمتهم وأستاذ علمائهم.

وقد تحققت نبوءة الرسول ﷺ (يخرج فيكم عالم قریش يملأ طباق الأرض علما).

ويقول الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه (ما من أحد مس محبرة إلا وللشافعي عليه منة).

فيا علماء الأمة: هلا كان لكم في الإمام الشافعي رضي الله عنه الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة لم تأخذه في الله لومة لائم ولم يهزه اعتراض معترض. لم يجامل في الفتوى ولم يتبع النفس والهوى وإنما طلب العلم لله ودرسه وأمله لله وهاجر في طلبه لله فرفع الله له شأنه وأشاع أمره وأكثر أتباعه إلى يومنا هذا. رحم الله الشافعي ورضي عنه وجزاه عن أمة محمد ﷺ خير الجزاء..

والله ولي التوفيق ...

أهم المراجع

- ١ - القرآن الكريم - وتفسير الرازي والقرطبي .
- ٢ - كتب السنن والمسانيد والموطأ وفتح الباري .
- ٣ - مؤلفات الإمام الشافعي :
 - الأم .
 - الرسالة .
 - مختصر المزني .
 - المسند .
 - السنن
 - مختلف الحديث .
 - جماع العلم .
 - ابطال الاستحسان .
- ٤ - مؤلفات الإمام البيهقي :
 - معرفة السنن والآثار .
 - بيان خطأ من أخطأ على الشافعي .
 - مناقب الشافعي .
 - الارشاد في الاعتقاد .
 - أحكام القرآن .
- ٥ - مناقب الإمام الشافعي - الفخر الرازي .
- ٦ - توالي التأسيس - ابن حجر العسقلاني .
- ٧ - تهذيب التهذيب - الإمام النووي .

- ٨ - طبقات الشافعية - الإمام السبكي .
- ٩ - نور الأبصار - الشيخ سيد الشبلنجي .
- ١٠ - الإمام الشافعي - الشيخ محمد أبو زهرة .
- ١١ - أصول الفقه - الشيخ محمد أبو زهرة .
- ١٢ - الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي - محمد بن الحسن الحجوى الثعالبي الفاسي .
- ١٣ - تاريخ التشريع الإسلامي - محمد الخضرى .
- ١٤ - منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة - د . محمد العقيل .
- ١٥ - الإمام أحمد بن حنبل - رمضان عصفور .
- ١٦ - الدر النفيسة في مناقب السيدة نفيسة - رمضان عصفور .
- ١٧ - مفتاح الجنة في إحتجاج بالسنة - جلال الدين السيوطى .
- ١٨ - الشريعة - الآجرى .
- ١٩ - اعلام الموقعين - ابن القيم الجوزية .
- ٢٠ - السنة ومكانتها في التشريع الإسلامى - د . مصطفى السباعى .

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٥
● الفصل الأول : عصر الإمام الشافعى	٩
الحالة السياسية والاجتماعية	١١
الحالة الحضارية والعلمية	١٤
حركة التشريع الإسلامى فى هذا العصر	١٩
— تدوين العلوم الشرعية	٢١
١ — القرآن الكريم وعلومه	٢٢
٢ — تدوين السنة الشريفة	٢٣
٣ — تدوين الفقه	٢٤
٤ — تدوين أصول الفقه	٢٥
— النزاع فى مادة أصول الفقه	٢٦
١ — الكتاب	٢٦
٢ — السنة	٢٧
٣ — القياس	٢٩
٤ — الإجماع	٢٩
٥ — الاستحسان	٣٠
٦ — المصالح المرسلة	٣١
٧ — المصطلحات الفقهية	٣١
— المدارس الفقهية فى مصر	٣٣
١ — مدرسة أهل رأى	٣٣
٢ — مدرسة أهل الحديث	٣٤

٣ - مدرسة أهل الظاهر ٣٤

٤ - مدرسة الشيعة ٣٤

٥ - مدرسة الخوارج ٣٤

● الفصل الثاني : حياة الإمام الشافعي ٣٦

أسرته ونسبه ٣٨

مولده ونشأته ٤٠

دراسته الفقه وأصوله ٤٢

في العراق ٤٦

جلوسه للتدريس والفتوى ٤٧

الهجرة إلى مصر ٤٩

وفاة الإمام الشافعي ٥١

الإمام الشافعي يروي رحلاته ٥٤

شيوخ الشافعي ٦٥

تلاميذه ٦٦

● الفصل الثالث : الإمام المجدد

صفاته ومواهبه ٦٩

عوامل تكوين شخصيته ٧٠

منهجه العلمي ٧١

العلم وأنواعه عند الإمام الشافعي ٧٤

علم الشافعي بكتاب الله عز وجل ٧٩

معركة السنّة ٨٧

حجية السنة : معناها وتعريفها ٨٩

وجوب طاعة الرسول ﷺ واتباع أمره ٩٢

الموضوع	الصفحة
الإمام الشافعى ناصر السُّنة	٩٤
خبر الواحد	١٠٦
تثبيت خبر الواحد	١١١
كذب المفترون	١١٨
الإمام الشافعى وعلم الكلام	١٢١
١ - الإيمان	١٢٤
الاستثناء فى الإيمان	١٢٨
الفرق بين الإسلام والإيمان	١٣٢
٢ - دليل الوجدانية	١٣٣
٣ - أسماء الله وصفاته عز وجل	١٣٨
٤ - قضية خلق الأعمال	١٤٢
٥ - النبوة	١٤٦
٦ - مذهبه فى الخلفاء والصحابة رضى الله عنهم	١٤٧
● الفصل الرابع: الإمام الفقيه	١٥٥
- أصول الفقه	١٥٥
١ - القرآن الكريم	١٥٦
٢ - السنة النبوية الشريفة	١٥٧
٣ - الإجماع	١٥٨
٤ - القياس والاجتهاد	١٦٣
٥ - الاستحسان	١٦٦
- الفقه الشافعى:	١٧٣
(أ) المذهب القديم (العراقى)	١٧٧
(ب) المذهب الجديد (المصرى)	١٧٩

١٨٢	رد افتراء
١٨٥	مذهبان أم مذهب واحد
١٨٧	مواقف ومحن للشافعي رضي الله عنه
٢٠٠	استنباطات للشافعي
٢٠٠	١ - في مجلس الإمام مالك
٢٠٢	٢ - في مجلس ابن عيينة
٢٠٤	توثيق الشافعي
٢٠٨	● الفصل الخامس : علم الشافعي باللغة وآدابها
٢١١	نماذج من شعره ونثره
٢١٥	فائدة
٢١٦	مسائل وألفاظ غريبة أجاب عنها الشافعي
٢٢٠	● الفصل السادس : الشافعي العابد الزاهد المتصوف
٢٣١	خاتمة : فقيه مصر وعالمها
٢٣٥	أهم المراجع
٢٣٧	الفهرس

* * *

رقم الايداع : ١٠٦٦٣ / ٢٠٠٠

فى هذا الكتاب

• من الواضح أن مؤلفات استاذنا الجليل رمضان أحمد عبد ربه عصفور اضافات حسنة إلى المكتبة الإسلامية الحديثه، ولا عجب، فالمؤلف من طراز فريد من علماء الأزهر الشريف، وداعية غزير المادة، صادق النية فى خدمة دين الله (الإسلام) ونصرة كتاب الله العزيز، وسنة رسوله الكريم ﷺ.

• وفى هذا الكتاب حدثنا شيخنا عن الإمام العظيم محمد بن ادريس الشافعى، الذى حمل راية الجهاد العلمى بعد الإمامين العظيمين أبى حنيفة ومالك رضى الله عنهم جميعاً. وقد دار البحث فى هذا الكتاب حول فقه الإمام الشافعى، وهو أول من وضع مؤلفاً منهجياً فى أصول الفقه (الرسالة) بجانب - تأسيسه مذهب - الفقهى الواسع الانتشار فى ربوع العالم الإسلامى.

• ثم حول الحديث النبوى الشريف. هذان المحوران (الفقه وأصوله، والحديث النبوى) طاف حولهما شيخنا رمضان، فأقنع، وأمتع، وجلّى جوانب كثيرة فيهما من جهاد الإمام الشافعى، وحقق مسائل كثر حولها الخلاف قديماً وحديثاً، مثل إمكان حدوث الإجماع بين علماء الأمة، وبخاصة فى العصر الحديث، الذى تيسرت فيه وسائل الاتصال، ومثل هل كان للإمام الشافعى مذهبان - قديم وجديد - أم كان له مذهب واحد؟.

• إن أى كلام يقال عن هذا الكتاب لا يغنى عن قراءته بعناية؛ لأنه دوحة يانعة الثمار من دوح العلم النافع فى الدين والدنيا جزى الله مؤلفه خيراً.

محمد محمود هاشم